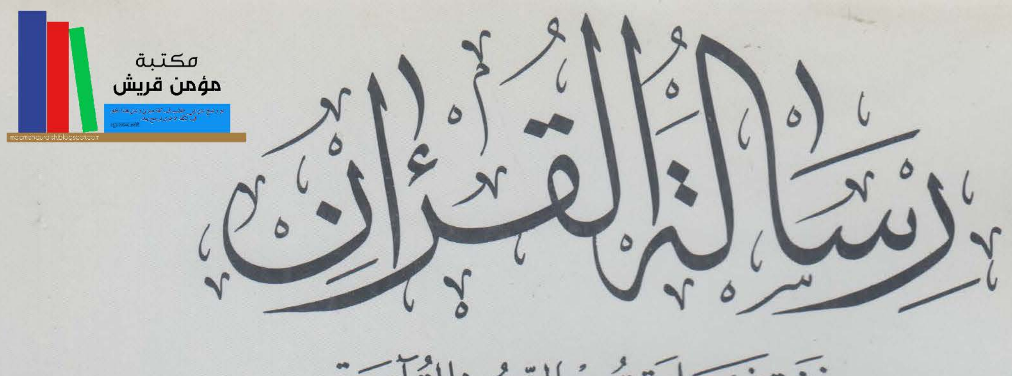
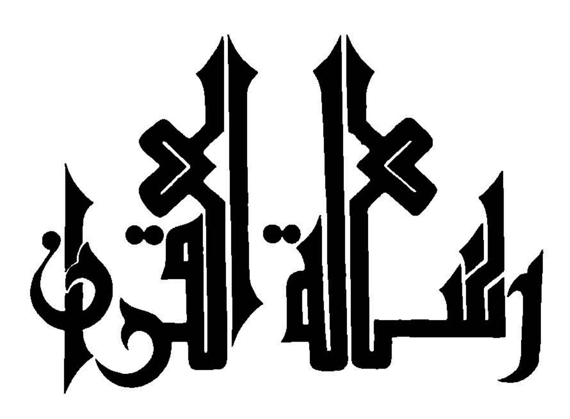


نشرة فصلية تعنى بالشؤون القرآنية

العدد الحادي عشر • رجب، شعبان، رمضان ١٤١٣هـ

إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم راكعون





نشرة فصليّة تعنى بالشّؤون القرآنيّة
تصدرها دار القرآن الكريم

المراسلات:

الجمهورية الاسلامية الايرانية

قم-دارالقرآن الكريم

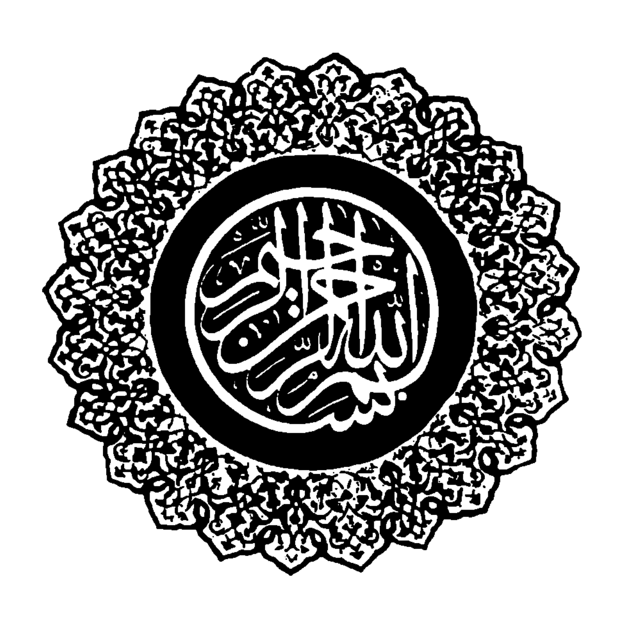
ص.ب ٣٧١٨٥/١٥١

- النشرة متخصصة بالدراسات والشؤون القرآنية
- ترحب رسالة القرآن بكل نتاج ينسجم واهتماماتها القرآنية.
- ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ما يرد في المقالات من افكار يتحمل الكاتب مسؤوليتها
- النشرة غير ملتزمة باعادة المواد التي تتلقاها للنشر.

١٠٠

الثمن: ٥٠ توماناً أو مايعادلها

المحتويات



● **تنويه**

نتيجة لخلل فني، في برامج الحاسب الالي، خرجت الارقام(٦ و ٤) بالرسم الفارسي: (۶ و۴)، فمعذرة لقارئنا الكريم



المهزومون ابداً . . . والمنتصرون ابداً

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين﴾. (آل عمران : ١٣٩)

في غمرة الصراع المرير بين الهدى والضلال يتعرض أصحاب المبادئ الى امتحانات عسيرة، وهزّات عنيفة، ومخاطر جمة . . تزيد من صلابة المؤمنين الصادقين أولي البصيرة: (فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا) فلم يتطرق الوهن الى قلوبهم ولم يتسرب الاحساس بالانسحاق والهزيمة الى نفوسهم، مهما لقوا، في الطريق اللاحب، من أذى، وحرب، وارهاب، وخوف، وتقتيل، وتشريد، وهجره، وفقر، وابتلاء.

بيد أننا لا نعدم في الصف المسلم من يخور عزمه، وتفتر همته، وتتراخى اندفاعته، وتتصدع عزيمته . . اذا ما احتدمت المعركة، وأفضت نتائجها الى غيرما ينبغي. وفي هذه الحالة يحقق المخطط المضاد غايته البعيدة حينما تنكفيء الحالة الاسلامية، وبشعور من الوهن والضعف والحزن، تمضي تتساءل: كيف حدث كل هذا؟ ولماذا؟ . .

ويواجه القرآن هذا كله بالرفض لهذه الحالة، في موقف المؤمنين لأن الوهن والحزن يعبران عن انسحاق داخلي أمام الهزيمة في انطواء روحي يسقط معه الشعور بالكرامة والاحساس بالعزة . . كما يقول مفسر معاصر .

الهزيمة النفسية

إن أخطر ما تتعرض له الأمم والجماعات هو الهزيمة النفسية، واذا ما دب الضعف الى النفوس، والوهن الى الصفوف . . فان هذا الضعف بداية النهاية، وجوهر الهزيمة،

والانسحاب . . فالسقوط والاضمحلال.

انها الشخصية القلقة، والنفسية الضعيفة، والارادة الخاوية المنهزمة. وعليه فان النكوص هو قدرها المحتوم بخلاف الأمة أو الجماعة التي تتعالى على الشهوات وتعض على الجراح، وتستجيش كوامن القوة المذخورة، فتتجاوز المحنة بسلام، مهما طال السرى، وهى أصلب عودا، وأكثر مناعة وأشد قربا الى الله تعالى ، وأعمق ثقة به.

اذن الامم القوية الحية التي يحس افرادها بالشموخ وعلو الهمم، ويتمتعون بالصلابة وقوة العزيمة هى التي تحوّل الهزيمة الى نصر، والسقوط الى انتفاضة، فهي تتعلم من الأحداث، وتستفيد من المحن، فتخرج من الظروف الصعبة بتجربة غنية وخبرة رائدة تنير لها المسيرة وتشخص أمامها معالم الطريق.

والقرآن الكريم في خطابه للأمة المسلمة: **«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . .»** انما يحاول أن يقطع الطريق على الهزيمة النفسية التي يتعرض لها الانسان في لحظات الوهن والانهيار، وليزرع فيه روح الثبات والقوة المعنوية، وليفتح أمامه آفاق النصر واسعة مديدة . . (كراس لماذا السقوط الحضاري: ٤٣).

الأعراض المتشابكة

وككل الظواهر الاجتماعية، فان هناك أعراضا متشابكة أدّت الى بروز هذا النكوص، (الاستسلام للأمر الواقع)، ومن بين أهم هذه الدواعي:

أولا: الخلل الذاتي

ان الكثير من المهزومين يعانون بالأساس من خلل ذاتي، فهم مهزومون من الداخل، قبل كل شيء. ويفتضح أمر هؤلاء في النوائب والشدائد، اذ يعجزون عن مواجهة الواقع بكل تحدياته، وضغوطه، وعوائقه.

وبديهي، أن هذه الحالة المرضية الخطيرة تزداد خطورتها كلما اتسع نطاقها من المجال الفردي الى كيان الجماعة.

ثانيا: الجهل بسنن الله:

لم يخلق الله سبحانه الكون عبثا: **(ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك)** فهناك سنن ونواميس ثابتة تحكم هذا الكون ، تشير دلالتها الى مغزى الحكمة الالهية الكامنة وراء هذا النظام. «فهلاك الامم، ومداولة الأيام بين الناس، والابتلاء لتمحيص السرائر وامتحان قوة الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين، والمحق للمكذبين . . هي بعض تلك السنن التي يشير اليها السياق»

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين. هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين. وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ - آل عمران: ١٣٧ - ١٤٢.

وواضح من خلال السياق، أن المهزومين ينقصهم الوعي الشامل، ويفتقرون الى الادراك العميق لسنن الله، ولهذا نراهم يتساقطون، في المخاضات، لأنهم لاينظرون إلا الى وقع أقدامهم، أما التأمل في ماضي البشرية وأجيالها، واستشراف مستقبلها.. واستخلاص الدروس والعبر التي تحفل بها المسيرة الانسانية.. فأنهم في غياب من وعي ذلك.. وهذا ما يجعلهم رهائن اللحظة الآسرة، وينفعلون بها سلبا أو أيجابا، دون أن يعوا حقائق الظواهر التاريخية، ويبنوا مواقفهم على ضوئها.

ثالثا: طغيان الشعور بقوة الخصم

ان الاستعلاء الرسالي الذي يطالبنا به القرآن يتطلب من المؤمنين **(وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)** أن تواجه هذه الثلّة الخيّرة كل قوى الكفر والضلال والتبعية بنفوس مطمئنة الى نتيجة الصراع، سواء تحقق النصر المادي أم لا.. فالمؤمن منتصر في كل الأحوال طالما بقي يعضّ على النواجذ دفاعا عن الحق، ووقوفا بوجه الطاغوت المنهزم حتى ولو كان هو المنتصر في المعركة: (قل هل تَرَبَّصون بنا إلا إحدى الحُسنَيَين ونحن نتربّص بكم أن يصيبكم اللهُ بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربّصوا إنّا معكم متربّصون) التوبة: ٥٢.

وفي ضوء هذه الحقيقة فان المؤمنين لايشعرون بالضعف أمام جحافل الخصم، حتى وهم يرون كل قوى البغي تحارب الاسلام وتناصب أبناءه العداوة والتشويه، لأن النهايات معروفة النتائج **(والعاقبة للمتقين)**

أما اولئك الذين يعانون من خلل ذاتي، وقصور في فهم الوعي التاريخي فانهم من الطبيعي ان ينبهروا بقوة الخصم، ويشعروا بالعجز عن مواجهة الآخر، ولهذا نراهم يبحثون عن مبررات هذا العجز، ويغلّفون انبهارهم بقوة الخصم المادية عبر تضخيم للامور، ولن يمر وقت طويل حتى يتحول هؤلاء الى أبواق مضادة لمسيرة الهدى والتغيير، والى أوساط ناقلة لأراجيف الآخر ومطاعنه.

على أن مظاهر التداعي لا تقف مدياته عند هذا الحد، لدى المعوّقين والمثبّطين

المهزومين، بل تصل قمة الهزيمة النفسية الى حيث تقليد الآخر، والسير على خطاه، وذلك وفق منطق انبهار المغلوب بحضارة الغالب.

وقد شهدت الساحة الاسلامية - للأسف - أصنافا من هذا النمط، في تاريخنا الحديث المعاصر . . وهذا أحد أبرز الكتاب المصريين يجاهر بكل وقاحة «إنّ سبيل النهضة واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهي أن نسير سيرة الاوربيين، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادا، ونكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يجحد منها وما يعاب» ويذهب هذا الكاتب الى أبعد من ذلك حينما يدعو الى فناء أبناء جلدته في الاوروبيين.

ويسجل القرآن أنّ هذه التبعية والارتداد إنّما هي نتيجة طبيعية لضعف الايمان، والهزيمة الداخلية، وعدم الاستعداد لتحمل الشدائد والمحن. «إنّ الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب، وتمحيص الصفوف. وان هناك نموذجا من الناس يعلن كلمة الايمان في الرخاء، يحسبها خفيفة الحمل هيّنة المؤونة لا تكلف نطقها باللسان، فاذا أوذي بسبب الكلمة التي قالها، وهو آمن معافى، استقبلها في جزع، واختلت في نفسه القيم واهتزت في ضميره العقيدة:

وعلى الجانب الآخر، وفي معترك الحياة ومصطرع الأحداث تنمو الشخصية المسلمة وتصاغ. ويوما بعد يوم وحدثا بعد حدث تنضج هذه الشخصية وتنمو، وتتضح سماتها . . وكانت الاحداث تقسو على الجماعة الناشئة حتى لتبلغ أحيانا درجة الفتنة، وكانت فتنة كفتنة الذهب، تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها، فلا تعود خليطا مجهول القيم . . وكان القرآن الكريم يتنزل في ابان الابتلاء أوبعد انقضائه، يصور الأحداث ويلقي الأضواء على منحنياته وزواياه فتنكشف المواقف والمشاعر والنوايا والضمائر، ثم يخاطب القلوب وهي مكشوفة في النور، عارية من كل رداء وستار، ويلمس فيها موضع التأثر والاستجابة، ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد» كما يقول صاحب الظلال.

اليوم، وفي هذا المنعطف التاريخي الذي تشهده المسيرة الاسلامية وهي تكافح وتنافح لاستئناف دورتها الحضارية . . على أبناء الاسلام أن يوطنوا أنفسهم ويربّوها على تحمل المشاق، والثبات . . وعدم السماح للظواهر المرضية والمعوقات أن تقود الركب الى الاستسلام . . وذلك هو منتهى الهزيمة.

التحرير.

مسألة التحدّي والمعارضة
في اعجاز القرآن

د. عبدالجبّار شرارة

مقدمة: القرآن الكريم، ذلك الكتاب السماوي الخالد، أكبرُ ظاهرة برزت الى الوجـود الإنسـاني، وأحدثت نقلةً نوعية ومنعطفاً كبيراً حاسماً في تاريخ البشرية، حتى ليصح القول إنه ليس هناك كتاب في التاريخ الأنساني برمته، أحدث من التغير الشامل، والانتفاضة الجبارة، والارتقاء بالمجتمع كالذي أحدثه القـران الكريم، إذا ألّف بين القلوب المتنافرة، «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم» ونهض بالامة الى العزة والمنعة، ومن هنا فقد حظي القرآن الكريم بعناية خاصة من الخاص والعام، من المؤمنين والجاحدين، وتناولوه بالدراسة من كل جانب وحاولوا استقصاء اسراره والاحاطة بوجوه بيانه، والغوص الى معانيه وأغراضه. وعلى أية حال فالأمر المجتمع عليه أن هذا الكتاب قد خلبَ الألباب وأدهش العقول، وكان لآياته وبيانه وقع عظيم وأثر جليل في النفوس. ومن هنا نشأت قضية الأعجاز، وشرع العلماء يبحثون عن وجوه اعجاز القرآن الكريم، فألفت الكتب، واغتنت المكتبات بزاد من العلم والأدب طبقت شهرتة الآفاق، وامتدّ أثره الى كل ميدان من ميادين المعرفة الإنسانية.

إنّ من العسير على الباحث بعد أكثر من ألف وأربعمائة من السنين وازاء تلك الثروة العظيمة التي خلفها العلماءُ الأجلاء في هذا المجال. نعم، من العسير أن يناقش قضية الإعجاز، ويأتي بشيء طريف، ولكن المقولة المأثورة: «كم ترك الأول للآخر» ما تزال صحيحة، فكانت هذا الملاحظات والرؤى التي اقتصرت على جانب على تلك

القضية الضخمة، وهو مسألة التحدي القرآني والمعارضة الموهومة، وربما ستكون مزية هذه الدراسة أنها جمعت بعض ما تفرق، وألفت بين ما تشابه من وجوه القول وسديد الآراء باسلوب سلس يستهدي بمناهج البحث العلمي المعاصر. ولذلك سنعرض أولاً لمسألة التحدي القرآني ثم ننتقل الى مناقشة مسألة المعارضة المزعومة.

أولاً: التحدي القرآني

أعلن نبينا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم بين قومه العرب أنه رسول الله تعالى وأن هذا الذى يتلوه عليهم من قرآن إنما هو «تنزيل من ربّ العالمين»[١] وانه (بلسان عربي مبين)[٢] وهو حجته على نبوته، وبرهانه ودليله على صدق رسالته وسفارته، ولتأكيد هذا الأمر طرح مسأله التحدي بالقرآن، فدعا قومه العرب ممّن لم يؤمن برسالته ولم يصدق دعوته، دعاهم الى المعارضة وردّ التحدي، المعارضة بمعناها الذي استقرّ في أوساطهم ومنتدياتهم، وقد صرّح بذلك القرآن قائلاً: (أم يقولون تقوّله بل لايؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)[٣]. ولكنهم لم يتصدوا لهذا الأمر ولم يطلبوه أويحاولوه، ليس عن جهلٍ لمعنى هذا التحدي وخطره، إذهم يدركون أنّ وراء ذلك تهديداً خطيراً لجامعتهم الأوثانية واعتقاداتهم التي ورثوها، بل عن ادراك جلي وفهم تام لمعنى المعارضة المطلوبة، وهي فيما تعنيه المجاراة في الاسلوب والمبنى، ولايجوز أن يقع في وهم أحد أنهم عُدموا البلغاء، فهذا الجاحظ يقول: «بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً وأحكم ما كانت لغةً وأشدّ ما كانت عدةً»[٤].

إنّ القرآن الكريم قد وضعهم بهذا التحدي امام الحقيقة وجهاً لوجه، فهو كتاب كما يسمعونه، كلماته عربية منها يؤلفون كلامهم، وتراكيبه عربية عليها جرت فنون خطاباتهم، وإذن فليس عليهم إلا أن يحشدوا بلغاءهم وهم كثيرون، ثم يَلجوا ميدان المعارضة ويأتوا بحديث مثله فينتهي كل شيء، تسقط الدعوى وينهار أساسُها، ويظهر بطلانها، فتسلم لهم -للعرب- حينئذ جامعتهم ومصالحهم ولكنهم لم يحاولوا ذلك، وذلك لأنهم رازوا أنفسهم فوجدوا أنهم أمام أمر لاقبلَ لهم به. ولما أعيتهم الحيلة، وزعموا أنه -أي القرآن- كلام مفترىً وإنهم لوشاءوا لقالوا مثله، بغية التشويش على الناس،

ولكن القرآن لم يترك لهم فرصةً جني ثمار هذا الافتراء والزعم، فتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، قال تعالى: **«أم يقولون افتراه قُل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون اللّه إن كنتم صادقين»**.[5]

هكذا قطعاً لدابر تقولاتهم، وابطالاً، واشهاراً للحجة فوق رؤوسهم، إنهم بهذا أمام تحد جديد وهوكما يبدومما يسهل عليهم التصدي له والمصاولة فيه. وإذن فما عليهم إلا المعارضة بهذا القدر المحدود ثم يستريحون مما تثيره آيات هذا القرآن من خوف وقلق في أوساطهم، ولكنهم لم يتقدموا خطوةً واحدة بهذا الاتجاه بل اسقط ما في أيديهم فلم يجدوا وسيلة سوى منع الناس من الإلتقاء بالرسول محمد صلى الله عليه وآله أوالاستماع الى ما يتلوه من آيات، وقد ذُكر ذلك على لسانهم **«لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»**.[6] ولكن القرآن الكريم لم يتركهم وما يستغون بل سرعان ما صعقهم بأن ألقى اليهم تحدياً من نوعٍ آخر تحدياً يستوقف كل ذي بصيرة وعقل، انه يتحداهم بالاتيان بسورة واحدة من مثله فقط، قال تعالى: **«وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين»**.[7]

وامام هذا المستوى من التحدي الجديد نجد هؤلاء العرب العرباء ملوك البيان وفرسان الكلام، أصحاب المعلقات المشهورات «ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور»[8] نجدهم وهم يُتحدون بمثل هذا القدر من الكلام ثم لا يحيرون جواباً. هذا مع اشتداد الخطر وتعاظم الخطب، واستمرار الاستفزاز، إذ القرآن أخذَ يقرعهم بألوان التقريع[9]، يشتم آلهتهم، ويسفّه أحلامهم ويعيب عليهم طرائق عباداتهم ثم هويهدد أعرافهم ومصالحهم التي كثيراً ما اهريقت لأجلها الدماء، وبذلت النفوس، فأي شيء إذن أعظم من هذا يستثير الحمية ويستنهض الهمم لمجابهة التحدي وابطال الدعوى خاصةً وانهم قد عُرفوا باللدد والخصومة، وقوة المناظرة والجدل، وحضور البديهة وحدة الذهن، ثم «الكلام سيد عملهم»[10] وقد احتاجوا اليه والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة.

اننا نلاحظ هنا أن القرآن الكريم قد تدرج معهم في مسألة التحدي من المطالبة بالاتيان بالمثل الى المطالبة والتحدي فليس

من شك أنّ سلوك طريق المعارضة بهذا القدر المطلوب هو الأرجح عندهم الذي لايتصور على رزانة حلومهم وامتلاك القدرة البيانية إهماله والصدّ عنه.

ولكنهم وقفوا موقفاً يدل على عجزهم، وصاروا الى حال تدلّ على عدم مقدرتهم، وعلى انقطاع أطماعهم فيه «إذ نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت النفوس واريقت المهج وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال ولوكان ذلك في وسعهم وتحت مقدورهم لم يتكلفوا هذا الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول الى الحزَن الوعر من الفعل، وهذا ما لايفعله عاقل ولايختاره ذولب راجح...».[11]

وعليه نقد كان لجوؤهم الى اشهار السنان بدل الحجة والبيان ليس إلا تستراً علىَ عجزهم وتمويها لفشلهم، أما الدليل على ذلك فيمكن التماسه من خلال مراجعة أحوال العرب الذي عاصروا نزول القرآن الكريم، وهنا نستطيع أن نشير الى حالتين لهما دلالة بالغة على المطلب وهما:

١ـ حالة مشركي مكة الذين ركبهم العناد، واستكبروا عن الإذعان للحق، وقد أخذوا يتباحثون في أمر القرآن الكريم، وما آل اليه أمرهم مع الرسول الأكرم نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكيف يواجهون الناس الذين يفدون الى مكة المكرمة عادةً في المواسم المختلفه ماذا سيقولون لهم؟ وأيّ زعم أنسب للتمويه والتعمية؟ وقد نقل لنا التاريخ المحاورة التى جرت بينهم «إذ قالوا لابن المغيرة وهومن كبارهم وخبرائهم: نقول عنه إنه ـ أي النبي ـ كاهن فقال: والله ما هوبكاهن فلقد رأينا الكهان فما هوبزمزمة الكاهن ولاسجعه قالوا: فنقول انه مجنون قال: ما هوبمجنون، لقد رَأينا الجنون وعرفناه فما هوبخذقه ولاتخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر قال: ما هوبشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه فما هوبالشعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هوساحر لقد رأينا السّحار وسحرهم فما هوبنفثه ولاعقده. قالوا: فما تقول يا اباعبدشمس قال: والله إنّ لقوله لحلاوة، وانّ أصله لغدق وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من ذلك شيئاً إلاعرُف انه باطل، وإنّ أقرب القول أن تقولوا ساحر جاء بقول هوسحر يفرق بين المرء وأبيه، والمرء وأخيه، وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته.»[12]

واستناداً الى هذه المحاورة فإنهم مع

إقرارهم بعلو منزلة القرآن الكريم، وانه فوق كلام البشر إلا أنهم أوقعوا أنفسهم في هذا التخبط استكباراً وأنفةً من الأذعان للحق وأشار القرآن الكريم نفسه الى ذلك قول تعالى: «إنهم كانوا إذا قيل لهم لااله الاالله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون»[13] «هكذا جنوحاً الى سياسة الطباع والعادات، وقد كانت العادة عندهم ديناً حين لم يكن الدين إلا عادة... ».[14]

إن اصول هذا المحاورة، أشار اليها القرآن الكريم أيضاً نفسه عند ما ذكر حالة الاضطراب والتخبط في مواقفهم إزاء القرآن وذلك في قوله تعالى: سوره الأنبياء: «بل قالوا اضغاث أحلام بل افتريه بل هوشاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون».[15]

٢ـ أما الحالة الثانية التي تدلل على اقرارهم واذعانهم بالعجز، فهو الاستجابة الواعية والفطرية لعظمة القرآن والإيمان بأنه فوق كلام البشر، وقد تمثل هذا الأمر باسلام نفر من مشركي العرب[16] وكفار هم بمجرد الاستماع الى القرآن، إذ أدرك هذا النفر بحكم سليقته العربية وذوقه البياني ومعرفته بأساليب العرب أن هذا القرآن لايمكن أن يكون نتاج البشر.

وعلى الجملة فإننا نستنتج من ذلك كله أن العربَ بعامتهم كافرين ومؤمنين قد أدركوا إدراكاً تاماً وحصلت عندهم قناعة وجدانية بأنَّ هذا الذي يتلوه محمد صلى الله عليه وآله وسلم على أسماعهم، ويبشر به في مجتمعاتهم مباين[17] كل المباينة لما ألفوه من أساليب، ولما اطلعوا عليه من أفانين البيان، وانه يعلوولا يُعلى' عليه بخاصة وهم أهل هذه اللغة والخبراء في أساليبها ثمَّ (الرسول) كان منهم مولداً ونشأةً ولغةً.

وهنا من حقنا أن نتساءل مع الجرجاني: «هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياسة، ولهم دين ولهم نحلة فيؤلب عليهم الناس ويدبر في أمر اخراجهم من ديارهم وأموالهم وفي قتل صناديدهم وكبارهم وسبي ذراريهم وأولادهم، وعدته التي يجد بها السبيل الى تآلف من يتألفه، ودعاءَ من يدعوه، دعوى' إذا هي ابطلت بطل أمره كله، وانتقض عليه تدبيره ثم لايعرض له في تلك الدعوى' ولايشتغل في ابطالها مع امكان ذلك، ومع انه ليس بمتعذر ولا ممتنع»[18] نعم نتساءل مع الجرجاني هل يجوز ذلك؟ وهل حدثنا التاريخ بمثله؟ كلا لايجوز إلا أن يكون ذلك معجزاً لهم خارقاً للعادات الجارية والسنن المألوفة.

ثانياً مسألة المعارضة المزعومة للقرآن الكريم

لعل من المناسب أن نعرض أولاً لسؤال قد يتردد هنا، وهو: هل من الصحيح انه لم تحصل معارضات حقيقية للقرآن؟ وماذا نفعل ازاء ما نقله لنا التاريخ من وجود محاولات للمعارضة نسبت الى عدد من الناس كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وسجاح التميمية؟ واخرى غيرها نسبت الى ابن المقفع والى المعري الشاعر وآخرين؟[١٩] نجيب عن هذا السؤال فنقول:

انّ المعارضات أو على الأصلح المحاولات التي نسبت الى مسيلمة والى الأسود وسجاح إن صحت فهي أدعى إلى اثارة الضحك والسخرية من أن تسمى معارضة لأن كل من يمتلك حساً بلاغياً، وذوقاً بيانياً يعرف مقدار حظها ـ أي تلك المعارضات ـ من الأسفاف ومدى مجانبتها الذوق البياني فضلاً عن فساد المعنى وركاكة المبنى. وأغلب الظن أن اصحابها أوالمروجين لها حاولوا السير على طريقة الكهّان باختيار العبارة الغامضة واسلوب السجع المتكلف، ومع ذلك طفحت أقاريلهم وكلماتهم بكل ما ينبويه السمع ويستثقله، ويضيق به الصدر ويستهجنه، ولوأوردنا نماذج مما سطروه لبانت هذه الحقائق وتكشفت. فمما ورد على لسان مسيلمة قوله: «والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانُها والشاة السوداء واللبن الأبيض انه لعجب محض. وقد حرم المذق فما بالكم لاتمجعون...»[٢٠]. وقد قال الجاحظ معقباً عَلَى قول مسيلمة في الضفدع: «ولاأدري ما هيّج مسيلمة على ذكرها، ولمَ ساءَ رأيَهُ فيها حتى جعل بزعمه فيها فيما نزل عليه: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقّي ما تنقين. نصفك في الماء ونصفك فى الطين. لا الماء تكدّرين، ولا الشاربَ تمنعين».[٢١] وقد علّق الرافعي على ذلك قائلاً: «وكل كلام ـ أي مسيلمة ـ على هذا النمط واه سخيف لاينهض ولا يتماسك بل هومضطرب النسج مبتذل المعنى مستهلك من جهتيه.».[٢٢]

أما ما ورد عن سجاح التميمية فقد نقلوا قولها: «اعدّوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب» ومثله ما ورد عن الأسود العنسي قوله: «سبّح اسم ربك الأعلى الذي يسر على الحبلى فأخرج منها نسمة تسعى من بين أضلاعٍ وحشى...».[٢٣]

وهكذا على هذا المنوال أسجاع ركيكة ومعان تافهة لاتقوى على الحصول على

ميزة البلاغة فضلاً عن قدرتها على دخول ميدان المعارضة. وقد نسبت معارضة لابن المقفع الكاتب المشهور، واخرى لأبى العلاء المعري الشاعر المعروف، فأما ابن المقفع فقد عرض الباقلانى[٢٤] لما نُسب اليه وناقض ذلك تفصيلاً وانتهى الى القول: «انه لايوجود لابن المقفع كتاب يدعي مدع انه عارض فيه القرآن الكريم بل يزعمون انه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ماجمعه واستحيا لنفسه من اظهاره. وعلق الرافعي[٢٥] على المعارضة المنسوبة لابن المقفع قائلاً «وأنما نسبت المعارضه له دون غيره من البلاء لأن فتنة الفرق الملحدة إنما كانت بعده، وكان البلغاء كافة لايمترون في إعجاز القرآن، وإن اختلفوا في وجه إعجازه ثم انّ ابن المقفع متهم عند الناس فى دينه فدفع بعض ذلك الى بعض وتهيأت النسبة من الجملة» وعليه يظهر أنّ نسبة المعارضة اليه زائفة.

وأما ما نُسب الى أبي العلاء من المعارضة فقد ادعى ' خصومه أنه ألف كتابهُ الفصول والغايات[٢٦] لهذا الغرض، والذي يرجع الى الكتاب المذكور وهومطبوع متداول يتضح له أن هذه الدعوى محض افتراء على الرجل، يؤيد ذلك أن المعري نفسه أزرى ' على ابن الراوندي[٢٧] محاولاته البائسة في معارضة القرآن في كتابه المسمى ' بالتاج أذ ينعت المعري هذا التاج قائلاً: «وأما تاجه فليس يصلح أن يكون نعلاً وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة أفّ وتفّ وجورب وخف.» ثم انّ أوضح دليل على كذب من نسب المعارضة الى المعري تصريح المعري نفسه باعجاز القرآن إذ يقول: «وأجمع ملحد ومهتد أنّ هذا الذي جاء به محمد بن عبدالله صلىّ الله عليه وآله وسلم كتاب بهر بالأعجاز، ولقي عدوه بالأرجاز، ما حُذي على مثال، ولا أشبهَ غريب الأمثال، ما هوبالقصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب ولاسجع الكهنة ذوي الأرب وجاء كالشمس اللائحة لوفهمه الهضب لتصدع، وإنّ الآية منه أوبعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق فتبارك الله أحسن الخالقين.»[٢٨].

وهكذا نجد أن الأوائل من ذوي الفطرة السليمة والعبقرية الفذة والفصاحة الممتازة لم يجدوا مفراً إلا الأذعان لهذا القرآن العظيم وإلا الإقرار باعجازة المبين. أما بعض المتأخرين ممن خلفتهم[٢٩]

الأغراض الاستعمارية الدينئة وحركتهم الماسونية اللعينة من أمثال محمدعلى الملقب بالباب والآخر الملقب بالبهاء ممن جاءوا بنحلة البابية والبهائية فقد تقدموا بمحاولاتهم البائسة لمعارضة القرآن فأدهشوا ذوي الألباب فيما جاءوا به من الهذر والهذيان فمثلاً مما جاء على لسان الميرزا الباب قوله : «قل كلّ ليقولون لااله الاالله الذي آمنت به كل الحلاقين، قل كل ليقولون لااله الاالله الذي آمنت به كل اللهامون ـ أي اللحامين ـ قل كلّ ليقولون لااله الاالله الذي آمنت به كل السواقين ... » وهكذا يستمر في كلامه يعدد المهن في أكثر من عشر صفحات، وفيها من غلط الأنشاء والاملاء عدا الصرف والنحوما ليس له حصر وإذا كان هذا حال أحدهم فإن بقية الزمزة[٣٠] ليست بأحسن حالاً منه. وكل من يطلع على ما جاءوا به من مقالات وهذر يحكم بتفاهتها وسخفها من كل وجه. أما أخر المحاولات البائسة في هذا المجال فهي ما قام به بعض الأجانب في مصر[٣١] ونشروه في كتيب سَموه «حسن الأيجاز أوردوا فيه ما توهموه معارضة لبعض سور القرآن الكريم، ومما جاء فيه قولهم : «إنّا اعطيناك الجواهر، فصلّ لربك وجاهر، ولاتعتمد قول ساحر ... » .[٣٢]

وعلى الجملة فإن هؤلاء جميعاً قد ركبهم الوهم فظنوا ان المعارضة إنما تكون على مثل هذه الشاكلة إي الأهتمام بالسجع دون المعنى ' ، وبتقليد القرآن بتغيير بعض ألفاظه والتلاعب بسوره، وبما أوقعهم في فساد النظم والمعنى على حد سواء. وهنا لابدّأن نؤكد أن المعارضة الصحيحة والحقيقية لايمكن أن تكون بهذه الشاكلة، إذا لوكانت كذلك لسلك سبيلها اولئك القوم الذي تحداهم القرآن الكريم مع ما كانوا عليه من عظيم الحاجة اليها ... ولكنهم علموا وجهل غيرهم بمعنى ' المعارضة المطلوبة فهم أدركوا شروطها ومواصفاتها بما استقر في أوساطهم الأدبية ومنتدياتهم الشعرية، ولذلك لم يوقعوا أنفسهم في مثل هذا البؤس والسفاهة بل لجأوا الى أساليب أخر في المواجهة وردّ التحدي إذ امتشقوا السنان والسيوف وهان عليهم ملاقاة الحتوف بدلاً من أن يجعلوا أنفسهم موضع التندر أبد الدهر لوأنهم أقدموا على المعارضة بالبيان وفن القول.

والآن إزاء ما وصل الينا من معارضات لاتصلح كما اتضح لدينا بحسب مقاييس النقد والذوق والمنطق أن نضعها في مستوى الكلام البليغ فضلاً عن وضعها في قبالة النص القرآني على سبيل المقارنة

أوالمعارضة. أقول إزاء ذلك لابّد ان نعالج افتراضاً ربما أورده أويورده بعضهم، وهذا الافتراض هو: إن المعارضة الجدية للقرآن ربما قد حصلت بالفعل في عصر النزول أوبعد ذلك بقليل ولكنها محيت وطمست من الوجود عند ما استتب الأمر للرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وانتصر على اعدائه بقوة السلاح آخر الأمر. ولمناقشة ذلك نقول:

لوافترضنا هذا جدلاً فلنتساءل أولاً: تُرى' متى' حصلت مثل هذه المعارضة المزعومة؟ أكانت قبل الدخول مع الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه في المجابهة المسلحة أم قبل ذلك؟ ومن هم اولئك الاشخاص الذين اضطلعوا بهذه المهمة واستطاعوا ردّ التحدى القرآني؟ وبعد هذا التساؤل نقول:

لاريب أن مثل هذه المعارضة المزعومة يفترض وقوعها قبل الدخول مع الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المجابهة المسلحة، لأنَّ هذا هوالطريق الأسهل والأسلم للوقوف في وجه دعوة الرسول والحيلولة دون تكاثر الأتباع والأنصار، وهذا يقتضيه المنطق لأن الرسول لم يطلب منهم بادئ ذي بدء اكثر من الأتيان بسورةٍ من مثل القرآن ثم ينتهي كل شئ فيسقط ما في يده، وينهار أساس دعوته وبرهان نبوته. وإذن فمن المعقول جداً سلوك هذا السبيل قبل اللجوء الى أي سبيل آخر قد يكلفهم كثيراً من الجهود والأموال وربما الأنفس. وهنا فلو افترضنا أنَّ مثل هذه المعارضة قد حصلت فعلاً فكيف قدر لدعوته المباركة صلى الله عليه وآله وسلم أن تتسع وتكبر، وأن تقاوم وتصمد حتى' بلغت الى مداها الواسع والعميق في الامة؟! ولو قال قائل: إنّ ذلك ممكن، ولايلزم أن يتراجع المؤمنون لمجرد وجود المعارضة لأن المؤمنين إنما استهوتهم مبادئ القرآن الكريم وتمكنت من نفوسهم قيمه الساميه وأفكاره المنيره. فإننا نقول حينئذ نعم من الجائز هذا ولكن أليس من الجائز أيضاً أن تزعزع مثل هذه المعارضة للقرآن وردّ تحديه ايمان البعض وخاصة اولئك الذين آمنوا استناداً الى هذه الحقيقة حقيقة الأعجاز وانطلاقاً من قناعة أن هذا القرآن هومن عندالله وأن ليس هناك من أحد بقادر على أن يأتي بسورة من مثله؟! هذا جانب، وجانب آخر هوَ أنّ التحدي قد كان ولم يكن مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا قلة قليلة مضطهدة مستضعفة، وكان المشركون من أهل مكة، وأهل الكتاب من يهودٍ وغيرهم حريصين

كل الحـــرص على اسكات هذا الصـوت الألهي وايقـاف هذه الانطلاقة الجبـارة أي الدعـوة الاسـلاميـة المبـاركـة فـأين هؤلاء جـمـيـعـاً عـن مـثل هذه المعـارضـة المزعـومة ليشـهروها في وجه الرسـول وأتباعه ويذيعوها في كل ناد فتسقط حجته وينهار أسـاس الدعـوة؟ وإذ لم يظهر لذلك عين ولا أثر دلّ على أن شـيئـاً من ذلك لم يحدث قط، ولوحدث لذاع وانتشر أوجاء به الخبـر وتناقلتـه السيـر وأهل التـواريخ والمتيقن عدم النقل.

أمـا لو افتـرضنا أن المعـارضـة قـد حـصلت بعـد الدخـول مع الرسـول في المجابهة، وأن قريشاً وحلفاءها قد لجأت الى ذلك بعـد أن أعيتهم الحيلة ورأوا أن القضاء على الرسول الاكرم وأتباعه الأخيار وتصفيتهم جسدياً أمر ليس ممكناً، وأن كل الأسلحـة التي استخـدمت قـد فـشلت في تحقيق هذه الغاية وكانوا يعتقدون أنها أسرع حسماً مثلاً ولذلك لجأوا الى المعـارضة، وقدموا اطروحتهم في هذا المجال، ولكن ذلك بعـد فـوات الأوان، إذا أن سـيطرة الرسول وأتباعه قد منعت ذيوعها وقبرت تلك المحاولة فى مهدها. أقول إن مثل هذا الافتراض حينئذ باطل لسببين أساسين:

الأول: إن الخـوف والمنع عن نقل الخبر بهذا الشأن أوبأى شأن مشابه لايمكن ان يؤدي الى انقطاع الخبر بالكلّية وبتاتاً لان المتعالم من حال الاخبار أنه لاينقطع، بهذا الجنس من الخـوف، لأنّ الخـوف انما يقتضى ترك الاظهار لاترك النقل، وربما دعا المنع فيه من سلطان وغيره أنه يكون أقـرب الى الأنتـشـار من حيث تقـوى الدواعي وتزداد بحصول المنع». [٣٣]

الثاني: إن شواهد التاريخ تؤكر نفى مثل هذا الافتراض إذ سجّل لنا التاريخ كل الوسائل التى حورب بها النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكل الأساليب الخبيثة التى جوبه بها القرآن الكريم، وفيها، هجاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والوقيعة فيه والصاق التهم به من ادعاء وجود تناقض [٣٤] في القرآن الكريم، وتوجيه الطعون الى الآيات البينات وترويج تلك الطعـون والباسها لباس العلم الى غير ذلك من الوسـائل والأسـاليب، فكيف خـفـيت المعارضة المزعومة واختفت وهي أبلغ في اصـابة الغـرض الذي يسـعى اليـه كل الخصوم المتربصين؟ ولوافترض انه كان لذلك موانع في وقت ما فلماذا لم تظهر عند سنوح الفرصة، وما أكثر الفرص التي سنحت منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلى امتداد حقب التاريخ؟!

هذا وقد كان التحدي القرآني وما يزال قائماً، والخصوم كثيرون، ومنهم من هو أشدّ حرصاً وأكثر طمعاً للنيل من القرآن الكريم واضعاف قدسيته في النفوس، واقصائه عن الحياة، ودليل ذلك أن محاولات الأعداء لم تفتر ولم تهدأ بل هي مستمرة ولعل ما نشروه من كتاب «حسن الأيجاز» دليل على ذلك ولكنهم فشلوا وخابت آمالهم، وإن لم تفتر عزائمهم إذ تحولوا الى إثارة الاتهامات واشاعة الافتراءات وترويج الشبهات.

ولعل من المناسب أن اشير هنا إلى أنّ هناك دليلاً آخر يؤكد عدم حصول معارضة للقرآن الكريم، وهذا الدليل يمكن التماسه من «نظرية الصرفة» وذلك أن طائفة كبيرة من العلماء والأدباء والمتكلمين(٣٥) ذهبوا الى القول بالاعجاز بالصرفة، ومع أننا لانستطيع أن نجاري هذا الرأي أونعتمده إلا أن ما نستفيده منه بخصوص المطلب الذي بأيدينا هوعدم حصول المعارضة. وتوضيح ذلك: أنّ الذين ذهبوا الى هذه النظرية نصدوا بالصرفة(٣٦) «أن الله تعالى قد صرف العرب عن معارضته، وقد كان مقدوراً لهم، لكن قدعاقهم أمر خارجي... أي على معنى أن الله تعالى قد عطّل قدرة العرب عن مجاراة القرآن ومعارضته، ويفلسف الشريف المرتضى '(٣٧) القول بالصرفة فيذهب الى أنّ الله قد صرفهم بمعنى' انه سلبهم العلوم التي يحتاج اليها في المعارضة"... فهذا الصرف خارق للعادة فصار كسائر المعجزات... وهنا وإن لم يكن الغرض مناقشة هذا النظرية إلا انه لابأس من تعليقة فنقول: إن هذا القول ليس عليه دليل من المعقول ولا من المنقول بل الدليل على خلافه، فقد ذكر الخطابي في ردّه على الصرفه بأن دلالة الآية: «قل لئن اجتمعت الأنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً» الاسراء/ ٨٨.

تشهد هذه الآية بخلافه إذ أشار تعالى في ذلك (فى الآية) الى أمر طريقه التكلف والاجتهاد وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التى ذكروها لايلائم هذه الصفة، فدلّ على أن المراد غيرها»(٣٨)

وذكر ابن الاملكاني في مناقشة نظرية الصرفة أن الأمر لوكان كذلك - إى كما قالوا - لكان ينبغي أن يتعجبوا من حالهم وليس من حاله فأنّ من يضع يده على رأسه دون سائر الحاضرين يحبس الله تعالى أيديهم لايتعجب منه بل من حالهم»(٣٩) هذا وجه في الردّ. وهناك وجه آخر في الردّ على الصرفة بالمعنى الذي ذهب اليه السيد

المرتضى' لأن سلب العلوم التي كانوا يتمكنون بها من المعارضة مجرد زعم لا أساس له، ودعوى بلا برهان بل الواقع على خلافه فقد ذكر الجاحظ «أن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله والعرب اكثر ما كانت شاعراً وخطيباً».(٤٠)

هذا في عصرنزول القرآن الكريم، أما بعد عصر النزول فقد كثر البلغاء والخطباء وصار بعضهم يتفنن في الكلام، وانضاف الى اللسان العربي من العلوم ما استطاعوا أن يبلغوا به شأواً بعيداًفي البلاغه، بل صار بعضهم يتصرف في فنّ القول حد البراعة فأين دعوى القوم بسلب علومهم؟ وما هي هذه العلوم التي سلبوها يا ترى؟

وعلى الجملة فإن الذي يهمنا في واقع الأمر بالنسبة الى نظرية الصرفة أنها تؤكد عدم حصول المعارضة.

وأخيراً فربما يثير بعضهم اعتراضاً يبدولأول وهلة وجيهاً وهوقولهم؛ إنّ القرآن هونتاج العبقرية التي اختص بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما هوالشأن في سائر العبقريات والمواهب إذ هي حالة تفرد واختصاص لايتكرر، ولذلک فلا معنى ' للتحدي ولامبررله، ولا يمكن المطالبه بالردّعليه. وللأجابة عن ذلک نقول:

إنّ العبقرية لاتولد في فراغ لوافترضنا الأمر من هذا القبيل، إذ لابّد من تحقق شروط منها ما يتصل بالفرد ومؤهلاته، ومنها مايتصل بالواقع وخصوصياته ومنه ما يتصل بالمناخ الفكرى والأجواء العامة وتاريخ العبقريات والعباقرة ينبئنا بذلک دائماً، وعليه فإن القراءة المتأنية والموضوعية لمؤهلات الرجل (الرسول) محمدبن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان اميّاً لايعرف القراءة والكتابة(٤١) ولواقعه الذي كان يموج بالتناقضات الصارخة(٤٢) والخرافات التي لاحدود لها، ثم الجوالفكري المتسمّ بالتحجر والجمود، إنّ القراءة لذلک كله تضع بأيدينا حقيقةمهمة جداً، وهي عدم وجود امكانات كافية أومؤهلات لائقة لكى يترشح عنها مثل هذا القرآن العظيم الذي جاء بأفكار وآراء في منتهى ' الدقة والأنسجام، وبقيم سامية هي مفخرة للانسانية وللأجيال جميعاً، وبمبادئ عظيمة تزهوبها الأنسانية، وكانت كل تلک المضامين الراقية قد عُرضت باسلوب متفرد معجز لم يصل الى شأوه البشرقَط على امتداد الزمان. إن مثل هذه الحقيقة هي التي جعلت توماس كارليل مثلاً يصرخ بكل اعجاب قائلاً «إنّ هذا القرآن صدىً متفجر من قلب الكون نفسه».(٤٣)

نعم من الصحيح جداً أن تاريخ البشرية زاخر

بالعبقريات، ولكنها في جملتها لاتكاد تخرج عن اختراعٍ لآلة أوابداع لرواية أوديوان شعر أواكتشافٍ لحقيقة علمية منَ الحقائق التي يزخر بها، الوجود اما ما يأتي به الفلاسفة أوالمفكرون الأفذاذ من اطروحات فهي في عين الوقت الذي تستند فيه الى معطيات العصر واكتشافاته تبقى' حبيسة البيئة بكل خصوصياتها وأجوائها، أما القرآن الكريم فقد خرج عن ناموس العبقريات ومقتضى' الصناعة البشرية والمواهب الفطرية ونتاجات البشر من أيّ وجه أتيت، وكيفما قلبت الأمر، إن في المضامين أوفي الأسلوب، ونستأنس هنا برأي للجرجاني بخصوص هذه النقطة من البحث فهويقول «إعلم أنّها هنا باباً من التلبيس أنت تجده يدور في أنفس قومٍ من الأشقياء... وتراهم يومئون اليه ويستهون الغرّ الغبي بذكره وهوقولهم: قد جرت العادة بأن يبقى' في الامان من يفوت أهله حتى' يسلّموا له، وحتى' لايطمع أحدٌ في مداناته، وحتى' ليقع الأجماع فيه أنه الفرد الذي لاينازع... ثم قال ولهم في هذا الباب خبط وتخليط وإنما أتوا من تسرعهم الى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل وذلك: أن الشرط في المزيّة الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها الى حيث يبهر ويقهر حتى' تنقطع الأطماع عن المعارضة وتخرس الألس عن دعوى المداناة، وحتى' لاتحدث نفس صاحبَها بأن يتصدى' ولايجول في خلد أحد أن الاتيان بمثله ممكن... وليت شعري من هذا الذي سلّم له أنه كان في وقت من الأوقات من بلغ أمره في المزيّة والعلوعلى أهل زمانه هذا المبلغ وانتهى' الى هذا الحد»؟!. ثم قال: ومعلوم أن المعوّل في دليل الاعجاز على النظم، ومعلوم كذلك أن ليس الدليل في المجئ بنظم لم يوجد من قبلُ قط بل في ذلك مضموماً الى أن يبين ذلك النظم من سائر ما عُرف ويعرف من ضروب النظم وما يعرف أهل العصر من أنفسهم أنهم يستطيعونه، البينونة التي لايعرض معها شك لواحد منهم أنه لايستطيعه ولايهتدى لكنه أمره، حتى يكونوا في استشعار اليأس من أن يقدروا على مثله وما يجري مجرى المثل على صورة واحدة وحتى' كأنّ قلوبهم في ذلك قد افرغت في قلب واحد.» [٤٤]

ويبقى' آخر الأمر أن نعالج أمراً ربما له ما يبرره وهوما الضرورة الى التحدي وما هي مبرراته؟ وللأجابه نقول.

إنّ التحدى وطلب المعارضة إنما هولتأكيد أن ما يصدر عن الرسول محمد

صلى الله عليه وآله وسلم ليس من عنده، لضرورة أن قدراته مثل قدراتهم، وامكاناته كبشرمثل امكاناتهم، لعله فيما يتعلق بالابداع الأدبي أقلّ فيهم تفوقاً إذ لم يعرف عنه أنه كان ينثر درر الحكمة أوانه كان خطيباً أوشاعراً قبل أن يرفع دعواه بالنبوة هذا من جهة، ومن جهة اخرى' فأنّ الساحة الأدبية في مكة وغيرها كانت ميداناً للمباريات والمعارضات، كما كانت أسواقهم و منتدياتهم تزخر بأنواع الأنشطة الأدبية، ويقف النقاد والمحكمون(٤٥) يرشحون هذه القصيدة أوتلك وينتخبون هذا الأثر الفني دون ذاك حتى كانت المعلقات المشهورات أثراًلهذا المنهج، ومن هنا كان من المناسب أن يجبههم الرسول الاكرم صلى عليه وآله وسلم ويتحداهم في المجال الذي امتازوا فيه وعنوا به، فيقدم القرآن الكريم برهاناً على صدق دعواه النبوّة وحجةً على رسالته وسفارته عن الحضرة الألهية وانه يتلقى' هذا القرآن من لدُن حكيم خبير من رب السموات والأرضين فإن اعتراهم الريب أو داخلهم الشك فما عليهم إلا المعارضة التي هي وسيلتهم المعتاده وطريقتهم المفضلة. لكن نبوءة القرآن العظيم والحقيقة التي صدع بها حسمت الأمر وذلك في قوله تعالى «قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعضٍ ظهيراً»(٤٦) وآخر دعوانا أن الحمدلله ربّ العالمين.

هوامش البحث ومصادره

١. الواقعة: ٨٠.
٢. الشعراء: ١٩٥.
٣. الطور: ٣٤.
٤. الاتقان/ السيوطي٢: ١١٧.
٥. هود: ١٣.
٦. فصلت: ٢٦.
٧. البقرة: ٢٣.
٨. راجع ما نقله السيوطي عن الجاحظ/ الاتقان٢: ١١٨.
٩. كما جاء مثلاً في قوله تعالى: «انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم»(الأنبياء: ٩٨).
وجاء قوله تعالى: «أولوكان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون»(البقرة: ١٧٠)، وراجع رواية في نهاية الأدب١٦: ١١٩٩ فقد ذكر أن أشراف قريش جاءوا الى أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وآله وسلم قائلين: يا أبا طالب إنّ ابن اخيک قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا».
١٠. الاتقان/ المصدرالسابق.
١١. بيان اعجاز القرآن/ ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن الكريم/ ص٢١.
١٢. راجع نهاية الأدب/ النويري/ ١٦: ٧٣٣، وراجع الألهيات/ السبحاني/ ٢: ٢٢٩ ومابعدها.
١٣. الصافات/ ٣٥/ ٣٦.
١٤. اعجاز القرآن/ الرافعى/ ص١٩٣.

١٥ . الأنبياء: ٥.

١٦ . سيرة ابن هشام١ : ٢٧، وراجع الرسالة الشافية/ الجرجانى/ ص١٢٤ ومابعدها.

١٧ . راجع تفصيل الفكرة/ اعجاز القرآن/ الباقلانى/ ١ : ٥٥ ومابعدها.

١٨ . الرسالة الشافية: ١٢٦ .

١٩ . راجع ما ذكره بالتفصيل/ مصطفى صادق الرافعى/ اعجاز القرآن: ١٩٥ ، وراجع الاعجاز في دراسات السابقين/ عبدالكريم الخطيب/ ص٥٠٢ ومابعدها.

٢٠ . راجع المعجزة الخالدة/ السيد هبة الدين الشهرستانى/ ص٩٥-٩٧، وراجع: الألهيات/ السبحانى/ ٢ : ٣٤٤ ومابعدها.

٢١ . اعجاز القرآن/ الرافعى/ ص١٩٨-١٩٩ .

٢٢ . المصدر نفسه .

٢٣ . المصدر نفسه٢٣.

٢٤ . اعجاز القرآن/ الباقلانى/ ١ : ٤٩-٥٠.

٢٥ . الرافعى/ المصدر السابق .

٢٦ . الفصول والغايات/ مقدمة المحقق/ الزناتى .

٢٧ . راجع رسالة الغفران/ المعري/ تحقيق الدكتوره بنت الشاطىء/ ص٤١٠ ومابعدها، وراجع ما ذكره الرافعى عن ابن الرلوندى وما نسب اليه من معارضات/ ص١٩٩ .

٢٨ . رسالة الغفران/ المعري/ ص٤١٠.

٢٩ . المعجزة الخالدة/ الشهرستانى/ ص٩٩ .

٣٠ . المصدر نفسه .

٣٣ . راجع المغنى في أبواب التوحيد والعدل/ القاضي عبدالجبار المعتزلى/ ١٦ : ٢٥ ومابعدها.

٣٤ . راجع حول دعوى التناقض بين نصوص القرآن الكريم/ د. طه الدبوانى/ رسالة القرآن العدد السابع/ ١٤١٣هـ.

٣٥ . راجع الملل والنحل/ الشهرستانى/ ١ : ١٤٢ تحقيق: سيد گيلانى/ ١٩٧٥ .

٣٦ . البرهان فى علوم القرآن/ الزركشى٢ : ٩٢ .

٣٧ . اوائل المقالات فى المذاهب والمختارات/ الشيخ مفيد.

٣٨ . بيان اعجاز القرآن/ ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن/ ص٢٣ .

٣٩ . البرهان فى اعجاز القران/ ص٥٣-٥٤، وراجع مجمع البيان/ الطبرسى/ ٣ : ٤٣٨ .

٤٠ . راجع مناقشة وافية شافية لنظرية الصرفة/ الألهيات/ الشيخ جعفر السبحانى/ ٢ : ٣٢ . ومابعدها.

٤١ . راجع تاريخ القرآن/ عبدالله الزنجانى/ ص٣ . فقد قال: وليس هناك ناحية فى تاريخ النبى صلّى الله عليه وآله وسلّم أوضح من أميته بمعنى ' جهله بالقراءه والكتابة وراجع من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام/ دوزى/ ص٢٤٢ فقد أكدّاميّة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بالمعنى المذكور .

٤٢ . راجع تاريخ العرب قبل الاسلام/ الدكتور جواد على/ القسم الدينى/ نشر المجمع العملى العراقى وراجع مروج الذهب/ ٢ : ١٣٢ وما بعدها.

٤٣ . الظاهرة القرآنية/ مالک بن نبى/ ٣٣٨ .

٤٤ . الرسالة الشافية/ ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن/ ص١٢٣ .

٤٥ . راجع تاريخ النقد الأدبى عند العرب/ طه ابراهيم/ ص٢٤ منشورات دار الحكمة/ دمشق ١٩٧٤ . وراجع اعجاز القرآن/ الرافعى/ ص١٩٠-١٩١ ، راجع الألهيات/ السبحاني/ ٢ : ٢٢٢ .

٤٦ . الاسراء: ٨٨، راجع تفسيرها فى مجمع البيان/ الطبرسى/ ٣ : ٤٣٨.

مصادر الدراسة :

١ ـ الأتقان في علوم القرآن/ لجلال الدين السيوطي ت٩١١هـ، المكتبة التجارية الكبرى، المطبعة الحجازية ١٣٩٨هـ.

٢ ـ الألهيات/ الشيخ جعفر السبحاني/ بقلم الشيخ حسن محمد مكي العاملي الطبعة الثانية/ مكتب الاعلام الاسلامي/ ١٤١١هـ.

٣ ـ اعجاز القرآن/ للقاضي أبي بكر الباقلاني ت٤٠٣هـ مطبوع بهامش الكتب السابق.

٤ ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ مصطفى صادق الرافعي/ المكتبة التجارية الكبرى بمصر/ الطبعة الثامنة ١٩٦٥.

٥ ـ الاعجاز البياني للقرآن/ الدكتوره بنت الشاطئ «عائشة عبدالرحمن»/ طبع ونشر دارالمعارف بمصر.

٦ ـ البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن/ لكمال الدين عبدالواحد الزملكاني ت٦٥١هـ.

٧ ـ بيان اعجاز القرآن/ لأبي سليمان حمدبن محمدبن ابراهيم الخطابي ت٣٨٨هـ، منشور ضمن كتاب.

ثلاث رسائل في اعجاز القرآن/ تحقيق الدكتور محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام/ نشر دارالمعارف بمصر١٩٦٨ط.

٨ ـ البيان في تفسير القرآن/ للامام الراحل أبي القاسم الخوئي (قدّس سرّه) نشر مؤسسة الأعلمي ـ بيروت/ لبنان.

٩ ـ تاريخ القرآن/ لأبي عبدالله الميرزا الزنجاني ت١٢٦٠هـ، نشر مؤسسة الاعلمي، بيروت/ ط١٩٦٩

١٠ ـ دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة/ موريس بوكاي/ نشر دارالمعارف بمصر/ ١٩٧٨.

١١ ـ الرسالة الشافية/ لأبي بكر عبدالقاهر الجرجاني ت٤٧١هـ، نشر ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن/ السابقه.

١٢ ـ رسالة الغفران/ لأبي العلاء المعري ٤٩٩هـ، تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء/ نشر دارالمعارف بمصر ١٩٥٠.

١٣ ـ السيرة النبوية/ لابن هشام/ مطبعة بولاق/ بمصر.

١٤ ـ الظاهرة القرآنية/ مالك بن نبي/ ترجمة عبدالصبور شاهين/ نشر دارالفكر ـ بيروت.

١٥ ـ الفصول والغايات/ لأبي العلاء المعري/ ضبط وتفسير محمدحسن زناتي/ نشر المكتب التجاري بيروت، طبع القاهره ١٩٣٨م.

١٦ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر/ لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي ت٣٣٦هـ/ دارالأندلس/ بيروت/ ط٤/ ١٩٨١.

١٧ ـ المعجزة الخالدة/ السيد العلامة هبة الدين الحسيني الشهرستاني/ سلسلة حديث الشهر/ مطبعة النجاح ـ بغداد(١٩٥٠).

١٨ ـ المغني في أبواب التوحيد والعدل/ القاضي عبدالجبار بن أحمد المعتزلي ت٤١٥هـ

الجزء السادس عشر ـ خاص باعجاز القرآن ـ تحقيق الشيخ امين الخولي/ نشر وزاره الثقافة بمصر ١٩٦٠.

١٩ ـ من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام/ بندلي جوزي/ دارالروائع ـ بيروت/ لبنان.

٢٠ ـ نهاية الأدب في فنون الأدب/ لشهاب الدين حمدبن عبدالوهاب النويري، ت٧٣٣هـ.

نشر: المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة/ القاهرة.

قصّةُ آية

العضُّ على الجراح

السيد مالك الموسوي

«إنَّ القرآن يجري على آخرنا كما جرى في اولنا، ويسري في الباقين كما سرى في الماضين».

﴿الذين استجابوا لله والرسول من بَعْدِ ما أصابهم القرح للذينَ أحسنوا منهم واتقوا اجرُ عظيم * الذينَ قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٣.

بعد أنْ وضعت الحربُ أوزارها، طفق الصحابة يذرفون دموع الحزن والأسى والتوبة، للخطأ الفادح الذي ارتكبوه، والنصر المحقق الذي ضَيَّعوه، فقد كانت كفّةُ المعركة لصالحهم، وراحوا يخمدون أنفاس أعدائهم، ويستأصلونَ شأفتهم ﴿ولقد صدقكم اللهُ وعده اذ تَحسّونهم بإذنه حتّى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون منكم من يريدُ الدنيا ومنكم من يُريد الآخرة﴾ عمران: ١٥٢.

ووقف الرسولُ القائد صلّى الله عليه وآله وسلّم يتطلعُ الى اولئك السبعين، من خيرةِ اصحابه البررة، مخضّبين بدمائهم الزكيّة الطاهرة، فتدفقت عليه الآلامُ والاحزان، وانفجرت جراحاتهُ بالنزف... فها هو يرى عمّهُ الحمزة، أَسدَ الله وأَسدَ رسوله، وقد مُثّلَ بهِ اشنع تمثيل، فراح يقول: «ما وقفتُ موقفاً أغيظُ اِليَّ من هذا الموقف».

ووقف على جسد الصحابي الكبير مصعب بن عمير، صريعاً في بُرده: وقال: «

لقد رايتُكَ بمكّة وما بها احدٌ ارقّ حُلّةً ولا أحسن لِمّة، ثمَّ انت اشعث الرأس في بُرده»!.

وأخذَ يتفحصُ الشهداء السبعين بمرارة وحرقه، ثمَّ قال: «زمّلوهم بدمائهم فإنّهُ ليس احدٌ يُكلمُ في الله، إلاّ ويبعثه الله يوم القيامة وجرحُه يدمى، اللون لون الدم، والريح ريح المسك».

ورجع المسلمون من «أُحد»، وقد أثخنتهم الجراحات النازفة، فاستقبلتهم المدينةُ بالحزن والبكاء، وراحت النساء تبكي قتلاهن... من الازواج والابناء والآباء... وقد نسيت بعض المؤمنات المجاهدات أحزانهنَّ، وشغلن عن أولادهنَّ وازواجهنّ... بمرأى النبي الكريم وقد بدت عليه صلّى الله عليه وآله وسلّم الجراحات في وجهه، وكسرت سنّهُ الرباعية اليمنى من الفك الأسفل.

فجاءت السمداءُ بنتُ قيس، وقد استشهد ابناها، فلما نعيا اِليها، قالت: ما فعل رسولُ الله؟ قالوا: بخير هو بحمد الله... فقالت: ارونيه أنظر اِليه. فراحت تخاطبه بكلِّ وعي المرأة الرساليّة المجاهدة: كُلُّ مصيبةٍ بَعْدَكَ جلل[1] يا رسولَ الله!.

واقبلت حمنة بنت جحش، فقال لها الرسول القائد: احتسبي يا حمنة، فقالت: مَنْ يا رسولَ الله؟! قال: خالكِ. قالت: اِنّا لله وإنا اِليه راجعون. غفر الله له ورحمهُ وهنيئاً لهُ الجنَّة. ثمَّ قال: احتسبي: قالت: مَنْ يا رسولَ الله؟! قال: اخاكِ عبد الله. فاسترجعت وقالت: هنيئاً لهُ الشهادة. ولمّا اخبرها عن زوجها مصعب بن عُمير، صرخت: واحزناه! فقال الرسول الكريم: اِنَّ للزوجِ من المرأةِ مكاناً ما هو لأحدٍ من الناس.

وتقدّمت المجاهدةُ ام سعد بن معاذ، فقال لها النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: أبشري وبشّري اهليهم يا أمَّ سعد. إن قتلاهم ترافقوا في الجنَّة جميعاً. فقالت: رضينا برسولِ الله سالماً، وليس من يبكي عليهم بعد هذا!.

واستقبلت فاطمةُ الزهراء عليها السّلام أَباها ومعها اِناءٌ فيه ماء، فغسلت وجهه الكريم، ثُمَّ لحقه امير المؤمنين، وقد خضّبَ الدمُ يده الى كتفه، وفيه ستون جراحة، فناول سيفَهُ ذا الفقار الى الزهراء عليها السّلام وقال: خذي هذا السيف، فلقد صدقني اليوم. وانشد يقول:

أفاطمُ هاكِ السيف غير ذميمٍ
فلستُ برعديدٍ ولا بلئيم

بينما راحت بعضُ النساء الثواكل والأرامل يصرخن، ويجززنَ شعورهُنّ ويخدشنَ وجوههنَّ، ويشققنَ جيوبهنّ، فغضبَ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لذلك، وقال: البكاءُ من الرحمن، والصراخُ من الشيطان.

وما ان سمعنَ مقولته حتى هدأت اصواتهّن، ورحن يبكين قتلاهنّ بهدوء وصبر.

وانصرفَ الجميع بعد ذلك لتضميد جراح المقاتلين، واعداد الشراب والطعام للجائعين المتعبين..

* * *

في تلك الأجواء العصيبة، وجد المنافقون الفرصة سانحة لبث الاراجيف والاشاعات، من أجلِ تكريس أجواء الهزيمة اكثر فأكثر، وراحوا يثيرونَ الشكوك بحكمة القيادة النبويّة، ويعلنونَ عن صواب قرارهم بالرجوع في منتصف الطريق، وعدم اشتراكهم في معركة «خاسرة»! واطلقوا أراجيفهم: «لو أطاعونا ما قُتلوا» واخذوا يرددونَ على المسامع: «لو كانَ نبيّاً ما ظهروا عليه، ولا أُصيبَ منهُ ما أُصيب، ولكنّهُ طالبُ ملك تكونُ الدولة لهُ أو عليه»!.

وباتَ الرسول القائد صلّى الله عليه وآله وسلّم ساهراً تلك الليلة يقلبُّ وجهه في السماء، مفكراً بالانعكاسات السلبيّة للهزيمة على المسلمين والدولة الاسلاميّة الفتيّة، فلابُدَّ من مبادرةٍ ذكيّة، وخطوةٍ عمليّة، تُنقذُ الموقف، ولا تتيح للأعداء الفرصةَ في تكريس أجواء الهزيمة، لتعيد للمسلمين هيبتهم، وللاسلام مكانته، وخصوصاً ما آلت اِليه الاوضاع في الساحة، حيث أصبحت تُنذِرُ بهجمةٍ شرسةٍ لاعداء الاسلام، لينقضُوا على المدينة، فلا تقوم للمسلمين بعدها قائمة!.

وما إن طلع فجرُ اليوم التالي، وإذا بمؤذِن الرسول يدعو المؤمنين للخروج الى ميدان المعركة من جديد!! وراحت ترددُ اصداءهُ بيوت المدينة وشوارعها: الجهاد الجهاد... القتال القتال... لقد كانَ القرار هو الخروج في اثرِ قريش لخوض المعركة مَعَ ذلك الجيش الذي رَجَعَ مكللاً بالنصر على ما في المؤمنين من الجراحات والآلام والمعاناة...

وهكذا اعلنُ الرسولُ القائد الحرب... وهبّت جحافل المؤمنين تلبي داعي الجهاد، يعضونَ على الجراح، التي لم تجفَّ

دماؤها بعد! ولم يسمح للذينَ تخلفوا عن معركةِ الأمس بالخروج...

واستخلفَ الرسول ابن امَ مكتوم على المدينة، واعطى اللواء الى علي بن ابي طالب عليه السّلام وسار هو في طليعةِ جيشه على بركةِ الله، يُريدونَ اللحاق بذلك الجيش الذي تصوّر انهُ لن يهزم بعد يوم أُحد ابداً.

وكم كانَ ركبُ المجاهدين رائعاً ومهيباً، فها هي جراحاتهم ما تزال تنزفُ دماً عبيطا وغبارُ المعركةِ ما زال بادياً على الشعور والوجوه... ولكنّه الشوق واللهفة لخوض القتال والجهاد.

قال محمد بن اسحاق: كانَ يوم أُحُد يوم السبت النصف من شوّال، فلمّا كانَ الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوّال، اذّنَ مؤذنُ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الناس بطلبِ العدو... وان لا يخرجنَّ معنا أحدٌ إلاّ من حضر يومنا بالأمس!.

يحدّثنا أحدهم وهو يصوّرُ لنا طبيعة الاجواء الجهاديّة فيقول: شهدتُ أحداً انا وأخٌ لي فرجعنا جريحين، فلمّا أذّنَ مؤذّنُ رسول الله بالخروج في طلب العدو، وتُليت علينا الآية التي انزلها الله على نبيّه **﴿ولاَ تهنوا في ابتغاءِ القوم إن تكونوا تالمونَ فانّهم يالمون كما تالمون وترجون مِنَ الله ما لا يرجون﴾**، تواعدنا على أنْ لا تفوتنا غزوه مَعَ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وخرجنا نلحقُ بالمؤمنين، ونحنُ نكادُ نزحفُ وراءهم... وكانَ اخي (رافع) أكثرُ منيّ جراحاً، فضعفَ عن السير، فتقدمتُ احملهُ على ظهري، حتى لم أعد اقوى على احتماله... ثمَّ لا البثُ أنْ اعود واحمله من جديد... ومازلنا كذلك حتى وصلنا الى معسكر المسلمين...

وهكذا استطاعَ هذان الجريحان أنْ يقطعا مسافة ثمانية أميال، التي هي المسافة بينَ المدينة وحمراء الأسد.

* * *

وفي حمراء الأسد أمر الرسولُ القائد صلّى الله عليه وآله وسلّم المقاتلين أنْ يجمعوا الحطب، ويجعلوهُ اكواماً متفرقة في شتّى أنحاء المعسكر، حتّى اذا جنَّ الليل، أمرهم جميعاً بان يوقدوا النيران، فاوقدوها، وعلت ألسنةُ اللهب الى السماء... وهكذا عملوا في اليوم التالي...

وكم كانت المفاجأةُ كبيرةً على قريش، ولم تكد تصدّق النبأ الذي وقع عليها وقوع الصاعقه... فكيفَ جاءَ هؤلاء المسلمون

الذينَ خرجوا بـالأمس منهزمين قد اثخنتهم الجراح، وفقدوا خيرة رجالهم ومقاتليهم...

وارتعـدت فرائصُ ابـي سفيان، وهـو يسمع بالاستعدادات والتحشدات الاسلاميّة بقيادة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في حمراء الاسد!.

فهـا هي ألسنـةُ النيـران المتصاعـدة تُنبيءُ عن جيشٍ جرارٍ، وحشودٍ كبيرة...

وبدأ الـوهنُ يـدخلُ قلوبَ المشـركين، وذهبَ من يتعاطف مَعَ المسلمين وهو معبد الخزاعي، ليقول لابي سفيان، محمدٌ قد خرجَ في اصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط، يتحرّقـونَ عليكم تحرّقاً، قد اجتمـع مَعَهُ من كانَ تخلّف عنهُ في يـومكم، وندموا على ما صنعوا.

قال أبو سفيان: ويلَك ما تقول؟!.

قـال معبد: والله مـا أراك ترتحـل حتّى ترى نواصي الخيل.

قـال: فوالله لقـد اجمعنـا الكـرّةَ عليهم لنستأصل بقيتهم.

قال: فـاني أنهـاك عن ذلك. فـوالله لقد حملني مـا رأيت علـى أنْ قلتُ فيـه ابياتاً من شعر.

قال أبو سفيان: وما قلت؟.

قال: قلتُ:

كادت تُهَدُّ من الاصواتِ راحلتي

إذْ سالتِ الأرضُ بالجُردِ الأُبابيلِ

تـردى بأُسـدٍ كـرامٍ لا تنابلـةٍ

عـندَ اللقاء ولا مـيلٍ معازيـل[٢]

قال: فثنى ذلك أبا سفيان ومن مَعه[٣].

هكذا رجَـعَ المشركـون إلى مكّة وقـد لفَتهـم الـدهشـةُ مـن عـزيمـة المسلميـن وصرامتهم واصرارهم على الحرب والجهاد رغم مـا بهم من القـرح والجرح، فأنـزل الله سبحانـه في ذلك قـراناً ﴿**الذينَ استجابوا للرسول من بعد مـا أصابهم القرح للذينَ احسنوا منهم واتقوا أجـرٌ عظيم * الذينَ قال لهم النّـاس إنَّ الناس قد جمعـوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمـاناً وقوالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتّبعوا رضوان الله والله ذو فضـلٍ عظيم * انّمـا ذلكم الشيطان يخوّفُ اولياءه فلا تخـافـوهم وخـافـونـي إن كُنتم مؤمنين**﴾ آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٥.

* * *

إنْ في الايات المباركة وقصتها دروساً رائعة، لأبدَّ من الوقـوف عندها والتبصّر في

احداثها، ولعل من اهمها:

الدرس الأول: إنَّ الخسارة في معركة من المعارك، والهزيمة في جولةٍ من الجولات، لا يعني ان نعيش الهزيمة والضعف، والاستسلام للجراحات النازفة، لتتحول الهزيمة في معركة الى هزائم وخسائر وانكسارات في كُلِّ المعارك القادمة... ذلك لأنَّ عيش الوهن، وتسلّله للقلوب هُوَ الخسارة الحقيقيّة التي ما بعدها خسارة، لأنَّ الوهن يشلُّ الحركة والانطلاق، ويضعف القوى عن المقاومة والدفاع، ولهذا جاءَ التحذير القرآني في أجواء الهزيمة **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كُنتم مؤمنين﴾**. كما واعطى القرآن سنّةً من سنن الصراع **﴿وكأيِّن من نبي قاتل مَعَهُ ربّيون كثير فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحبُّ الصابرين﴾** آل عمران: ١٤٦، واننا اذا تدبرنا السياق في الآية المباركة... لرأينا أنَّ الوهن هُوَ العنصر الأول في الهزيمة، ليأتي بعد ذلك الضعف في ساحة المواجهة، مما يؤدي الى الاستسلام للاعداء والخضوع والإستكانة. ولربما نعرفُ من ذلك مدى التسامح في أقوال اغلب المفسرين عندما يفسرونَ الوهن بالضعف، ولا يفرقونَ بينهما.

وهنا تكمنُ حكمة وحنكةَ القيادة النبويّة بأن لا تسمح للهزيمةِ أنْ تتكرّس، لتتحول من ساحة المعركة، وميدان المواجهة، الى ساحة القلب والنفس والروح، فتكون الهزائم في كُلِّ مساحة وميدان، وانكسارٍ في كُلِّ معركة قادمة؟!. فلم يسمح الرسول القائد صلّى الله عليه وآله وسلّم للمقاتلين المتعبين الذينَ اثخنتهم الجراح أنْ يندبوا قتلاهم، ويبكوا دماءهم النازفة، وانما استطاع وبتسديد السماء، بمبادرته الكريمة أنْ يخلق حالةً جهادية متألقة رائعة، حيث أمرَ المقاتلين الذينَ لم تجف دماؤهم بعد، أنْ يُلاحقوا الجيش الذي هزمهم بالأمس، ليخوضوا مَعَهَ معركةً جديدة حاسمة.

وقد رأينا كيفَ خرجَ المجاهدون وهم يعضونَ على جراحهم، في طلبِ عدوهم، مما سببَ ادخال الرعب في القلوب، والوهن في النفوس... وهكذا سجّل المؤمنون مبادرة استطاعوا فيها القضاء على حالة الوهن التي غالباً ما تحدث في اجواء الهزيمة والفشل والانكسار... فلم تهزمهم مشاعر القرح والألم والجولة الخاسرة، فانَّ أمامهم

جولات وصولات، وما عليهم إلاّ أنْ يستفيدوا من التجربة، ليصححوا المسيرة، لينطلقوا من جديد بعزمٍ وبصيرة: **﴿إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القوم قرحٌ مثله وتلك الايام نداولها بينَ الناس﴾** آل عمران ١٤٠.

ومن جانبٍ آخر، ارادَ الرسولُ القائد بمبادرته تلك أنْ يوحي للعدو بالقوّة والاستعداد الدائم والمواجهة المستمرة حتّى في اشد الحالات حراجة، وفي اكثر المواقف صعوبة، ليُثبت لهم أنَّ الجراح النازفة لا توهنُّ عزم المؤمنين الرساليين، بل ما تزيدهم إلاّ عزيمة وقوّة ومضاء، وزيادة في التبّصر بنقاط الضعف والخلل في النفوس والصفوف... وبذلك وَجدَ الأعداء أنَّ ورقَةَ أُحد لم تكن رابحة، وليس لها أيُّ رصيد في الجولات الآتية.

الدرس الثاني: عندَ كُلِّ تجربةٍ صعبة قاسيّة يمرُّ بها المؤمنون، يزدادُ نشاطُ المثبطين في الساحة، فينطلقون ببثِّ الاراجيف والاشاعات الرامية الى خلقِ حالةٍ من التكريس للمعاناةِ، والتأكيد على أجواء الهزيمة، ليعيش المجتمع الايماني اليأس من أيِّ فَرَجٍ مستقبلي، وأملٍ في التطلع الى تباشير فجرٍ، يبددُ ظلام الهزيمة والانكسار.

ولهذا فقد رأينا المنافقين بَعْدَ أُحد لعبوا دوراً كبيراً في ممارسة أساليب التثبيط والتعويق، حيث بدأت إذاعاتهم ووكالات انبائهم تبثُّ برامجها بكثافة، ليل نهار، لتحوّل الهزيمة في ساحة المعركة الى ساحة القلب، كما قلنا، وحينها تتولّدُ الهزائم المستمرة، والانكسارات المتلاحقة.

تلك هي لعبة المنافقين وضعفاء الايمان في ساحة المواجهة والصراع: **﴿الذينَ قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ ﴿الذينَ قالوا لاخوانهم وَقَعَدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ ﴿وطائفةٌ قد اهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظنَّ الجاهليّة يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾**؟! **﴿يقولون لو كانَ لنا من الأمر شيءٌ ما قُتلنا ها هنا﴾**؟! **﴿أولما اصابتكم مصيبةٌ قد اصبتم مثليها قُلتم أنّى هذا﴾** آل عمران: ١٦٨ ـ ١٥٤ ـ ١٥٤ ـ ١٦٥؟!... وهكذا[٤].

واذا ما نتقلنا الى أجواء معركة الأحزاب، تلك الأجواء الصعبة التي عاشَ فيها المسلمون أقسى لحظاتهم واحرجها... حينما اجتمع الأعداء جميعاً تحت شعار (يا أعداء الاسلام اتحدوا)، فاننا سنجدُ كيفَ

لعبت حركة النفاق في تكريس أجواء الهزيمة... عندما انطلقوا يبثون اشاعات التثبيط والتعويق: (يا أهل يثربَ لا مُقام لكم فارجعوا) **﴿ما وعدنا اللهُ ورسولُهُ إلاّ غرورا﴾** الاحزاب: ١٢. **﴿قد يعلمُ الله المعوّقين منكم والقائلين لأخوانهم هلمَّ الينا﴾** الاحزاب:١٨ . وهذا ما نجدهُ في سورة الأحزاب.

الدرس الثالث: إنَّ التجربة الصعبة لدى الواعين من المؤمنين، لا تجعلهم يعيشونَ الوهن والضعف، بل على العكس من ذلك تماماً... لأنَّ شدّة الهجمة دليل عافية وصحّةٍ واستقامة **﴿ودّوا لو تُدهن فيدهنون﴾** القلم:٩. ولو أنهم ساوموا وداهنوا لتحولت عداوة اعدائهم صداقةً حميمة (خلّه)، وحربهم سلماً، وكراهيتم حبّاً ومودة: **﴿وإن كادوا لَيفتنونكَ عن الذي أوحينا اليك لتفتريَ علينا غيره واذاً لاتخذوكَ خليلاً﴾** الاسراء: ٧٣!.

ولعل هذا هو السر في العلاقة بينَ شدّة الهجمة وزيادة الايمان: **﴿الذينَ قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً﴾** آل عمران: ١٧٣. حيثُ نرى أنَّ قول المثبطين والمعوّقين ساهمَ في زيادة الإيمان وصلابة الموقف!.

ونشيرُ هنا اشارة خاطفة الى أنَّ هذهِ العلاقة بينَ شدّة الهجمه وزيادة الايمان في الآية المباركة، قد وقفَ عليها بعض المفسرين موقف المتدبّر، لاكتشاف سرها كحقيقة من حقائق الصراع والمواجهة. فقد اعتبرها بعضُهم حالةً طبيعيّة وقانوناً طبيعيّاً في العلاقة بينَ التحدي والاستجابة، فكلما كانت التحديات كبيرة جاءت المواقف صلبةً وقويّة... «ولذا كانَ المؤمنون كلّما لامهم في أمر الله لائم أو منعهم مانع زادوا قوّةً في ايمانهم وشدّة في عزمهم وبأسهم»[5].

واعتبرها البعض الآخر حالةً استحضاريّةً لسنن الصراع التي كانَت مرتكزة في وعي المؤمنين المجاهدين، التي ركّزها في اذهانهم القرآن الكريم في كثير من آياته المباركة، في ربطه بينَ شدّةِ الهجمة ومجيء النصر: **﴿حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾** يوسف: ١١٠.

﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسةِ الافٍ من الملائكة مسوّمين﴾ آل عمران: ١٢٥.

﴿إن تنصروا الله ينصركم ويُثبِّت اقدامكم﴾ محمد: ٧.

وهذا ما نجدهُ أيضاً في واقعة الاحزاب،

عندما رأى المؤمنون التحشدات الكبيرة للاعداء ﴿ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم اِلاّ ايماناً وتسليما﴾ الاحزاب: ٢٢.

ولهذا ذكر صاحب تفسير الميزان تفسيراً آخر لهذهِ العلاقة بقوله:

«ويمكن أنْ يكون زيادة اِيمانهم لتأييد أمثال هذهِ الاخبار، ما عندهم من خبر الوحي، أنهم سيؤذونَ في جنب الله حتّى يتم أمرهم باذن الله وقد وعدهم النصر ولا يكون نصرٌ اِلاّ في نزال وقتال»(٦).

بينما فَسَّر البعض الثالث سر العلاقة المذكورة بانّهُ يرجعُ الى ما ذكرناهُ في أوّل الدرس الثالث، وهو أنَّ شدّة الهجمة دليل صحّةٍ واستقامةٍ في المسيرة... لأنَّ «التحديات الكافرة كلّما كبرُت كلّما كانت دليلاً جديداً على مستوى الخطورة التي تمثلها حركة الايمان ضدَّ الكفر، مما يمنح المؤمن شعوراً بقوّة الموقف في قوّة الايمان... لأنَّ ردّ الفعل في حركة الكفر فيما يمثله من اساليب العدوان لا يدلُّ على قوّةٍ في الموقف، بل يوحي بحالة الضعف التي تدفع الى التشنج والانفعال العدواني... وفي هذا الموقف يشعر المؤمنون أنَّ عليهم أنْ يواصلوا الفعل من مواقعهم القويّة ليرتفع مستوى الحركة الى أعلى ما يستطيع العاملون أنْ يبلغوه وهذا هو وحي القرآن في تصويره لهذهِ الروح الفاعلة الصاعدة ﴿فزادهم ايماناً وقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيل﴾(٧) وهذهِ العلاقة لا يحسُّ بها إلاّ المجاهدون العاملون الذينَ يعيشونَ ساحة التحديات، وميدان المواجهة.

الهوامش

(١) جَلَل: حقير لا قيمة له. قال الراغب في مفرداته:

الجَلَلُ: المتناول من البَقر، وعُبّرَ بهِ عن الشيء الحقير. وعلى ذلك قولهُ: كلّ مصيبة بعده جلل.

على أنَّ الراغب ذكر قبل ذلك انَّ الجلل: كُلّ شيء عظيم.

(٢) معاني الكلمات:

تهدُّ: تسقط لحصول ما سمعت من اصوات الجيش وكثرته.

الجرد: الخيل العتاق.

الأبابيل: الجماعات.

تردي: تسرع.

التنابل: القصار.

الميل: جمع أميل، وهو الذي لا رمح مَعَه.

المعازيل: الذي لا سلاح مَعه.

(٣) تفسير الطبري: في تفسير الآية ١٧٣، من سورة آل عمران.

(٤) الآيات في سورة آل عمران، وقد نزلت بعد معركة أُحد، لتصوِّرَ لنا نشاط المرجفين والمعوّقين والمثبطين في أجواء الهزيمة.

(٥) تفسير الميزان للطباطبائي ٤: ٦٤ مؤسسة الاعلمي بيروت.

(٦) الميزان المصدر السابق.

(٧) تفسير من وحي القرآن لمحمد حسين فضل الله ٦: ٢٥٢.

* * *

التفسير: نشأته وتطوره (٥)
إبن عباس: هل كان يراجع أهل الكتاب حقاً؟

الشيخ محمّد هادي معرفة



هل كـان ابن عـباس يراجع أهل الكتاب في فهم معاني القرآن؟!.

سؤال أجيب عليه بصورتين، احداهما مبالغ فيها، والاخرى معتدله الى حدّما: كانت مراجعته لأهل الكتاب ـ كمراجعة سائر الأصحاب ـ في دائرة ضيقة النطاق، في أمور لم يتعرّض لها القرآن، ولا جاءت في بيان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حيث لم تَعُد حاجة الى معرفتها، ولا فائدة كبيرة في العلم بها، كعدد اصحاب الكهف، أو البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، ومقدار سفينة نوح وما كان خشبها، واسم الغلام الذي قتله الخضر، واسماء الطيور التي احياها الله لابراهيم... ونحو ذلك مما لاطريق الى معرفة الصحيح منه، فهذا يجوز أخذه من أهل الكتاب، والتحدّث عنهم ولاحرج، كما ورد: «حدثوا عن بنى اسرائيل ولاحرج»[1] المحمول على مثل هذه الامور:

قال ابن تيّمية: وفي بعض الاحيان ينقل عنهم(عن بعض الصحابة مثل ابن سعود وابن عباس وكثير من التابعين) ما يحكونه من أقاويل اهل الكتاب التى أباحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «بلّغوا عنّي ولو آية، وحدّثوا عن بنى اسرائيل ولاحرج...» رواه البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص... ولهذا كان عبدالله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين[2] من كتب اهل الكتاب، فكان يحدّث منها، بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك... ولكنّ هذه الأحاديث الإسرائيلية إنّما تذكر للأستشهاد للاعتقاد، فانها من الأمور المسكوت عنها، ولم نعلم صدقها ولاكذبها مما بأيدينا، فلانؤمن به

ولانكـذّبه، وتجوز حكايتـه، وغـالب ذلـك مما لافـائدة فـيه تعـود الى أمـر ديني، وقد ابهمه الله في القرآن، لافائدة في تعـيينه تـعود على المكلّفـين في دنيـاهم ولادينهم. [٣]

* * *

ووافـقـه على هذا الرأى الاسـتـاذ الذهبى، قـال: كـان ابـن عبـاس يرجع الى أهل الكتـاب ويأخـذ عنهـم، بحكم اتفـاق القرآن مـع التـوراة والإنجيـل في كـثيـر من المواضع التى أجملت في القـرآن وفصلت في كتب العهدين. ولكن في دائرة محدودة ضـيّقة، تتفق مع القرآن وتشـهد له. اما مـا عـدا ذلك مما يتنافى مع القرآن ولايتّفق مع الشريعة، فكان لايقبله ولايأخذ به!.

قال: فابن عباس وغيره من الصحابة، كـانوا يسألون علماء اليـهود الذين اعتنقـوا الاسلام فـيمـا لايمسّ العقـيدة او يـتصل بأصـول الدين وفـروعـه، كـبعض القـصص والأخبار الماضية...

قـال: وبهـذا المسلك يكون الصـحابة قـد جمعـوا بين قـوله صلى الله عليه وآله وسلم: «حـدثوا عن بنى اسـرائيل ولاحرج» وقـوله: «لاتصدقوا اهل الكتاب ولاتكذبوهم». فان الاول مـحـمـول علـى مـا وقـع فـيـهم من الحـوادث والاخـبـار، لما فـيهـا مـن العظة والإعتبار، بدليل قوله بعد ذلك: «فإنّ فيهم أعاجيب». والثانى محمول عـلى ما اذا كان المخبر به من قبلهم مـحتملاً، ولـم يقم دليل على صـدقه ولاعلى كـذبه... قـال: كـمـا أفاده ابن حجر، ونبّه عليه الشافعي... [٤]

* * *

وأمّا المستـشرقـون فقد ذهبوا في ذلك مذاهب بعـيدة، بالغـوا فيـها الى حدّ ترفـضه شـريعة النقـد والتـمحـيص: يقـول العـلامـة المستشرق «جولد تسيهر»:

«وترى الرواية الاسلامية ان ابن عباس تلقّى بنفسه ـ في اتصاله الوثيق بالرسول ـ وجوه التفسير التى يوثق بها وحدها. [٥] وقد اغفلت هذه الرواية بسهولة ـ كما في احوال اخرى مـشـابهـة ـ ان ابن عبـاس عند وفـاة الرسول كان أقصى مابلـغ من السّن ١٠ـ١٣ سنة:

«وأجدر من ذلك بالتصديق، الأخبار التى تفيد أن ابن عباس كان لايرى غضاضةً ان يرجع، فى الاحوال التى يخامره فيـها الشك، الى من يرجو عنده علمهـا، وكثيراً مـا ذكـر انه كـان يرجع ـ كتـابةً ـ في تفـسـير مـعـانى الألفـاظ الى من يدعى «أباالجَلد» والظاهر انه «غـيلان بن فـروة الأزدى» الذي كان يُثنى عليه بأنّه قرأ الكتب. [٦]

«وكـثـيـراً مـا نجـد بيـن مـصـادر العلم

المفضّلة لدى ابن عباس، اليهوديّن اللّذين اعتنقا الاسلام: كعب الأخبار ـ وعبدالله بن سلام. . . كما نجد اهل الكتاب على وجه العموم، اى رجالاً من طوائف ورد التحذير من أخبارها ـ عدا ذلك ـ في اقوال تنسب الى ابن عباس نفسه. ومن الحقّ أن اعتناقهم للاسلام قد سما بهم على مظنّة الكذب، ورفعهم الى مرتبة مصادر العلم التى لاتثير ارتياباً. . . [7]

«ولم يعدّ ابن عباس اولئك الكتابيّين الذين دخلوا في الاسلام، حججاً فقط في الاسرائيليات وأخبار الكتب السابقة، التى ذكر كثيراً عنها الفوائد [8]، بل كان يسأل ايضاً كعب الاحبار مثلاً عن التفسير الصحيح للتعبيرين القرآنيين: «ام الكتاب» [9] و«المرجان». . . [10]

«كان يفترض عند هؤلاء الأحبار اليهود، فهم أدقّ للمدارك الدينية العامة الواردة في القرآن وفي أقوال الرسول، وكان يرجع الى أخيارهم في مثل هذه المسائل، على الرغم من ضروب التحذير الصادرة من جوانب كثيرة فيهم. . . [11]

هذه هى عبارة «جولد تسيهر» البادي عليها غلوّه المفرط بشأن مسلمة اليهود، ودورهم في التلاعب بمقدّرات المسلمين. ! الامر الذي لايكاد يصدّق فى أجواء كانت السيطرة مع الصحابة النبهاء، انما كان ذلك في عهد طغى سطو أميّة على البلاد وقد أكثروا فيها الفساد. . . على ماسننبّه. . .

* * *

وقد تابعه على هذا الرأى الأستاذ احمد أمين. . . قال: ولم يتحرّج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس من أخذ قولهم. روى أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اذا حدّثكم أهل الكتاب فلاتصدقوهم ولاتكذبوهم»! ولكن العمل كان على غير ذلك، وأنّهم كانوا يصدّقونهم وينقلون عنهم! وان شئت مثلاً لذلك فاقرأ ماحكاه وغيره عند تفسير قوله تعالى: «هل ينظرون إلاّ آن يأتيهم الله في ظلَل الغمام والملائكة» البقرة ٢/ ٢١٠.

وعقّبه بقوله: وقد رأيت ابن عباس كان يجالس كعب الأحبار ويأخذ عنه. . . [12]، اشارة الى ماسبق من قوله: واما كتب الأحبار او كعب بن ماتع فيهودى من اليمن، واكبر من تسرّبت منهم أخبار اليهود الى المسلمين، اسلم في خلافة ابي بكر او عمر، على خلاف في ذلك، وانتقل بعد إسلامه الى المدينة ثم الى الشام، وقد أخذ عنه اثنان، هما أكبر من نشر علمه: ابن عباس ـ وهذا يعلّل ما في

تفسيره من اسرائيليات ـ وابوهريرة. . . [١٣]

* * *

نقد ونمحيص

وانا لتأسف كثيراً أن يغترّ كتّابنا النقاد ـ أمثال الاستاذ احمد امين والاستاذ الذهبي ـ يتخرّصات لفقتها أوهام مستوردة، فلنترك المستشرقين في ريبهم يترددون، ولكن مالنا ـ نحن معاشر المسلمين ـ أن نحذو حذوهم وتراكبهم في مسيرة الوهم والخيال؟! .

لاشكّ أنّ نبهاء الصحابة امثال ابن عباس كانوا يتحاشون مراجعة اهل الكتاب ويستقذرون مالديهم من أساطير وقصص وأوهام. . . وانّما تسرّبت الاسرائيليات الى حوزة الاسلام، بعد انقضاء عهد الصحابة، وعند ماسيطر الحكم الأموى على البلاد لغرض العيث في الأرض وشمول الفساد، الامر الذي أحوجهم الى مراجعة الأنذال من مسلمة اليهود ومن تبعهم من سفلة الأوغاد. وسنذكر ان مبدأ نشر الاسرائيليات بين المسلمين كان في هذا العهد المظلم بالخصوص. . . حاشا الصحابة، وحاشا ابن عباس بالذات، ان يراجع ذوى الأحقاد من اليهود، ويترك الخلّص من علماء الاسلام أمثال الامام عليّ بن ابي طالب عليه السّلام وكان سفط العلم ولديه علم الأولين والآخرين، علماً ورثه من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في شمول وعموم! .

وقد مرّ عليك انه كان يستطرق ابواب العلماء من الصحابة بنية العثور على اطراف العلم الموروث من الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم وقد سئل: آنّى أدركت هذا العلم؟ فقال: بلسان سؤول وقلب عقول! [١٤]

واليك من تصريحات ابن عباس نفسه، يحذّر من مراجعة اهل الكتاب بالذات، فكيف يا ترى، ينهى عن شيء ثم يرتكبه؟! .

التحذير عن مراجعة اهل الكتاب:

اخرج البخاري اسناده الى عبيداللّه بن عبداللّه بن عتبة عن ابن عباس قال:

«يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذى أنزل على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أحدث الأخبار باللّه تقرأونه لم يُشَب، [١٥] وقد حدثكم اللّه أنّ اهل الكتاب بدّلوا ما كتب اللّه وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا هو من عند اللّه ليشتروا به ثمنا قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسائلتهم، ولا واللّه ما رأينا منهم رجلاً قطّ يسألكم عن الذي عليكم!» [١٦]

واخرج عن ابى هريرة قال: كان أهل الكتاب [١٧] يقرأون التوراة بالعبرانية

ويفسرونها بالعربيّة لأهل الاسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لاتصدّقوا اهل الكتاب ولاتكذّبوهم، وقولوا آمنّا بالله وما انزل الينا وما انزل اليكم...». [18]

واخرج عبدالرزاق من طريق حريث بن ظهير، قال: قال عبدالله بن عباس: «لاتسألوا اهل الكتاب، فإنّهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم، فتكذبوا بحق او تصدّقوا بباطل...» [19]

وهذا الحديث اوضح من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عدم تصديقهم ولاتكذيبهم، لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل، فلا يمكن تصديقهم، لانه ربّما كان تصديقا لباطل، ولاتكذيبهم، لانه ربّما كان تكذيبا لحق... فالمعنى: ان لايعتبر من كلامهم شيء ولايترتّب على ما يقولونه شيء! فلا حجية لكلامهم ولا اعتبار لأقوالهم على الإطلاق... اذن فلا ينبغي مراجعتهم ولا الأخذ عنهم في وجه من الوجوه!

وأخرج احمد وابن ابى شيبة والبزار من حديث جابر، أن عمر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب أصابه من بعض اهل الكتاب... فغضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، لاتسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق فتكذبوا به، او بباطل فتصدّقوا به ـ والذي نفسي بيده لو أنّ موسى كان حيّاً ما وسعه إلا أن يتّبعني...». وفي رواية أخرى: «... لاتسألوا اهل الكتاب عن شيء...». [20]

* * *

تلك مناهي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الصريحة في المنع عن مراجعة اهل الكتاب اطلاقاً، لافي كبيرة ولاصغيرة، فهل ياترى احداً من صحابته الأخيار، خالف اوامره وراجعهم في شيء من مسائل الدين والقرآن؟! كما حسبه الأستاذ احمد أمين: زعم ان العمل كان على ذلك، وانهم كانوا يصدّقون اهل الكتاب وينقلون عنهم!! [21]

وأمّا الذي استشهدوا به على مراجعة مثل ابن عباس لليهود، فكلّه باطل وزور، لم يثبت منه شيء: امّا الذي جاء به الاستاذ مثلاً من قوله تعالى: «**هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام**» البقرة۲/ ۲۱۰، قال: فاقرأ ماحكاه الطبرى وغيره عند تفسير الآية...

فقد راجعنا تفسير الطبري والدر المنثور وابن كثير وغيرها من امهات كتب التفسير بالنقل المأثور. [22] فلم نجد فيها ذكراً لكعب ومسائلته من قبل أحد من الأصحاب او غيرهم من التابعين ايضاً...

ولم ندر من أين أخذ الاستاذ هذا المثال، ومن الذى عرّفه ذلک، فأوقعه فى هذا الوهم الفاضح؟!.

وأمّا قوله: كان ابن عباس يجالس كعب الاحبار، وكان اكثر من نشر علمه.. [٢٣]! فكلام أشدوهما واكثر جفاءً على مثل ابن عباس الصحابي الجليل!

إذ لم نجد ولا رواية واحدة تتضمن نقلاً لابن عباس عن أحد من اليهود، فضلاً عن مثل كعب الاحبار الساقط الشخصيّة! [٢٤]

نعم أشار المستشرق جولد تسيهر الى موارد، زعم فيها مراجعة ابن عباس لأهل الكتاب، ولعلها كانت مستند الاستاذ احمد أمين تقليداً من غير تحقيق، ولكنا راجعنا تلک الموارد، فلم نجدها شيئاً كسراب بقيعة يحسبه الظلمان ماءً! .

منها: أن ابن عباس سأل كتب الأحبار عن تفسير تعبيرين قرانيّين: أمّ الكتاب والمرجان... [٢٥]

غير ان الطبري روى باسناده الى حسان بن مخارق عن عبدالله بن الحرث، انه هو الذي سأل كعباً عن ذلک، قال: قلت: لكعب الأحبار، «يسبّحون الليل والنهار لايفترون...» أما يشغلهم رسالة او عمل: قال: يا ابن أخي، إنهم جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس، ألست تأكل وتشرب وتقوم وتقعد وتجئ وتذهب وانت تتنفّس؟ قلت: بلى! قال: فكذلک جعل لهم التسبيح... [٢٦]

قلت: ياترى، هل كان هو الذي سأل كعباً او انه سمع ابن عباس يسأل كعباً؟ في حين انه لايقول: سمعت ابن عباس يسأله، بل مجرد: ان ابن عباس سأله... الامر الذي لايوثق بكون الرواية منتهيه الى سماع، والظاهر انه إرسال...

على أنه من المحتمل القريب: ان السائل هو بالذات، لكنّ ابنه اسحاق كره نسبة السؤال من مثل كعب الى ابيه، فذكر الحديث عن ابيه مع إقحام واسطة ارسالاً من غير اسناد! .

ويؤيد ذلک: أنّه لم تأت رواية غير هذه تنسب الى ابن عباس انه سأل مثل كعب...! فالأرجح فى النظر انه مفتعل عليه لامحالة! .

* * *

واستند جولد تسيهر ـ فى مراجعة ابن عباس لأهل الكتاب ـ ايضاً الى مارواه الطبرى باسناده الى ابى جهضم موسى بن سالم مولى بن عباس، قال: كتب ابن عباس الى ابى جلد (غيلان بن فروة الأزدى، كان قرأ الكتب، وكان يختم القرآن كل سبعة ايام ويختم التوراة كل

ثمانية ايام)[27] يسأله عن«البرق» في قوله تعالى: «هوالذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً» الرعد١٣/١٣... فقال: البرق الماء.![28]

لكن في طبقات ابن سعد:[29] ان اباالجلد الجَونى ـحىّ من الأزدـ اسمه جيلان بنْ فروة، كانْ يقرأ الكتب. وزعمت ابنته ميمونة أنّ أباها كان يقرأ القرآن في كل سبعة ايام، ويختم التوراة في ستّة، يقرأها نظراً، فاذا كان يوم يختمها حُشد لذلك ناس!.

لاشك أنها مغالاة من ابنته. يقول جولد تسيهر: ولايتّضح حقّا من هذا الخبر الغامض، الذي زادته مغالاة ابنته غموضاً، أيّ نسخة من التوراة كان يستخدمها في دراسته!؟[30]

لأن التوراة المعهودة اليوم وهى تشتمل على ٣٩ كتاباً تكون في حجم كبير، ثم هى قصة حياة اسرائيل طول عشرين قرناً وفيها تاريخ حياة انبياء بنى اسرائيل(ملوكهم ورجلاتهم وحروبهم طول التاريخ، وهي بكتب التاريخ اشبه منها بكتب الوحى... فهل كان يقرأ ذلك كله في ستة أيّام، وما هي الفائدة في ذلك التكرار!؟.

على أنّ راوى الخبر وهو موسى بن سالم ابوجهضم لم يلق ابن عباس ولا أدركه، لأنه مولى آل العباس، وليس مولىً لابن عباس، ففي نسخة الطبرى المطبوعة خطأ قطعاً، قال ابن حجر: موسى بن سالم ابوجهضم مولى آل العباس، ارسل عن ابن عباس. وهو من رواه الامام ابي جعفر بن علي الباقر عليهما السّلام...[31] وفي الخلاصة: موسى بن سالم مولى العباسين ابوجهضم عن ابى جعفر الباقر، وعنه الحمّادان.[32] والامام الباقر توفى سنة١١٤.

وأخيراً... فان الموارد التي ذكروا مراجعته ابن عباس فيها لأهل الكتاب، لاتعدو معاني لغوية بحتة، لاتمسّ قضايا سالفة عن أمم خلت كما زعموا.. ولاسيما السؤال عن البرق، وهو لفظ عربى خالص، لاموجب للرجوع فيه الى رجال اجانب عن اللّغة.. كيف ياترى يرجع مثل ابن عباس ـوهو عربى صميم وعارف بمواضع لغته اكثر من غيره ـ الى اليهود الأجانب؟! وهل يخفى على مثله مااللفظ البرق من مفهوم؟! ثم كيف اقتنع بتفسيره بالماء؟! اللّهمّ إن هذا إلاّ اختلاق!.

الامر الذي يقضى بالعجب، كيف يحكم هذا العلامة المستشرق حكمه البات، بأنّ كثيراً ما ذكر أنه كان يرجع ـكتابةً ـ في تفسير معاني الألفاظ الى من يدعى اباالجلد؟![33] ويجعل مستنده هذه

المراجعة المفتعلة قطعاً، اذ كيف يعقل ان يراجع، مثله في مثل هذه المعاني؟! .

* * *

واسخف من الجميع تبرير مانسب الى ابن عباس من أقاصيص أسطورية جاءت عنه، بأنه من جرّاء رجوعه الى اهل الكتاب في هكذا أمور بعيدة عن صميم الدين. قال الاستاذ أمين: وهذا يعلّل مافي تفسيره من اسرائيليات.. قال ذلك بعد قوله: وكان ابن عباس وابوهريرة اكبر من نشر علم كعب الاحبار. ![٣٤]

وقال الدكتور مصطفى الصاوي: وكثيراً ماترد عن ابن عباس روايات في بدء الخليقة وقصص القرآن، مما لايمكن ان يكون قد رجع فيه الا الى اهل الكتاب، حيث يرد هذا القصص مفصلاً... مثال هذا تفسيره للآية: «قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»[٣٥].. قال: لكنه حين يرجع اليهم مستفسراً فانّما يرجع رجوع العالم الذي يعير سمعه لما يقال، ثمّ يعمل فكره وعقله فيما يسمع ثم ينخله مبعداً عند الزيف..[٣٦]

قلت: إن كانت فيما روى عنه في ذلك وأمثاله غرابة أو غضاضة، فان العتب انما يرجع الى الذي نسبه الى ابن عباس، ترويجاً لأكذوبته، ولالوم على ابن عباس في كثرة الوضع عليه.. نعم ولعل هذه الكثرة في الوضع عليه آية على تقدير له وإكبار من الوضّاع، لكنه في نفس الوقت، رغبة منهم في ان تنفق بضاعتهم، موسومة بمن في اسمه الرواج العلمي... وقد اعترف بذلك الدكتور الصاوي..[٣٧] فلماذا حكم عليه حكمه ذلك القاسي!؟.

* * *

فالصحيح: ان ابن عباس كان في غنى عن مراجعة اهل الكتاب، وعنده الرصيد الأوفى من العلوم والمعارف والتاريخ واللغة، ولاسيما في مثل تلكم الأساطير التي كانت كل ما يملكه اليهود من بضاعة مزجاة كاسدة..

بل ان موقف ابن عباس من أهل الكتاب عموماً، ومن كعب الاحبار خصوصاً، ما يصوّره معتزاً بدينه كريماً على نفسه وثقافته:

يروى ان رجلاً أتى ابن عباس يبلغه زعم كعب الأحبار: انه يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنّهما ثوران عقيران فيقذفان في النار.! فغضب ابن عباس وقال: كذب كعب الأحبار، كذب كعب الأحبار، كذب كعب الأحبار... بل هذه يهوديّة يريد ادخالها في الاسلام..[٣٨]

يقال: لما بلغ ذلك كعباً، اعتذر له بعد

وتعلّل . . [٣٩]

وربّما كان كعب يجالس ابن عباس يحاول مراودته العلم فيما زعم، فكان ابن عباس يجابهه بما يحطّ من قيمته . . روى انه ذكر الظلم في مجلس ابن عباس، فقال كعب: إني لا أجد في كتاب الله لمنزل(يريد التوراة)[٤٠] ان الظلم يخرّب الديار! فقال ابن عباس: أنا أجده في القرآن، قال الله عزّوجل: **«فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا»** النمل٢٧/ ٥٢ . [٤١]

هذه حقيقة موقف ابن عباس من اليهود كما ترى، وهو اذ كان يدعو الى تجنّب الرجوع الى اهل الكتاب، لما يدخل بسبب ذلك من فساد على العقول وتشويه على العامة، فكيف ياترى انه كان يرجع اليهم رغم نهيه وتحذيره، وهلاطرق سمعه، وهو الحافظ لكلام الله، **«يا ايّها الذين آمنوا لم تقولون ما لاتفعلون، كبر مقتاً عندالله ان تقولوا مالاتفعلون»** الصف٦١/ ٣. فحاشا ابن عباس ان يراجع اهل الكتاب، وحاشاه حاشاه!!

الهوامش

(١) مسند احمد ج٢ ص١٥٩و٢٠٢ و٢١٤. عن عبدالله بن عمرو بن العاص. وص٤٧٤ و٥٠٢ عن ابي هريرة. وج٣ ص١٣و٤٦و٥٦عن ابى سعيد الخدرى.

(٢) اى ملفّتين، من زمّل الشيء بثوبه او في ثوبه: لفّه.

(٣) راجع مقدمته فى اصول التفسير ص١١ و٤٥ـ ٤٧.

(٤) التفسير والمفسرون ج١ ص٧٠ـ٧١ و ٧٣و١٧٠ـ ١٧٣ . وراجع فتح الباري لابن حجر ج٨ ص١٢٩ وج١٣ ص٢٨٢.

(٥) هنا يعلق المترجم الدكتو عبدالحليم النجار، يقول: وأين الرواية التى يزعمها، وما قيمتها في نظر رجال النقد؟(مذاهب التفسير الاسلامى ص٨٣).
والصحيح ـ كما أسلفنا ـ ان ابن عباس أخذ تفسيره من الصحابة ولاسيما من امير المؤمنين علي عليه السّلام، فهو انما اخذ التفسير من الرسول بواسطة أصحابه الأخيار.

(٦) يقول فيه العسكرى فى كتاب التصحيف والتحريف: هو صاحب كتاب وجمّاع لأخبار الملاحم. (مذاهب التفسير ص٨٥ الهامش رقم٣)

(٧) سترى أن الامر كان بالعكس، كان هؤلاء موضع ارتياب المسلمين عامة، سوى اهل المطامع امثال معاوية وابن العاص . ومن على شاكلتهما!

(٨) مثل ما أخرجه ابن سعد في الطبقات(ج١ ق٢ ص٨٧) بإسناده الى ابن عباس انه سأل كعب الأحبار عن صفة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في التوراة والانجيل. !

وكذا ما اسنده الى مولى عمر بن الخطاب أن كعباً أخبر بموته قبل ثلاثة أيام، اذ وجد ذلك مكتوباً عندهم في التوراة. ! (الطبقات ج٣ ق٢ ص٢٤٠)

(٩) من سورة الرعد ١٣/ ٣٩. راجع الطبري ج١٣ ص١١٥.

(١٠) من سورة الرحمان ٥٥/ ٢٢. راجع الطبري ج٢٧ ص٧٦ـ ٧٧.

(١١) مذاهب التفسير الاسلامی ص٨٤ـ٨٨.

(١٢) فجر الاسلام ص٢٠١.

(١٣) المصدر ص١٦٠.

(١٤) التصحيف والتحريف للصاحبی ص٣.

(١٥) جاء في موضع آخر: «كتابكم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحدث، تقرأونه محضاً لم يُشَب...». قوله: لم يُشَب، اى لم يخلطه شيء من غير القرآن، تعريضاً بكتب العهدين التى دُسّ فيها ما ينبو عن كونه وحياً!

(١٦) جامع البخاري ج٩ ص١٣٦ باب قول النبي: لاتسألوا اهل الكتاب عن شيء. وج٣ ص٢٣٧ باب لايسأل اهل الشرك عن الشهادة وغيرها، واللفظ على الأخير.

(١٧) ويعني بهم اليهود بالذات. صرّح بذلك ابن حجر فی الشرح ج٣ ص٢٨٢.

(١٨) جامع البخارى ج٩ ص١٣٦.

(١٩) فتح البارى شرح البخارى ج١٣ ص٢٨١.

(٢٠) فتح البارى ج١٢ ص٢٨١.

(٢١) نقلنا كلامه آنفا: راجع فجر الاسلام ص٢٠١.

(٢٢) راجع: جامع البيان للطبرى ج٢ ص١٩٠ ـ ١٩٢. والدر المنثور للسيوطی ج١ ص٢٤١ـ ٢٤٢، تفسير ابن كثير ج١ ص٢٤٨ـ٢٤٩.

(٢٣) فجر الاسلام ص١٦٠.

(٢٤) سوف ننبّه أنّ كعب الأحبار كان من صنايع معاوية، صنعه لنفسه لغرض الحطّ من كرامة الاسلام.

(٢٥) مذاهب التفسير الاسلامی ص٨٨.

(٢٦) تفسير الطبرى ج١٧ ص١٠.

(٢٧) مذاهب التفسير الاسلامی ص٨٥.

(٢٩) ج٧ ق١ ص١٦١ س١٥.

(٣٠) مذاهب التفسير الاسلامی ص٨٦.

(٣١) تهذيب التهذيب ج١٠ ص٣٤٤.

(٣٢) خلاصة التهذيب ص٣٩٠.

(٣٣) مذاهب التفسير الاسلامي ص ٨٥.

(٣٤) فجر الاسلام ص١٦٠.

(٣٥) البقرة ٢/ ٣٠، راجع الطبرى ج١ ص١٥٨.

(٣٦) مناهج فی التفسير ص٣٨.

(٣٧)

(٣٨) العرائس للثعالبی ص١٨. (مناهج فی التفسير ص٣٩)

(٣٩) المصدر ص٢٤.

(٤٠) حسب التصريح به في الرواية: كتاب الله المنزل يعنى التوراة(راجع ابن قتيبة في عيون الأخبار ج١ ص١٤٦ س١٣).

(٤١) عيون الأخبار لابن قتيبة ج١ ص٢٦(مناهج ص٣٩).

البلاغي: التجربة الرمز في التفسير

القسم الثاني والأخير

علي الكعبي

٤ـ البلاغي والاعراب

الامام البلاغي، وكد أبه في هذا التفسير وفي جميع مؤلفاته، يتحرّى مواضع الدقّة في التعبير القرآني، ولايهمُّه غيركشف مايوافق أسلوب القرآن الكريم، ويرفض كلّ مالايمتّ الى هذا الأسلوب بصلة، وتجده في الاعراب من النّحاة، المتمكّنين في هذا العلم، لكنّه لم يجعل من تفسيره مادّة لعرض آراء النّحاة وإيراد أوجه الاعراب المختلفة، الاّ أنّه يورد الاعراب حيثما يكون ضرورياً لإيضاح المعنى المراد[١]، وقد ينتصر لأحد أوجه الاعراب فيُرجحه.[٢]

وفيما يلي نسوق بعض الأمثلة من تفسيره، والتي تؤكّد براعته في هذا الفن، وتعكس المامه وإبداعه وابتكاره في مسائل يظنّ الكثيرون أنّ قُدامى النحاة قالوا فيها كلمتهم، وليس ثمّة رأي يمكن أن يضاف إلى آرائهم، لاسيّما إذا كان من المحدثين.

أـ (ومن ذلک كلمة «فيه» من قوله تعالى في اوّل سورة البقرة: «ذلکَ الكتابُ لاريَبَ فيه»[٣] زعماً منهم أنّها تكون خبراً مقدّماً لقوله تعالى: «هُدَىً للمتّقين»[٤] ويُقدّرون مثلها لقوله تعالى: «لاريَبَ»[٥] مع أنّ الوقف على «لاريَبَ» يجعل الكلام قلقاً مبتوراً، بنحو لايُجدي فيه التقدير، ومع أنّه لاحاجة لجعل الظرف خبراً مقدّماً لـ «هُدَىً»، وجملته تكون خبراً ثانياً لـ «ذلکَ الكتابُ» فإنّ كلمة «هُدَىً» هي بنفسها تكون خبراً.. وهذا هو الأنسب بكرامة الكتاب المجيد، فقد قال اللّه: «هُدَىً وَرَحمَةً»[٦] كما في الأعراف والنحل وغيرذلک، وإنّ القرآن «هُدَىً وبُشرى للمؤمنين»[٧] و«هُدَىً للنّاس»[٨] و«هُدَىً وَرَحمةً للمؤمنين»[٩] و«للذين آمنوا هُدَىً وَشفاء»[١٠] كما في سورة

البقرة والنمل وحم السجدة).[11]

ب ـ وفي استظهاره الاعراب في البسملة يقول:

(فالظاهر أنّ البسملة في جميع السور متعلّقة بكلمة «أبدأ» للمتكلّم من قول الله جلّ اسمه، تنويهاً بجلال اسمه الكريم وبركاته، وتعظيماً له لجلال المسمّى وعظمته جلّ شأنه وله الأسماء الحُسنى، كما أمر في القرآن بذكر اسمه وتسبيحه، كما في سورة المائدة[12] والحج[13] المزمّل[14] والدهر[15] والأعلى[16].

فينتظم المقدّر في جميع السور وجميع الأحوال بنظام واحد على نسق واحد، ولايعتري ما استظهرناه غرابة ولا إشكال، وكيف يعتريه ذلك وقد نسب الله الابتداء لذاته المقدّسة في خلقه كما في قوله جلّ اسمه: «وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ»[17]، «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ»[18] وقد أقسم جلّ اسمه بمخلوقاته كالشمس والقمر والنفس وغيرها تعظيماً لها، لأنّها مظاهر قدرته وآيات حكمته).[19]

جـ ـ في تفسيره لقوله تعالى: «شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ».[20]

يقول: (في «التبيان»: وروي في تفسيرنا أنّ في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: «شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ وَالْمَلاَئِكَةُ» الآية، أي على أنّه حال من الضمير «هو» انتهى.[21]

وفيه أنّ مثل هذا الإرسال لاينهض باثبات شي، فضلاً عن مصادمته بالمتواتر من القراءة والمصاحف.

وفي «الكشاف» جوّز كونه حالاً من الضمير أيضاً[22] على القراءة المتعارفة.

أقول: والأنسب بكرامة القرآن الكريم في سياقه وأسلوبه المجيد أن يكون حالاً من لفظ الجلالة، فانّه هو الذي له عنوان الكلام ووجهه الذي يقرّب له البعيد من جملته ويوصل به المنفصل دون ضمائره، فكلّما صلح أن يرتبط به من حال أو غيره جرّه عنوان الكلام ووجّهه إليه، ولايرتبط بغيره إلاّ بالقرينة، وكما هو الشأن في كلّ كلام له حظّ من البلاغة والاستقامة).[23]

د ـ في تفسيره لقوله تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ».[24]

يقول: (إنّ المترائي من الآية أنّ «كان» ناقصة تدلّ على أنّ مضمون خبرها قد كان في الزمان الماضي وانقضى وانقطع، ومن أجل ذلك ذكر في «الدرّ المنثور» عشرة أكثرهم من أهل الصّحة عندهم، منهم الحاكم في مستدركه أخرجوا عن ابن عباس في ذلك أنّه قال: هم الّذين هاجروا مع

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة.[25]

وأخرج بعضهم عن عمر قال: تكون لأوّلنا، ولاتكون لآخرنا.[26]

وعن عمر أيضاً: لوشاءالله لقال: «أنتم» فكنّا كلّنا، ولكن قال: «كنتم» في خاصّة أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ومن صنع مثل صنيعهم كانوا خير أمّة أخرجت للناس.[27]

وفي «حقائق التنزيل»: وروي عن الحسن «أي البصري» أنّ ذلك إشارة إلى الصحابة دون مَن بعدهم ممّن تغيّرت حاله، واختلفت أوصافه.[28]

وفيه أيضاً: روي عن الحسن أنّه كان يقول: هكذا - والله - كانوا مرّة، وبعض المسلمين كان يقول: أعوذ بالله أن أكون كنتياً.[29]

أقول: وهذا كلّه ينظر إلى مفاد كان الناقصة، ولكن لم يُعط معناها حقّه، فإنّها لوكانت في الآية ناقصة لكانت دالّة على انقطاع الصفة التي في خبرها وتبدّلها، وباعتبار كون الخطاب فيها للمسلمين، تكون من أشدّ التوبيخ والتقريع بسوء العاقبة لمن كان موجوداً من المسلمين حين نزول الآية وخطابها، وقد كان البارز منهم حينئذ جلّ الكبار من السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار، فكيف يخاطب القرآن هؤلاء الأكابر وغيرهم من الأمّة في وقت النزول بما يؤدّي إلى أنّهم منسلخون حينئذ من صفات الآية، قد انقطعت عنهم بعد ماكانوا حائزين لكرامتها؟!.

ولايقاس المقام بقوله تعالى: **«وكانَ اللّه سميعاً عليماً»**[30] وأشباهه، فإنّ «كان» في هذه الموارد للإشارة إلى أنّه كذلك منذ الأزل، ومن المعلوم أنّ صفاته الأزليّة أبديّة أيضاً لايعتريها انقطاع وانقضاء وهذا المعلوم البديهي يصرف «كان» عن مفادها بخلاف هذه الآية، ولاأقل من أنّه لايُساق للمدح والتمجيد ما يُعطي بظاهره الذمّ والتقريع.

فالوجه أن تكون «كان» في الآية تامّة، كقوله تعالى: **«وإن كانَ ذُوعسرة فنظرة»**[31] مأخوذة من الكون المطلوع للتكوين، مثل قوله تعالى: **«كُن فَيَكُونُ»**[32] و«خيرأمّة» حال من الضمير، وجملة «أُخرجت» صفة للأمّة بمعنى أظهرت للنّاس، وأخرجت من العدم أو الخفاء).[33]

هـ- في تفسيره لقوله تعالى: **«وكَأين من نَبي قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثير»**.[34]

يقول: (الظاهرمن «المغني» و«شرح الكافية» للشيخ الرضي اتفاق النحويين وأمثالهم على أنّها مركّبة من «كاف التشبيه»

و«أي» الموصولة، ورُسمت النون للمحافظة على التنوين في الأصل، وأنّها صارت بعد التركيب اسماً يفيد معنى «كم» الخبريّة والتكثير، وإن خالفتها من وجوه، وأنّ محلّها الابتداء وما بعد تمييزها خبرها،[35] وعلى ذلك جرى «مجمع البيان»[36] بل وظاهر «التبيان»[37] وأمّا «الكشّاف» فلم يتعرّض في تفسيره لشيء من ذلك.

أقول: إن لم يجدوا منها في موارد استعمالها معنى «كاف التشبيه» ومعنى «أي» فمن أين جاءوا بحديث تركيبها وأصلها وصيرورتها بالتركيب اسماً، فإنّ العرب لايتحدّثون ولايُحدّثون بمثل ذلك، وإنّما يستعملون ما في لغتهم بمقتضى غريزتهم العربية وعلى رسلهم بدون تحليل، وإذا كانوا يجدون منها معنى جُزأيها، فلماذا يقولون: إنّها صارت اسماً، ولماذا لايجرون على مقتضى جُزأيها، وقد جاءت في القرآن الكريم سبع مرّات كما في الآية، وسور يوسف[38] والحج[39] والعنكبوت[40] ومحمّد[41] والطلاق.[42]

قال حسّان[43]:

كَأيِّن قَد أُصيبَ غَدَاةَ ذَاكُم
مِن ابيَضَ مَاجِد من سرِّ عَمرو[44]،[45]

و- في تفسيره لقوله تعالى: «يريد الله ليبين لكم».[46]

قال: (قال في «الكشاف»: اللام زائدة، والأصل أن يبيّن[47] قال ذلك ليجعل المصدر مفعولاً فتكون اللام لغواً. وما أهون دعوى الزيادة عليه! ولم يقل شيئاً في نظائرها من القرآن الكريم، مثل: قوله تعالى في سورة المائدة: «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجعَلَ»، «يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم»[48] والتوبة: «إنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم»[49] والأحزاب: «إنَّما يُرِيدُ اللَّه لِيُذهِبَ»[50] والقيامة: «يُرِيدُ الانسَانُ لِيَفجُرَ».[51]

ومثله قول كثير على ما في «مجمع البيان»:

أريد لأنسى ذكرها فكأنّما
تَمَثَّلَ لي لَيلى بكلِّ سَبيل[52]

وفي «مختصر البيان» مرسلاً، و«مجمع البيان» عن الزجّاج، عن سيبويه: أنّ اللام دخلت هنا على تقدير المصدر، أي إرادة الله للبيان لكم، نحو قوله تعالى: «إن كنتم للرّؤيا تعبرون»[53] انتهى.[54] ومرجع التمثيل إلى أنّها لام التقوية، وهو غريب من مثل سيبويه إذ يؤوّل القوى بالضعيف ليحتاج إلى لام التقوية، ومع ذلك يبقى المبتدأ بلاخبر، وهل يكون مثل هذا التكلّف في القرآن الكريم؟!

لكن في «المغني» قال الخليل وسيبويه

ومن تابعهما: إنّ الفعل مقدّر بمصدر مرفوع بالابتداء، واللام ومابعدها خبر، أي إرادة الله للتبيين على أن تكون اللام للتعليل.[55]

أقول: ومع التكلّف الذي لايناسب كرامة القرآن يبقى الكلام ناظراً إلى متعلّق الإرادة ومفعولها، فما هي فائدة الفرار إلى التأويل؟

وقيل: إنّ اللام بمعنى «أن» المصدرية، ليكون المصدر مفعولاً ليُريد.

ونقل في «مختصر البيان» و«مجمع البيان» و«شرح الكافية» للشيخ الرضي وتفسير الرازي: أنّها بمعنى «أن» مثلها في التي تقع بعد «أمرَ» كقوله تعالى: «وأُمرنا لنُسلمَ لربِّ العالمينَ».[56]

ويردّ ما ذكروه أولاً: إنّ مجيء «اللام» بعد «أن» المصدرية لم تقم عليه حجّة.

وثانياً: إنّها لوكانت كما يقولون لما وقعت بعدها «كي» و«أن» المصدريتان، كما أنشده الزجّاج:

أرَدتُ لكَيما يَعلَمَ الناسَ أنّها
سَراويلُ قَيس الوُفُودُ شُهُود[57].

وقول الآخر:

أرادَت لكَيما لاتَرى ليَ عَثرَةً
وَمَن ذاالذي يُعطى الكمال فَيكمُلُ[58].

وقوله تعالى في سورة الزمر: «وأُمرتُ لأن أكُونَ أوّلَ المُسلمينَ».[59]

فالصحيح هو أنّ اللام للتعليل، ومفعول «يُريد» في الموارد التي ذكرناها عن القرآن الكريم محذوف، يُقدّر في كلّ مقام بحسب مايُناسبه ويقتضيه، وإنّ هذا الحذف باب من أبواب البلاغة.

وممّا يُناسب الآية أن يكون التقدير فيها: يُريد الله أن يفصّل لكم شرائع النكاح أو الشرائع المذكورة في السورة أو ما قبلها.[60]

٥ـ البلاغي والروايات

يقف الامام البلاغي إزاء الروايات الواردة في تفسير آي القرآن الكريم موقف الناقد البصير الجريء، وقلّما تجد مثل جُرأته وخبرته عند غيره من مفسّري القرآن الكريم، فهو لايقف أمام الرواية موقف المسلّم الخاضع، ولايُخضع النصّ القرآني لمفاد الرواية كما هو شأن الكثيرين، بل يُمحّص الرواية سنداً ومتناً، ويعتمد بذلك نظرةً موضوعيةً محايدةً بعيدةً عن التحامل والتعصّب الّذي لم يخلُ منه مفسّر من مختلف طوائف المسلمين، ولم يكترث الامام البلاغي كما اكترث الكثير من المفسّرين بالأحاديث الموضوعة على الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته المعصومين عليهم السّلام، أو الأحاديث

الضعيفة سنداً والمتهافتة متناً بعرضها على كتاب اللّه، والتي تركت أثراً سيئاً في تفسير القرآن الكريم.

ويمكن تلخيص طريقة الامام البلاغي في التعامل مع التفسير بالمأثور من الروايات بالنقاط التالية:

أ ـ عدم الأخذ بما روي موقوفاً على التابعين من طريق العامّة: في خاتمة المقدمة الّتي أفردها لذكر المصادر المعتمدة في تفسيره قال: «وإنّ (الدرّ المنثور) أجمع من غيره للمأثور في التفسير باعتبار الأحاديث ورواتها ومخرّجيها في كتبهم، فلذا كانت إحالتي في الغالب عليه . . . وإنّما أذكر عنه ما أسنده عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أو عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وأمّا ما يرويه موقوفاً على التابعين ومن بعدهم فلاحاجة لي فيه، واللّه الموفّق والمعين». [61]

ب ـ عرض الرواية على كتاب اللّه: وهو الأسلوب الّذي استلهمه من مدرسة أهل البيت عليهم السّلام في تفسير القرآن الكريم، والمتصفّح لتفسير (آلاء الرّحمن) يجد أنّ هذه الطريقة تتجسّد في أغلب المضامين الّتي توصّل إليها البلاغي في تفسيره، ونحن هنا نسوق مثالاً واحداً يُبيّن هذا الأسلوب.

ففي تفسيره لقوله تعالى: **«وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيرُ المَاكرين»**. [62]

يقول: (بعض اللغويين فسّر المكر بالخديعة. [63] وفي «التبيان»: «والمكر -وإن كان قبيحاً- فإنّما أضافه اللّه إلى نفسه لمزاوجه الكلام، كما قال: **«فَمَن اعتَدَى عَلَيكُم فَاعتَدُوا عَليه»** [64] والثاني ليس باعتداء، وإنّما هو جزاء [65] ونحوه في «مجمع البيان». [66]

وكأنّهم نظروا في ذلك إلى أنّ الكثير من استعمال النّاس للفظ «المكر» هو فيما يُساوق استعمالهم للفظ الخديعة من الانسان، لإيصال الضرر المحرّم إلى غيره، وبذلك يكون قبيحاً، ولكن استعمال القرآن الكريم وبعض الموارد يُرشد إلى أنّ المكر هو أعمال خفيّة على الغير في معاملته على غَفلة منه عنها.

وقد جاء في القرآن الكريم منسوباً إلى اللّه بدون مُزاوجة، كقوله تعالى في سورة الأعراف: **«أفَأمنُوا مكرَاللّه فَلايَأمَن مكرَاللّه إلاّ القَوم الخاسرُونَ»** [67] وقال اللّه هنا وفي سورة الانفال: **«واللّهُ خَيرُ الماكرينَ»** [68] فأطلق لفظ الماكر عليه جلّ شأنه وعلى غيره، يعني الظالمين بلفظ واحد، ولايجوز استعمال اللفظ الواحد في المعنى الحقيقي والمعنى المجازي معاً، وعموم المجاز

يأباه المقام.

وقد ورد في الدعاء في خطاب الله: «ولاتمكر بي في حيلتك»[٦٩] بدون مزاوجة.

وفي «نهاية اللغة»: «وفي حديث الدعاء: اللّهم امكر لي، ولاتمكر بي». [٧٠]

وأمّا ما أسنده ابن بابويه عن الرضا عليه السّلام من قوله: إنّ الله لايَمكُر، ولكنّه يُجازي على المكر، [٧١] فإنّ في سَنَده جهالة وإهمال، ويمكن أن يُريد نفي المكر بالمعنى الّذي يُساوق الخديعة لايصال الضرر القبيح كما ذكرناه، وإلاّ فإنّ عرض الرواية على ما ذكرناه من القرآن كما أمرنا به أهل البيت يُوجب الوثوق بعدم صدورها عنهم عليهم السّلام.

جـ ـ الموضوعية والحياد: لايَهُمُّ الامام البلاغي أن تكون الرواية من طُرُق الخاصّة أو من طُرُق العامّة، بل إنّ كونها من طرق الخاصّة ليس بُرهاناً قطعياً أو دليلاً كافياً على صحّتها، وكونها من طرق العامّة ليس حجّة في نبذها وطرحها، فالبلاغي يميل إلى التوفيق بين روايات الفريقين، ويذكرها جنباً إلى جنب سيّما إذا كانت منسجمة مع الأسلوب القرآني ومؤيّدة لمراد الآية الكريمة، وقد يرفض روايات الفريقين إذا لم يقم دليل على صحّتها، ولايوجد مايُؤيّدها من النصّ القرآني أو من خارجه من القرائن المختلفة، وقد ينتصر لرواية واحدة لصحّة سندها وانسجام متنها مع مقتضى كلام الله المجيد، وفيما يلي نسوق بعض الأمثلة التي تُؤيّد جملة ما ذكرناه:

أولاً ـ في تفسيره لقوله تعالى: «فَمَن خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفاً أو إثماً فَأصلَحَ بَينَهُم فَلا إثمَ عَلَيه». [٧٣]

قال: «بَينَهُم» ظرف لأصلح، والضمير يعود إلى الوارث والمُوصَى لهم، كما يدلّ عليه المقام.

وفي «مجمع البيان»: أنشد الفراء في مثله:

أعمى إذا ما جَارَتي خَرَجَت
حتّى يُواري جَارَتي الخِدرُ
وَيَصَمُّ عمّا كَانَ بَينَهُما
سَمعي وَمَابي غَيرَهُ وَقر[٧٤]

أي عمّا كان بينها وبين زوجها.

وبما ذكرناه جاءت الرواية عن أهل البيت عليهم السّلام، كما في «الكافي» في مُرسل علي بن إبراهيم المضمر، وصحيح محمّد بن سُوقَة عن الباقر عليه السّلام[٧٥].

وفي «الفقيه» في مرفوعة يونس عن الصادق عليه السّلام[٧٦]. ورواه ابن جَرير من الجمهور في تفسيره عن ابن عبّاس وقَتَادة والربيع وإبراهيم بل والسدّي، ولم يذكر خلافاً

صريحاً إلاّ عن مجاهد[٧٧]». [٧٨]

ثانياً: في تفسيره لقوله تعالى: «وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إثمَ عَلَيه لِمَنِ اتَّقَى». [٧٩]

يقول: «لِمَنِ اتَّقَى» النساء والصيد، كما هو المشهور بين الامامية باعتبار الاختصاص بالأمرين المذكورين. [٨٠]

والمجمع عليه باعتبار الدخول في كلّ مايحرّم على المحرم، كما عن ابن سعيد. [٨١]

أو مايوجب عليه الكفّارة، كما عن ابن إدريس وأبي المجد. [٨٢]

كما ورد في خصوص النساء والصيد صحيحة حمّاد بن عثمان، وروايته الأخرى كما في «التهذيب» وصحيحة جميل، ومعتبرة ابن المستنير عن الصادق عليه السّلام. [٨٣]

وبه جاءت إحدى روايات «الدّر المنثور» عن ابن عباس، [٨٤] والمراد اتّقاء المحرم ومايحرّم عليه في حجه ممّا يكون بين النساء والرجال، سواء كان رجلاً أو امرأة.

وهناك روايات اخرى من الفريقين لم يأخذ بمضمونها الامامية، وعلى ذلك إجماعهم مضافاً إلى أنّ قوله تعالى: «لِمَنِ اتَّقَى» لايستقيم تفسيره بالتقوى المطلقة بعمومها، لأنّ حصولها إلى حين النّفر لايتّفق إلاّ للمعصوم، فلايبقى موقعاً للامتنان بغفران الذنوب إذا كان ذلك قيداً له، وكذا لايبقى مورد للتخفيف على سائر النّاس كما يعرف من روايات الفريقين بأجمعها إذا كان قيداً لجواز النّفر، كما لايستقيم تفسيره بمطلق حصول التقوى ومصداقها في الماضي، إذ لافائدة على ذلك في هذا القيد، فإنّ كلّ من له حج قد حصل منه مصداق للتقوى، فلابدّ من أن يراد بذلك تقوى خاصّة، وهو مابيّنته الروايات المتقدّمة، وبالنظر إلى هذا الذي ذكرناه يسقط كثير من الأحاديث). [٨٥]

ثالثاً: في تفسيره لقوله تعالى: «يُدعَونَ إلى كِتَابِ اللّه» وهو القرآن الّذي قامت عليهم الحجّة بأنّه كتاب اللّه بدلائل إعجازه وبُشرى كتبهم «لِيَحكُمَ بَينَهُم ثُمَّ يَتوَلَّى فَرِيقٌ منهُم» وهم الأكثر «وَهُم مُعرِضُونَ» عن القرآن ودلائل حجّته، ومنهم من وُفّق للإسلام والخضوع لأحكام اللّه في قرآنه المجيد.

ومقتضى روايتي «الدرالمنثور» و«مجمع البيان» عن ابن عبّاس، هو أنّ المراد من كتاب اللّه الّذي يُدعون إليه هو التوراة. [٨٦]

وكفى بذلك موهناً للروايتين، فإنّ التوراة كانت حينئذ محرّفة بأشدّ التحريف،

كما تراها الآن، فكيف يُسميها القرآن «كتاب الله».

روي في «الدرالمنثور» عن ابن عبّاس، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا اليهود إلى حكم التوراة بأنّ ابراهيم لم يكن يهودياً، [87] ويُوهن هذه الرواية، بعد غضّ النظر عن سندها، أنّ التوراة ليس فيها أنّ ابراهيم لم يكن يهودياً، وغاية ما فيها ذكر التاريخ المضطرب، ومنه أنّ الله أوحى إليه أن نسله -أي بني إسرائيل- يُستعبدون ويُذلّون في أرض غريبة، أي أرض مصر أربعمائة سنة. [88]

وقالت التوراة أيضاً في الفصل الثاني عشر من «سفر الخروج» إنّ المدّة كانت أربعمائة وثلاثين سنة، هذا مع أنّ النسخة السامرية والنسخة السبعينية قد زادتا في الاضطراب، وجعلتا المدّة المذكورة مدّة لإقامة بني إسرائيل وآبائهم في أرض مصر وكنعان. وقد تكلّمنا على هذا الاضطراب في الجزء الثاني من كتاب «الهدى» [89] فهل يدعوهم رسول الله إلى لاشيء في مثل هذا الكتاب المضطرب؟.

وفي «مجمع البيان» عن ابن عباس: دعاهم رسول الله إلى حكم التوراة برجم الزاني. [90] وهذه الرواية موهونة أيضاً بمضمونها فضلاً عن وهنها بإرسالها وبماذكرناه في موهن الروايتين، فإنّ الموجود في توراتهم أنّ الرجم على الفتاة التي لم يجد لها زوجها بكارة، وعلى العذراء المخطوبة إذا زنت، وعلى الزاني بها، كما في الفصل الثاني والعشرين من «سفرالتثنية».

وأمّا من يكون عليه الرجم في شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم تذكر فيه التوراة الموجودة إلاّ القتل، كما في الفصل المذكور، والفصل العشرين من «سفراللاويين». اذن فلايحكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالرجم على خلاف شريعته ويحتج بالتوراة المحرّفة ويُسمّيها كتاب الله). [91]

رابعاً: في تفسيره لقوله تعالى: «وَقَالَت طائفَةٌ من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزلَ عَلى الّذينَ آمَنوا وَجهَ النَّهار وَاكفُرُوا آخرَهُ لَعَلَّهُم يَرجعُونَ». [92]

يقول: («لَعَلَّهُم يَرجعُونَ» بهذه الخديعة عن إيمانهم، ويرتدّون عن دينهم، روى القمي في «تفسيره» عن أبي الجارود عن الباقرعليه السّلام في هذا المقام رواية ضعيفة بأبي الجارود [93] بعيدة الانطباق على الآية). [94]

خامساً: في تفسيره لقوله تعالى: «وَإن كانَ ذُوعُسرَةٍ فَنَظرَةٌ إلى مَيسرَةٍ وَإن تَصَدَّقُوا

خَيرلكُم إن كُنتُم تَعلَمُون». [95]

يقول: («إن كُنتُم تَعلَمُون» ما في هذا التصدّقِ من الفوائد التي لاغنى لكم عنها، وجاءت الجملة شرطية لمزيدِ الترغيب، أي إن كنتم تعلمون مافي التصدّق المذكور من الخير فإنكم ترغبون فيه بما أنكُم عقلاء فتصدّقوا، وعبّر عن المصدر بالفعل ليكون أظهر في إقدامهم على فعلِ الصدقة واختيارها، وفي تعلّق التصدّق بالدّين على المُعسر.

ولادلالة في الآية على اختصاص حُكمها بمن ذكر في الآية السابقة من المديونين بالمعاملة الربويّة، فإنّ لفظها مطلق وحكمتها عامّة، بل لوكانت مرتبطة لذُكرت بالتفريع بالفاء، فالظاهر هو عمومها لكلّ دَين. وفي «التبيان» وهو قولهما، وفي «مجمع البيان» وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السّلام. [96]

وماروي في «الدر المنثور» عن ابن عباس ممّا يُوهم اختصاصها بدين الربا[97] لا اعتبار لسنده فضلاً عن خلل متنه واضطرابه، وجعل المقابل لدين الرّبا هو الأمانة). [98]

سادساً: في تفسيره لقوله تعالى: «إذ تَحُسُّونَهُم بإذنه»[99] وبعد أن يبيّن المعنى اللغوي لكلمة (الحسّ) يقول:

(وقد كان في قتل المسلمين للمشركين في أوّل الحرب يوم أُحد قتل استئصال، فقد استأصلوا حَمَلَةَ اللواء بني عبد الدار، وسَرَى القتل الذريع في المشركين وعدّتهم، فقد كانوا نحو أربعة أمثال المسلمين المجاهدين.

وفي «التبيان» إذ تحسّونهم يوم بدر حتّى إذا فشلتم يوم أُحد. [100]

وفي «مجمع البيان» أكثر المفسرين على أنّ المراد بالجميع يوم أحد، ونقل ما ذكره «التبيان» عن أبي علي الجبّائي. [101]

وما ذكرناه مقتضى سوق القرآن، فهو الظاهر، وعليه روايتا ابن عبّاس في «الدر المنثور»[102]). [103]

٦ـ البلاغي والقراءات

المشهور بين علماء المسلمين جواز القراءة وفقاً لإحدى القراءات السبع، وهي: قراءة أبي عَمروبن العلاء البصري، وعبدالله بن كثير المكّي، ونافع بن عاصم المدني، وعبدالله بن عامر الشامي، وعاصم، وحمزة والكسائي. وتوسّع البعض بإضافة ثلاث قراءات أخرى إلى هذه السبع لتصير عشر قراءات، وهي: قراءة يزيد بن القَعقَاع المدني، ويعقوب بن إسحاق الحَضرمي، وخَلَف بن هاشم.

واعتبروا قراءة هؤلاء صحيحةً وقراءة غيرهم شاذّة.

ويرى بعض العلماء أنّ مجرّد مراعاة العربية وقواعدها في النحو والصرف والوقف وغيرها كاف في الجواز، وإن لم تكن القراءة موافقه لأحدى القراءات المذكورة اعلاه.

ورأي الامام البلاغي في هذا الباب يختلف عن الرأيين المذكورين آنفاً، إذ اقتصر رحمه اللّه على تجويز القراءة وقد تابعه على هذا الرأي كثيرمن العلماء بعده، إذ إنَّ قراءة القرآن الكريم وفق الرسم المتداول صحيحة بإجماع المسلمين، بخلاف القراءة على خلاف الرسم القرآني، فإنّها إن لم تكن باطلة جزماً، فهي مورد شبهة وإشكال، ولايجوز ترك المتيقّن والأخذ بما هو مورد شكّ وريبة.

إنّ القراءات السبع فضلاً عن العشر إنّما هي في صورة بعض الكلمات لابزيادة كلمة أو نقصها، ومع ذلك يجب فيها وفي تحققها أن تتبع ما أوحي إلى الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وخُوطب به عند نزوله عليه، وهو واحد، فعليك أن تتحرّاه بما يثبت به، وليست قراءة القرآن عبارة عن درس معاجم اللغة.

والمبرّرات التي يقدّمها الامام البلاغي لتأييد رأيه في هذا الشأن يمكن تلخيصها بمايلي:

أ ـ أنّ هذه القراءات ماهي إلاّ روايات آحاد عن آحاد غيرمتواترة لاتوجب اطمئناناً ولاوثوقاً، وأنّ كلاً من القرّاء هو واحدلم تثبت عدالته ولاثقته، يروي عن آحاد، حال غالبهم مثل حاله، ويروي عنه آحاد مثله.

ب ـ أنّ الرواة عن هؤلاء الآحاد كثيراً مايختلفون في الرواية عنه، فكم اختلف حفص وشعبه في الرواية عن عاصم، وكذا قالون وورش في الرواية عن نافع، وكذا قنبل والبذّي في روايتهما عن أصحابهما عن ابن كثير، وكذا رواية أبي عمرو وأبي شعيب في روايتهما عن اليزيدي عن أبي عمرو، وكذا رواية ابن ذكوان وهشام عن أصحابهما عن ابن عامر، وكذا رواية خلف وخلاد عن سليم عن حمزة وكذا رواية ابي عمرو وأبي الحارث عن الكسائي.

ج ـ أنّها روايات واهنة بالتعارض والاختلاف، وهو يسقط جميع القراءات عن الاعتبار.

د ـ أسانيد هذه القراءات الأحادية لايتّصف واحد منها بالصّحة في مصطلح أهل السّنة في الإسناد، فضلاً عن الإمامية.

هـ ـ أنّها مخالفة للرسم المتداول بين عامّة المسلمين في السنين المتطاولة، وكلّ

واحد من هؤلاء القرّاء يوافق بقراءته في الغالب ما هو مرسوم متداول بين المسلمين، وربّما يشذّ عنه عاصم في رواية شعبه، فلايحسن العدول عمّا هو متداول ومعمول عليه بين عامّة المسلمين في أجيالهم إلى خصوصيات هذه القراءات.

و- أنّ اتّباع القراءات السبع أو العشر يخلّ بتواتر القرآن الكريم، وهو أمر خطير يودي بأهمّ مصادر التشريع الاسلامي وبإعجاز الرسالة السماوية المقدّسة، فمن أجل تواتر القرآن الكريم بين عامّة المسلمين جيلاً بعد جيل استمرت مادّته وصورته وقراءته المتداولة على نحو واحد، فلم يؤثّر شيئاً على مادّته وصورته مايروى عن بعض النّاس من الخلاف في قراءته من القراء السبع المعروفين وغيرهم، فلم نسيطر على صورته قراءة أحدهم، اتّباعاً له، ولو في بعض النسخ.

ز- التشبث بما روي عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّ القرآن نزل على سبعة أحرف تشبث واه للأسباب التالية:

أوّلاً: اختلاف الأقوال بل وحتّى الروايات في تحديد المراد بالأحرف السبعة، ممّا يدلّ على وهن روايتها واضطرابها لفظاً ومعنىً، ممّا يجعلها مجملةً ويسقطها من الدلالة، فقد روى ابن جرير مرسلاً عن أبي قلابه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«أنزل القرآن على سبعة أحرف: آمر، وزاجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، وقصص، ومثل». [(١٠٤)]

وروى ابن جرير والسِّجزي وابن المُنذر وابن الأنباري، عن ابن عباس، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ القرآن على أربعة أحرف حلال وحرام»[(١٠٥)] الحديث.

وأسند السِّجزي في «الابانة، عن علي عليه السّلام: «أنزل القرآن على عشرة أحرف: بشير، ونذير، وناسخ، ومنسوخ، وعظة، ومثل، ومحكم، ومتشابه، وحلال، وحرام». [(١٠٦)]

ثانياً: معارضة خبر الأحرف السبعة بأخبار أخرى تقول إنّها أربعة أو عشرة، كما مرّ بيانه.

ثالثاً: أنّ رواية الأحرف السبعة قد رخّصت في التلاعب في تلاوة القرآن الكريم، حسبما يشتهيه التالي، مالم يختم آية الرحمة بالعذاب وبالعكس، فقد جاء في روايات السبعة أحرف بأسانيد جياد في مصطلحهم مايُعرّفك وهنها وإلحاقها بالخرافة، ففي رواية أحمد من حديث أبي بكرة: أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم استزاد جبرئيل في أحرف القراءة حتّى بلغ سبعة

أحرف، قال -يعني جبرئيل- كلّها شاف كاف، مالم تختم آية عذاب برحمة، وآية رحمة بعذاب.(١٠٧) وروي نحوه في مزيد من المصادر.(١٠٨)

رابعاً: هذه الرواية معارضة بأخبار أخرى، وردت عن العامّة، تؤيّد كون القراءة واحدة، وفي هذه الأخبار مايقطع سند القراءات السبع، فعن ابن الأنباري في (المصاحف) مسنداً عن عبدالرحمن السّلمي، قال: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة.(١٠٩)

وعن أبي داود، مسنداً عن أنس، قال: صلّيتُ خلفَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، وكلّهم كان يقرأ (مَلك يَوم الدِّين).(١١٠)

وروي أيضاً: أنَّ أوّل من قرأ (مَلك يَومِ الدّينِ) هو مروان بن الحكم.(١١١)

خامساً: لقد أُمرنا معاشر الامامية أن نقرأ كما يقرأ النّاس، وروي في هذا المعنى حاديث عن أئمّة الهدى عليهم السّلام(١١٢) وليس المراد بالنّاس هنا القُرّاء السبعة، بل نوع المسلمين وعامّتهم.

سادساً: فصل الخطاب في هذه المسألة هو معارضة هذه الروايات بما روي من طرق الشيعة، ففي الكافي مسنداً عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام: أنّ القرآن واحد، نزل من عند واحد، ولكنَّ الاختلاف يجيء من قبل الرواة.(١١٣)

وأرسل الصدوق نحوه في (اعتقاداته) عن الصادق عليه السّلام.(١١٤)

وفي (الكافي) أيضاً في الصحيح عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبدالله: إنَّ النّاس يقولون: إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف.

فقال: كذبوا، ولكنّه نزل على حرف واحد من عند الواحد،(١١٥) ويؤيّد ماذكرناه رواية السيّاري له أيضاً عن الباقر والصادق.(١١٦)

٧- موقف البلاغي من الاسرائيليات وكتب العهدين الرائجة:

كان الامام البلاغي في موقفه من الروايات الاسرائيلية ناقداً فطناً مجرّباً، ينهَل من نَبع ثقافته العريقة في هذا المجال، فهو صاحب اختصاص به، تعب نفسه وأجهدها للّقاء بأهل الكتاب وتعلّم لغتهم، وفتّش بطون كتبهم، فتبنّى الردّ على كثير من رواياتم الخرافية المكذوبة وأساطيرهم التي شوّهت كثيراً من كتب المتقدّمين، فأساءت إلى جمال اللفظ القرآني ومعانيه وجلال

أسلوبه ومراميه، بل وجرآت الطاعنين عليه أن يُنزلوا بساحته ماليس منه.

ويمكن حصر آراء الامام البلاغي في هذا المجال بالنقاط التالية:

أ ـ تعريفه للتوراة والإنجيل: في تفسيره للآية (٤٨) من سورة آل عمران يعرّف البلاغي التوراة بقوله: هي في الأصل اسم للكتاب الّذي أنزل على موسى عليه السّلام. وقد جرى الاصطلاح أخيراً على أنّ كتب اليهود التي نسمّى بالعهد القديم تُسمّى بالتوراة، والظاهر أنّه اصطلاح لا اعتداد به في هذا المقام.

الانجيل: هو الكتاب الواحد الّذي أنزل على عيسى عليه السّلام، ويقال إنّ معناه في اليونانية القديمة (التعليم).[117]

ويستنتج البلاغي في مقدّمته أنّ اطلاق هاتين التسميتين على كتب العهدين الرائجة غيرصحيح، فإنّ ما مع أهل الكتاب اليوم ممّا يُسمّيه البعض بالتوراة والانجيل محرّف بأشدّ التحريف، المشتمل على الكفر والخرافات، ويَزخَر بالتناقض والتهافت الّذي ينمّ عن الذوق البشري الذي تترفّع عنه التعاليم الإلهيّة الساميّة.

ب ـ تناقض وسقوط كتب العهدين الرائجة: عقد الامام البلاغي سلسلة مقارنات بين تعاليم القرآن الكريم السامية وبين ماجاء في التوراة والأناجيل الشائعة اليوم، توصّل من خلالها إلى أنّ ماجاء فيها هو مجموعة من التعاليم الموضوعة من قبل البشر تتّصف بعدم الانتظام واعتماد الحجج الساقطة والخرافات ممّا يدلّ على فسادها وتهافتها.

وفي مايلي نعرض واحدة من هذه المقارنات التي تتجلّى منها بوضوح حقيقة ما توصّل إليه الامام البلاغي في هذا المجال، ففي أثناء بحثه عن إعجاز القرآن يقول: (إنّ القرآن الكريم اشترك في تاريخه في بعض القصص مع التوراة الرائجة، التي اتفق اليهود والنصارى على أنّها كتاب اللّه المنزل على رسوله موسى عليه السّلام، فأوردت هذه التوراة تلك القصص وهي مملوءة من الخرافات أو الكفر أو عدم الانتظام الذي تشابه فيه كلام المبتلي بالبرسام.[118]

فمن ذلک قصّة آدم في نهي اللّه له عن الأكل من الشجرة، ومافيها من الخرافات والكفر بنسبة الكذب والخداع إلى اللّه جل وعلا، وسائر شؤون القصّة على ماجاء في الفصل الثالث من «سفر التكوين».

ومن ذلک ماجاء في الفصل الخامس عشرمنه من شکّ إبراهيم عليه السّلام في وعد اللّه له بإعطائه الأرض في سوريا، ومن ذكر

العلامة في ذلك.

ومن ذلك ما جاء في الفصل الثامن عشر في مجيء الملائكة إلى ابراهيم عليه السّلام بالبُشرى باسحاق، وإخباره بأمر هلاك قوم لوط، ومن حكاية ذهابهم إلى لوط وخطابهم معه.

ومن ذلك ما جاء في الفصل الثالث من سفر الخروج في خطاب اللّه لموسى من الشجرة، وفي أواخرما حاصله أنّ اللّه جلّ شأنه افتتح الرسالة لموسى بالتعليم بالكذب:

ومن ذلك ما جاء في الفصل الثاني والثلاثين في سفر الخروج في أنّ هارون هو الذي عمل العجل ليكون إلهاً لبني إسرائيل، ودعا لعبادته، وبنى له رسوم العبادة، فانظر إلى هذه القصص في مواردها المذكورة من التوراة الرائجة.

والقرآن الكريم أورد القصة الأولى في سورتي الاعراف وطه، والثانية في أواخر سورة البقرة، والثالثة في سورتي هود والذاريات، والرابعة في سور طه والنمل والقصص، والخامسة في سورتي طه والأعراف، فجاءت هذه القصص بكرامة الوحي الإلهي مُنزّهة عن كلّ خرافة وكفر، وعن كلّ ماينافي قدس اللّه وقدس أنبيائه، جاريةً على المعقول، منتظمة الحُجّة، شريفة البيان، وذلك ممّا يقيم الحجّة ويوجب اليقين بأنّه لايكون إلا من وحي اللّه، ولايكون من بشر بما هو بشر مثل رسول اللّه الذي لم يمارس تعلماً في المعارف الإلهيّة، ولم يتخرّج عن مدرسة، ولم يتربّ الا بين أعراب وحشيّين ووثنيّين على أوحش جانب من الوحشية والوثنية، بل لو مارس جميع التعاليم وتخرّج من جميع الكليّات لما أمكنه أن يتنزّه ويُنزّه معارفه وكلامه من أمثال هذه الخرافات الكفرية). (١١٩)

على أنّ البلاغي لم يقصد من وراء سلسلة المقارنات التي أثبتها في مقدّمته، أوالتي نبّه عليها أثناء تفسيره، التحامل على اليهود والنصارى، بل كان يروم الانتصار للحقّ وتجريد التفسير من كلّ وافد غريب، سيّما إذا كان تعاليم باطلة تنسب إلى التنزيل الإلهي، وفي هذا يقول الامام البلاغي: «هذا وإني عند مقايستي للقرآن الكريم بما ينسب إلى الوحي الالهي من كتب الأمم المتديّنة، ومنهم البراهمة والبوذيون وغيرهم، لم يحضر عندي الا كتب العهدين، فلا ينبغي أن تجعل مقايستى بهما تحاملاً على خصوص اليهود والنصارى، ولى العذر في ذلك، فإنّه لايصّح للانسان أن تأخذه في خدمة الحقّ وايضاح الحقيقة

وتأييدها لومة لائم، أو يصدّه عذل عاذل، فإن خدمة الحق نصرة للبشر جميعاً والله المستعان»[١٢٠]

جـ ـ ماذا بقي من التوراة والإنجيل الحقيقيّن؟

لاينفي الامام البلاغي كلّ ماجاء في التوراة والانجيل بالكلية، فرغم أنّه أثبت تناقضهما وعدم انتظامهما، وأنّهما من إنشاء البشر القاصر، إلا أنّه اثبت بقاء بعض التعاليم المستمدّة من التنزيل الالهي، وقد دافع البلاغي عن هذه التعاليم الالهية وأثبتها حيثما كدّرها الذوق البشري وأذهب بصفائها.

ولندع الامام البلاغي ـ يجيب على سؤالنا في تفسيره لقوله تعالى: «ألَم تَرَ إلى الذينَ أوتوا نصيباً من الكتاب»[١٢١] حيث يقول: (لايبعد أن يكون المراد هنا التوراة والانجيل، أي من جنس الكتاب، وإن روي أنّ مورد النزول هم بعض اليهود.

وعبّر بالنصيب من الكتاب باعتبار أنّ التوراة والانجيل قد حُرّفا وبُدّلا في أكثرهما، ولم يبق منهما على ما أنزل إلا البعض، وهو النصيب الذي بقي من التوراة لليهود والنصارى المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الانجيل الذي بقي للنصارى منهم.

فقد بقي من التوراة إيمان إبراهيم، وتوحيده، وتاريخه المبين أنّه كان قبل اليهودية والنصرانية وأقاويلها في الدين والتوحيد، وبقي فيها البشرى لبني إسرائيل بأنّ الله يرسل نبياً من إخوتهم، أي من ولد إسماعيل لا منهم، ويجعل كلامه في فمه كما في الفقرة الخامسة عشرة الى العشرين من الفصل الثامن عشر من«سفر التثنية» وبقي فيها حكم القصاص في النفس والعين والسن والجروح، كما في العدد الحادي والعشرين من الفصل التاسع عشر منه.

وبقي في الانجيل شيء من الدعوة إلى الاعتراف بأن الله هو الاله الحقيقي وحده، وأنّ عيسى عليه السّلام عبده ورسوله، كما في العدد الثالث من الفصل السابع عشر من إنجيل«يوحنّا» وبقيت البشرى برسول الله أحمد«بيركا وطوس» وإن حرّفوه إلى«بيراكليطوس» وعبّدوا عنه«فارقليط» و«المغزي» كما في الفصل السادس عشر والسابع عشر من إنجيل«يوحنّا».[١٢٢]

وقد عبّر الامام البلاغي عن هذا النصيب بالوَشل، مبيّناً أنّ هذا الوَشل لم يسلم من التدخّل البشري الذي أذهب بقدسه وجلاله، وفي ذلك يقول في مقدّمته: (ولك العبرة بأنّ التوراة الرائجة

فيها وَشل من تعاليم التوراة الحقيقية، ولكن لأنّها تلفيق واختلاق بشري كدّرت ما فيها من ذلك الوَشل، وذهبت بصفاء التعليم الالهي، فأمرت بني إسرائيل بالحكم بالعدل لقريبهم ونهتهم عن الحقد على أبناء شعبهم، وعن السعي بالوشاية، وعن شهادة الزّور على قريبهم، وأن يغدر أحدهم بصاحبه، ويا للأسف على شرف هذا الأمر والنهي إذ شوهت جماله بتخصيص تعليمها لبني إسرائيل وبتخصيص المأمور به والمنهي عنه بالقريب والشعب والصاحب.

ولك العبرة أيضاً بأنّ الأناجيل الرائجة قد أفرطت بتصوفها البارد، فنهت عن ردع الظالمين بالانتصاف من الظالم، وقطع مادّة الفساد بالحدود الشرعية، ودفاع الظالمين، بل علمت بأنّ من لطمك على خدّك الايمن فأدر له الآخر أيضاً، ومن أراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه. فلوّثت بافراطها البشري قدس تعاليم المسيح المتلقاه من الوحي الالهي). (١٢٣)

د ـ مالذي استفاده الامام البلاغي من تتبّعه لكتب العهدين؟

أولاً: نبّه الامام البلاغي على أن الاسرائيليات التي تسرّبت إلى كتب التاريخ والتفسير والتي تعتبر جسماً غريباً عنها هي على ضَربين: النقل الأفواهي، والنقل من الكتب. والأول أشد خطورة من الثاني وأكثر تحريفاً، وفي تفسيره للآية(٢٤٨)من سورة البقرة أشار إلى هذه المسألة بقوله: (إنّ تفاسير هذه الأمور إمّا أن تؤخذ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو الامام، وإلا فلا، لأنّ المؤرّخين بل والمفسّرين، منهم من يأخذ من النقل الأفواهي المُتقلّب بالتحريف من أهل الكتاب الراجع إلى كتبهم من العهد القديم، وهي التي كانت في أزمنة المفسّرين والمؤرخين باللسان العبراني والبابلي واليوناني، وهي ممنوعة، عن غير اليهود والنصارى، ويحرّم في مذهب الفريقين أن يمكّنوا منها حتّى العوامّ منهم، لكن بعد أن ظهرت في النصارى فرقة الانجيليين ترجموها بكلّ لسان، ونشروها في البلاد، فهذه الكتب على ما فيها من التحريف أقلّ تحريفاً من الأنقال المأخوذة عنها بالنقل الأفواهي الذي لم يبن على الحفظ والأمانة). (١٢٤)

ثانياً: تصحيح المعتقدات التي شوّهها الذوق البشري وإثباتها والدفاع عنها، ففي تفسيره لقوله تعالى: **«مَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الكتَابَ وَالحُكمَ والنُّبوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاس كُونُوا عِبَاداً لي من دُون اللّه»** يقول: (تكون الآية الكريمة دالّة ببرهانها الواضح على

بطلان دعوى من ادّعى الالهية والربوبية للبشر، وبطلان الدعوة إلى عبادة البشر، ورداً وتوبيخاً على ذلك، وهذا كلّه بعمومه شامل للنصارى، ويكون رداً وتكذيباً لهم فيما ينسبونه إلى المسيح في إنجيل يوحنّا ١٠ : ٣٣ ـ ٣٦ من أنّه ادّعى الالهية واستشهد بالعدد السادس من المزمور الثاني والثمانين. وماينسبونه أيضاً في أناجيل متّى ٢٢ : ٤١ ـ ٤٦ ومَرقُس ١٣ : ٣٥ ـ ٣٨ ولوقا ٢٠ : ٤١ ـ ٤٥ من أنّه ادّعى الربوبية محتجاً بقول داود في أول المزمور العاشر بعد المائه: «قال الربّ لربيّ» مع أنّ في الاستشهاد تحريفاً ظاهراً، وفي الاحتجاج الثاني تحريف لفظي لما في المزامير العبرانية، فإن ترجمته الصحيحة «قال الله لسيّدي» وماذا تنفع المزامير إذا ذكرت مستحيلاً في المعقول لاينطلي على العارف بالله).[١٢٥]

وفي تفسيره لقوله تعالى: «وَمَن يَغفِرُ الذُّنوبَ الاّ اللّه»[١٢٦] يقول: (وهل يلتجيء العارف بالله لغفران ذنبه الا إلى الله، ولئن استشفع إلى الله بمَن جُعلت له الشّفاعة فإنّ ذلك ممّا يُؤكّد الفزع والالتجاء إلى الله، ولعلّ في هذا الانكار إشاره إلى من يطلب المغفرة من الأوثان أو من القساوسة ويعتمد على غفرانهم، كما هو المتعارف عند فرقته الكاتوليك من النصارى حتّى في هذه الأزمنة، ومن يغفر الذنوب الا الله).[١٢٧]

وفي تفسيره لقوله تعالى: «يَا أهلَ الكِتَاب تَعَالَوا إلى كَلمَةَ سَوَاء بَينَنَا وبَينكُم»[١٢٨] يقول: (أي مستوية بيننا وبينكم في تلاوتنا جميعاً لها، فيما هو من كتب الوحى، أو يُنسب إلى الوحي، كما يوجد في توراتكم وأناجيلكم وسائر كتبكم التي تنسبونها إلى الوحي من توحيد الله، وإنّه هو الإله والربّ والمدّبر لخلقه وحده لاشريك له، ومن جملة ذلك في توارتكم عن قول الله «لتعلم أن يهوه هو الإله ليس أخر سواه. . . إنّ يهوه هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من اسفل ليس بسواه»، «أنا أنا هو، وليس إله معي» ونحوه في التوحيد ونفي الشريك في المزمور الثامن عشر ٣١ وفي كتاب أشعيا ٤٤ : ٦ و٨ وفي سفر التثنيه من التوراة ٦ : ٤ وفي إنجيل مرقس ١٢ : ٢٩ «يهوه إلهنا، يهوه واحد» وفي إنجيل يوحنّا ١٧ : ٣ (وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته).[١٢٩]

ثالثاً: الاستفادة من محصوله اللغوي ومعرفته باللغة العبرية في التفسير، ففي تفسيره لقوله تعالى: «لاتَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انظُرنَا»[١٣٠] قال: (وقد تتبّعت العهد القديم

العبراني فوجدت أنّ كلمة «راع» بفتحه مشالة إلى الألف وتُسمّى عندهم «قامص» تكون بمعنى الشرّ أو القبيح، ومن ذلك ما في الفصل الثاني والثالث من السفر الأول من توراتهم وبمعنى الشرّير واحد الأشرار، ومن ذلك ما في الفصل الأول من السفر الخامس وفي الرابع والستين والثامن والسبعين من مزاميرهم» ، في ترجمة الأناجيل بالعبرانية و«نا» ضمير المتكلم، وفي العبرانية تبدل ألفها واواً، أو تُمال إلى الواو، فتكون <راعنا> في العبرانية بمعنى «شرّيرنا» ونحو ذلك). [١٣١]

وينبّه الامام البلاغي في كلّ موضع يناسب المقام على تنقية التفسير من الاسرائيليات، وضرورة الحفاظ على جلال القرآن الكريم وجماله ممّا لحق بتفسيره من خرافاتهم وضلالاتهم التي شوّهت صورته.

٨ـ موقف البلاغي من اصطلاحات العلوم

لم يقحم البلاغي رحمه الله اصطلاحات العلوم في تفسير القرآن الكريم، ولم يجعل من تفسيره مادّة لأقوال أصحاب النظريات والفرضيات العلمية التي تتغيّر وتتطوّر بتطور الزمان ومدارك الانسان، ولم يكن هدفه التوفيق بين التقدّم العلمي المستمّر وبين تفسير آي القرآن الكريم، على أنّ الامام البلاغي لم يغفل عن الاشارة إلى بعض النكت العلمية التي أرشدت إليها الآيات القرآنية، ويُمكن معرفة ذلك من خلال تفسيره لقوله تعالى: «**تُولجُ الليل في النّهار**» [١٣٢] ، وقوله تعالى: «**وتَصريف الرّياح**» ، [١٣٣] وفي المقام الرابع من الفصل الرابع من المقدّمة في بيانه لنسبة التعقّل والادراك والاهتداء هل هي إلى القلب أو إلى الدماغ. [١٣٤]

٩ـ موقف البلاغي من مبهمات ومتشابهات القرآن الكريم

لايخوض البلاغي في تفسير الآيات المتشابهة من القرآن الكريم، ويسكت عن ماسكت الله عنه، ولايتجرأ كما درج البعض على الدخول في تفصيل بعض الجزئيات التي سكت عنها كتاب الله العزيز، واختصّ الله سبحانه أو من ارتضاه بالعلم بها لأمر قضاه في سابق علمه، فلا الآيات الأخرى كافية للدلالة عليها، ولا الروايات الضعيفة، ولا الاسرائيليات كافية لحلّها، ومصداق ذلك تجده في تفسيره لقوله تعالى: «**وبَقيَّةٌ ممَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وآلُ هارُون تَحملُهُ المَلائِكَةُ**». [١٣٥] حيث يقول: (إنّ تفسير هذه الأمور إمّا أن تؤخذ

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الامام، والا فلا). [١٣٦]

وهو قد يكتفي أحياناً بإيراد ما جاء من طرق الروايات دون أن يثبت شيئاً من رأيه كما في تفسيره لقوله تعالى: «**ألَم تَرَ إلى المَلأ من بَني إسرائيلَ من بَعد مُوسى إذ قَالُوا لنَبيّ لَهُم**». [١٣٧]

١٠ـ إعجاز القرآن الكريم

يعرّف الامام المعجز بقوله: هو الذي يأتي به مدّعي النبوة بعناية الله الخاصّة، خارقاً للعادة، وخارجاً عن حدود القدرة البشرية، ونواميس العلم والتعلم، ليكون بذلك دليلاً على صدق النبي وحجّته في دعواه النبوّة ودعوته.

لقد عرض البلاغي رحمه الله هذا الموضوع بشكل مفصّل في الفصل الأول من مقدّمة تفسيره، ويمكن تلخيص ذلك بالنقاط التالية

أـ حكمة تنوّع المعجز: ولايخفى أنّ حصول الفائدة من تنوّع المعجز يختلف كثيراً بسبب اختلاف الناس في أطوارهم ومعارفهم ومألوفاتهم، فرُبّ خارق للعادة يعرف بعض الشعوب أنّه خارق للعادة لايكون إلا بارادة إلهية خاصّة، ويكون في بعض الشعوب معرضاً للشك أو الجحود لاعجازه وخرقه للعادة، فقد اقتضت الحكمة الالهية أن يحتجّ النبي موسى عليه السّلام على قومه بمعجزة العصا؛ لأنّ الرائج بين المصريّين صناعة السحر المبتنية على قوانين عاديّة يجري عليها التعليم والتعلم.

وأن يحتجّ المسيح عليه السّلام بشفاء الأبرص والأعمى والأكمه ممّا يعرفون أنّه خارج حدود الطبّ ومزاعم الكهنة وقدرة البشر، ومن خارق للعادة التي لايكون الا بقدرة الله تعالى، وذلك لرواج الطبّ في عصره عليه السّلام.

واقتضت الحكمة الالهية«ولله الحكمة البالغة» أن يكون القرآن الكريم هو المعجز المعنون، والذي عليه المدار في الحجّة لرسالة خاتم النبيين وصفوة المرسلين صلوات الله عليهم اجمعين، فإنّه يكون حجة على العرب بإعجازه ببلاغته وبعجزهم عن الاتيان بمثله أو بسورة من مثله، وبخضوعهم لاعجازه، وهم الخبراء في ذلك، إذ رقت بينهم صناعة الأدب وبلاغة الكلام إلى أوج مجدها، وزهت بأجمل مظاهرها، وأحاطوا بأطرافها وحدّدوا مقدورها، فعاد المرء منهم جدّ خبير بما هو داخل في حدود القدرة البشرية، وما هو خارج عنها، ولايصدر على لسان بشر ابتداء

إلاّ بعناية إلهية خارقة للعادة البشرية بحكمه إلهيّة شريفة، ويكون القرآن الكريم حجّة على غير العرب في ذلك.

ب - امتياز القرآن عن غيره من المعجزات:

أولاً: إنّه باق مدى السنين ممثّلاً بصورته ومادّته لكلّ من يريد أن يطّلع عيه ويمارس أمره ويعرف كنهه وحقيقته.

ثانياً: إنّه تكفّل في صراحة بيانه بالشهادة للنبّوة والرسالة، فلم تبق حاجة لدلالة العقل ودفع الشّبهات عنها.

ثالثاً: إنّه تكفّل في صراحته المتكرّرة ببيانه لكمالات مدّعي رسالته، وأطرى بصلاحه وأخلاقه الفائقة كما هو معروف، فمهّد المقدّمات اللازمة في البيان وصورة الاحتجاج، بأنّه لوكان كاذباً لكان ظهور المعجزة له من الاغراء بالجهل القبيح، الممتنع لقبحه على جلال اللّه وقدسه تعالى شأنه.

رابعاً: إنّه تكفّل بنفسه دفع الموانع عن الرسالة والنبّوة، إذ بيّن موادّ الدعوة وأساسياتها ومعارفها وقوانينها الجارية بأجمعها على المعقول من عرفانيها وأخلاقيها وأجتماعيها وسياسيها، فلا يوجد فيها مايخالف المعقول ليكون مانعاً عن النبّوة.

خامساً: إنّه زاد على كونه معجزاً بنفسه بأن كرّر النداء والمصارحة في الاحتجاج بإعجازه، وتحدّي الناس، وأعلن بالحجّة، وهتف بهم هتافاً مكرّراً مؤكّداً بأن يعارضوه لو لم يكن معجزاً، ويأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو سورة واحدة من مثله، إن كان ممّا تناله قدرة البشر المحدودة.

جـ - للقرآن المجيد أيضاً وجوه من الاعجاز مما يشترك في معرفتها كل بشر ذي رشد إذا اطلع عليها، منها:

أوّلاً: اعجازه من وجهة التاريخ: حيث اشترك القرآن الكريم في تاريخه في بعض القصص مع التوراة الرائجة التي اتّفق اليهود والنصارى على أنّها كتاب اللّه المنزل على رسوله موسى عليه السّلام، فأوردت هذه التوراة تلك القصص وهي مملوءة من الخرافات أو الكفر أو عدم الانتظام، وجاءت هذه القصص في القرآن الكريم بكرامة الوحي الالهي منزّهة عن كلّ خرافة وكفر وعن كلّ ماينافي قدس اللّه وقدس أنبيائه، جاريةً على المعقول، منتظمة الحجّة، شريفة البيان، وذلك ممّا يقيم الحجة ويوجب اليقين بأنّه لايكون إلا من وحي اللّه، ولايكون من بشر بما هو بشر، مثل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، الذي لم يمارس تعلماً في المعارف الالهية، ولم

يتخرّج عن مدرسة. وقد سبقت الاشارة إلى شيء من المقارنات بين قصص القرآن الكريم وقصص كتب العهدين.

ثانياً: إعجازة في وجهة الاحتجاج: جاء في القرآن الكريم كثير من الحجج الساطعة على أهمّ المعارف وأشرفها، تلك الحجج الجارية على أحسن نهج وأعمّه نفعاً في الاحتجاج والتعليم، فاحتجّ على وجود الإله ولوازم إلهيته، وعلمه وقدرته وتوحيده، وعلى المعاد الجسماني، ولايوجد في شيء من هذه الحجج خلل عرفاني أو وهن أدبي، أو شائبة اختلاف، أو شائنة من تناقض، ممّا يمتنع على بشر لم يتعاط تعلّماً ولاتادّبا أن يأتي ببيان المعارف الصحيحة والمناقضة للجهل العام في عصره وبيئته وقومه، ويحتجّ عليها بتلك الحجج النيّرة القيمة بلا وحي إلهي.

ثالثاً: إعجازه من وجهة الاستقامة والسلامة من الاختلاف والتناقض.

رابعاً: إعجازه من وجهة التشريع العادل ونظام المدنية.

خامساً: إعجازه من وجهة الأخلاق.

سادساً: إعجازه من وجهة علم الغيب.

١١ـ نفي التحريف

تحدّث الامام البلاغي في الفصل الثاني من مقدّمته وبعض موارد تفسيره عن هذا الموضوع بإسهاب، وهدفه من هذا البحث هو تفنيد ما ذهب إليه البعض من توهّم وقوع التحريف فى كتاب اللّه، استناداً إلى روايات غير معتبرة، ودفع كلّ ما الصق بجلال وكرامة القرآن الكريم من زعم التلاعب أو النقص أو الزيادة أو وقوع التحريف بشتّى صوره، وهذا هو دأب البلاغي في جميع ما صنّفه للدفاع عن الدين الحقّ، ويمكن تلخيص رأية في نفي التحريف بمايلي:

أ: العناية الفائقة والاهتمام المتواصل بكلام اللّه المجيد من قبل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة المتّقين، بشكل لم يسبق له مثيل في الكتب السماوية السابقة، فكان كلّما نزل شيء هفت إليه قلوب المسلمين وانشرحت له صدورهم وهبوا إلى حفظه بما امتازوا به من قوّة حافظة فطرية، وكان شعار الإسلام وسمة المسلم حينئذ هو التجمّل والتكمّل بحفظ القرآن الكريم، واستمرّ المسلمون على ذلك حتى صاروا في زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعدّون بالألوف وعشراتها ومئاتها، وكلّهم من حَمَلَة القرآن وحُفّاظه،

وقد دونوا مادّته بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى دارالكرامة في مصحف واحد.

ب: لم يتّفق لأمر تاريخي من التواتر وبَدَاهة البقاء مثل ما اتّفق للقرآن الكريم، كما وعد الله جلّت آلاؤه بقوله في سورة الحجر: «انّا نَحن نَزّلنَا الذّكرَ وَإنّا لَهُ لحَافظُونَ»(١٣٨) وقوله في سورة القيامة: «إنَّ عَلَيْنَا جَمعَهُ وَقُرآنَهُ» وهكذا تواتر القرآن الكريم بين المسلمين جيلاً بعد جيل، ولاتزال المصاحف ينسخ بعضها على بعض، والمسلمون يقرأ بعضهم على بعض ويسمع بعضهم من بعض، فالمصاحف رقيبة على الحُفّاظ، والحُفّاظ رقباء على المصاحف، وكلا القسمين رقيبان على المتجدّد منهما.

جـ: انّ الأخبار التي توهم وجود التحريف في كتاب الله ساقطة عن الاعتبار، لاضطرابها ووهنها وضعف رواتها، ولكونها من الشواذ التي لايعبأ بها، ولمخالفتها للمسلمين وما جاءت به في مروياتها الواهية من الوهن والتناقض، وما ألصقته بكرامة القرآن الكريم ممّا ليس له شبه به.

وقد أورد الامام البلاغي جملة من هذه الروايات، وكشف مافيها من التدافع والتناقض والاضطراب،(١٣٩) ومخالفتها لقواعد اللغة وأسلوب القرآن الكريم، مقارناً بين بلاغته السامية وبين انحطاط هذه الروايات وتهافتها، ممّا يدعها مهزلةً لاتنسجم مع مجد القرآن وكرامته.

د: حمل الروايات التي توهم النقص في القرآن الكريم على التفسير والتأويل والبيان للمراد في وحي القرآن الكريم، وعلى هذه الوجوه يحمل ماورد في الروايات من أنّه تنزيل وأنّه نزل به جبرئيل، أو يكون التفسير والبيان جاء به جبرئيل من عند الله بعنوان الوحي المعلق لا القرآن، وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحيٌ يوحى، كما يحمل التحريف فيها على أنّه تحريف للمعنى، ويشهد لذلك مكاتبة أبي جعفر عليه السّلام لسعد الخير كما في(روضة الكافي) وفيها: وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه، وحرّفوا حدوده.(١٤٠)

ومن الروايات التي حملها على التحريف بالمعنى ماروى مرسلاً في تفسيري النعماني وسعد من أنّ الآية: «وَجَعَلنَاكم أُمَّةً وَسَطَاً»(١٤١) هي«وجعلناكم أئمة وسطاً»(١٤٢) فالتحريف هنا للمعنى، وأن المراد من اللفظ الثاني هو تفسير وبيان اللفظ الأول، الذي هو لفظ التنزيل، كأنّه يقول إنّ هذا المعنى هو المراد في التنزيل.

هـ: نقل أقوال مجموعة كبيرة من علمائنا القدامى والمحدثين وفتاواهم، والتي تنفي وجود النقيصة أو الزيادة أو التحريف في القرآن الكريم، ننقل منها ثلاثة أقوال:

أولاً: الشيخ الصدوق المتوفّى سنة ٣٨١هـ: اعتقادنا أنّ القرآن الذي أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم هو مابين الدّفتين، وليس بأكثر من ذلك، ومن نَسَبَ إلينا أنّا نقول إنّه أكثر من ذلك فهو كاذب.(١٤٣)

ثانياً: الشيخ المفيد المتوفّى سنة ٤١٣هـ: قال جماعة من أهل الامامة إنّه -أي القرآن الكريم- لم ينقص من كلمه ولامن آيه سورة، ولكن حذف ماكان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين عليه السّلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله.(١٤٤)

ثالثاً: الشيخ الطوسي، المتوفى سنة ٤٦٠هـ: أمّا الكلام في زيادته ونقصانه فممّا لايليق به أيضاً، لأنّ الزيادة فيه مجمع على بطلانها، والنقصان منه، فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى رحمه الله، وهو الظاهر في الروايات، غير أنّه رويت روايات كثيرة، من جهة الخاصّة والعامّة، بنقصان كثير من أي القرآن، ونقل شيء منه عن موضع إلى موضع، طريقها الآحاد التي لاتوجب علماً ولاعملاً والأولى الاعراض عنها.(١٤٥)

١٢- تبنّي الدفاع عن المبادىء والعقائد الإسلامية السامية:

هذا المبدأ هو السمة الغالبة التي تطغى على جميع ماتركه إمامنا البلاغي رحمه الله من آثار، بضمنها هذا التفسير المبارك، حيث نجده لايتوانى في كلّ سطر من سطوره، بل وفي كلّ كلمة من الذبّ عن أصول الاسلام وعقائده ومبادئ الحقّ التي جاء بها كتاب الله العزيز، ونحن هنا نقدّم بعض الأمثله من هذا التفسير لتكون مصداقاً لكلامنا.

أ: في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يُؤتي الحكمةَ مَن يَشَاءُ﴾ البقرة: ٢٦٩ وبعد أن أورد الروايات الواردة في تفسير هذه الآية قال: (ومن المؤلم والمؤسف أن اسم الحكمة شاع استعماله «مثلما سمّي اللديغ سليماً» بالفلسفة اليونانية ومنها مزاعم العقول العشرة، تلك المزاعم التي جَحَدَت مقام الله الجليل في الإلهية، بنحو لم تجرؤ عليه الوثنية، بل هي عبارة مموّهة عن الطبيعة، إذ لم تسمح لله إلا بأنّه علل العقل الأوّل

بالتعليل الطبيعي بلا إرادة منه ولا اختيار، فلا إرادة، ولاخلق، ولامشيئة له أيضاً في غير العقل الأوّل من الموجودات، ولاسنخيّة، ولاربط، خلافاً لدلالة العقل والقرآن الكريم على أنّ الله خالق الخلق بمشيئته، وأنّ العالم صادر عن خلق وإرادة، وأنّ التشبّثات لهذه المزاعم مردودة بالحلّ والنّقض، ولزوم التناقض، وسخافة ابتنائها في عدد العقول على موهومات الهيئة القديمة في الأفلاك. وحصر عددها بالتسع، وقد أشير إلى شيء من ذلك في(فصول العقائد) لنصير الدين الطوسي قدّس سرّه، وآخر الجزء الثاني من(المدرسة السيّارة) ومع هذا كلّه يسمّى القائلون بمزاعم العقول بالعرفاء وأهل الوصول والمكاشفات «مثلما سُمّي اللديغ سليماً» تعالى الله عمّا يقولون.(١٤٦)

ب: في تفسيره لقوله تعالى: «الّذي خَلَقَكُم من نَفس وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ منهَا زَوجَهَا»(١٤٧) يقول: (هو آدم أبوالبشر... وقد تكرّر في القرآن أنّ أوّل هذا البشر الموجود والمسمّى بالانسان هو آدم عليه السّلام(١٤٨) ـ ثمّ أورد سبع آيات للدلالة على ذلك وعلى أنّ خلق الانسان يرتبط بخلقة آدم من الطين ـ وقال: وفي«تفسير المنار» نقل عن استاذه عدّة جمل.

الاولى منها: ليس المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السّلام بالنّص ولا بالظاهر. ويردّها أنّ ذلك معلوم ممّا تقدّم من الآيات وغيرها ومتواتر الحديث وإجماع المسلمين.

الثانية: والقرينة على انّه ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم قوله: «وَبَثَّ منهَا رِجَالاً وَنسَاءً» بالتنكير، وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول: وبَثَّ منها جميع الرجال والنساء، ويردها مع ماذكرناه من أسباب العلم أنّ المناسبة لاتنحصر بما اقترحه، فإنّ هذا المعنى ـ أي بثّ جميع الناس من آدم ـ قد تقدّم بقوله تعالى في خطاب الناس: «خَلَقَكُم من نَفس وَاحدَة» وما أشرنا إليه من السور السبع، ولم يتعلّق الغرض هنا بتأكيد ما تقدم بما اقترحه، بل الغرض بيان معنى تأسيسي، وهو حال الخلق للناس في التدرج من خلق النفس الواحدة، إلى خلق زوجها، إلى بثّ الكثير من نسلهما، الذي خلق الناس منه بالتناسل التدريجي.

الثالثة: في مراعاته لما يزعمه أهل الصين في نسبة البشر إلى أب آخر، ويذهبون بتاريخه إلى زمن بعيد، وأنّ من الناس من لايعرفون آدم ولاحواء ولم يسمعوا بهما، وفي حذره من أن يثبت مايقوله الباحثون من الافرنج من أنّ لكل

صنف من أصناف البشر أباً. [149]

أقــول: ومن العــجــيب أن تنبــذُ المعلومـات الاسلاميـة من القـرآن الكريم والحديث المتواتر والاجماع ظهرياً لأجل زعم أهل الصـيـن، أو حــذراً من الآراء الجديدة، كتسلسل الأنواع والتولّد الذاتي كما أحدثه داروين). [150]

جـ ـ نفي التجسيم:

ردّ الامام البلاغي في المقام الثاني من الفـصل الرابع من فـصـول المقـدّمـة على الفرقة الظاهرية، [151] الذين لم يلتفتوا إلى المجاز الواضح في بعض آي القـرآن، إذ توهّموا فيها التشبيه، ولم يصرفهم عن المعاني الحقيقية لهذه الألفاظ ضرورة العلم من القرآن والبراهين القطعية في أنّ الله منزّه عن الجـسـم والأين والمكـان، ونورد هنا مثالين من هذا التفسير تؤيّد ماقلنا:

أولاً: في تفـسـيـره لقـوله تعـالى: «الرّحمنُ على العَرش استَوَى» طه: ٥ والذى أورده في المقدّمة كمثال للردّ على الفرقة الظاهرية قال: (العرش هنا هو شان القدرة والجلال واستيلاء السلطان على الملكوت في الأزل والأبد). [152]

ثانياً: في تفسيره لقوله تعالى: «وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ والأرضَ» [153] يقـول: (وفي الدّر المنثور) ذكر جماعة أخرجوه عن ابن عباس، وذكر جماعة أخرجوه عن أبي موسى الأشعري، قال: الكرسي موضع القدمين وله أطيط كأطيط الرَّحل. [154]

وجماعة أخرجوه عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المقام المحمود، قال: ذلك يوم ينزل الله على كرسيه يئطّ منه، كما يئطُّ الرّحل الجديد من تضايقه. [155]

وجماعة أخرجوا عن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: إنّ كرسيه وسع السـمـاوات والأرض، وإنّ له أطيطاً كـأطيط الرّحل الجديد، إذا ركب من ثقله مايفضل منه أربع أصابع. [156]

هذا، ولمّا بين اللّه جل شأنه أنّ له ما في السماوات والأرض شاء أن يبيّن إحاطة علمه وسلطة تدبيره بجميع ماهوله وملكه، فناسب التقريب لإدراكنا القاصر بالتمثيل بالجسمانيات المألوفة لنا، فشبّه الاحاطة والسلطة بما لو كانت بحسب التخييل في كرسي الملكَ. وعلى ذلك جرى تعبير الأئمّة عليهم السّلام في السماوات والأرض أنّها في الكرسي)، [157]

د ـ ردّ البلاغي جميع الوجوه التي تمسك بها الأشاعرة، والتي تحامل بها ابن المنير في تعليقته على(تفسير الكشاف) في الجبر والاختيار، ونسبة صدور القبيح وغير

ذلك، عند تفسير الآية(٦) من سورة البقرة حيث يقول: (غير خفي أنّ مذهب العدلية من الإمامية والمعتزلة هو أنّه يمتنع على جلال الله القدوس الكامل الغني أن يمنع الانسان بالالجاء عن قبول الايمان، أو يلجئه إلى الكفر، أو يكون هو الخالق للكفر فيه: فضلاً عن أن يلومه ويعاقبه مع ذلك عليه، فإنّ ذلك كلّه قبيح عقلاً كما هو من البديهيّات الفطرية، ومن البديهي أنّ القبيح ممتنع الصدور من الله الغنّي القدّوس، وأنّ الله عزّوجلّ قد مجّد قدسه في القرآن الكريم بالنزاهة عمّا هو دون ذلك في القبح، ووبّخ الناس على أعمال السوء). [158]

١٣ـ القول بخلق القرآن:

أفرد الامام البلاغي عنواناً بخلق القرآن بعد تفسيره للبسملة من فاتحة الكتاب، قال فيه: (وإن لوحي الله بالسور إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بداية ونهاية، كما للسور، كما قال الله تعالى في سورة الأحقاف في شأن القرآن «وَمن قَبله كتَابُ مُوسى» [159] ودع عنك أنّ القرآن الكريم كلام مؤلف من الحروف والكلمات، ولابُدّ من أن يكون لها ولتأليفها بداية ونهاية، ولابُدّ من أن يكون له علّة في إيجاده ووجوده، لأنّه ليس بواجب الوجود، فإنّ واجب الوجود واحد هو الله تعالى. وليست علّة وجود الموحى منه إلا خلق الله خالق كلّ شيء، قال الله في سورة الزخرف: «إنَّا جَعَلنَاهُ قرآنا عَرَبيّاً» [160] والجعل هو الخلق، وكلّ مجعول ومخلوق له بداية». [161]

هذا هو بعض ما استوقفنا في(آلاء الرحمن) والحقّ انّ كلّ شيء فيه يستوقف، تاركين لمن يريد التوسّع في البحث عن شخصيّة الامام البلاغي من خلال تفسيره المزيد ممّا يستحقّ الدراسة والاستقصاء سيّما فى مجال الفقه المقارن وطريقته في تفسير آيات الأحكام وعرض الآراء الفقهية، والانتصار لمذهب أهل البيت عليهم السّلام، وتفسير القرآن بالقرآن وغيرها.

نداء

الرسالة الأخيرة التي كتبها الامام البلاغي رحمه الله قبل وفاته بـ١٣ يوماً، في ٩ شعبان ١٣٥٣هـ تتضمّن نداءً إلى المتصدّين لعلم التفسير وعلوم القرآن الكريم حيث يقول: (مولاي، أقدمت على كتابته راجياً من الله أن ينبّه الأمّة من غفلاتها، فيكتبوا خيراً منه، الا ترى انّ أهل العلم قد أهملوا مايعنيهم ويلزمهم في هذا العصر التعيس). [162]

فهـذا هو (آلاء الرحمن) يضيء الطريق بأشعّته الوضّاءة للمعنيّين بتفسير القرآن، وينبض وراءه وبين سطوره قلب مخلص، تفهّم كتاب اللّه بما يمتّ إلى روحه ومعناه، خالصاً ممّا جاوره من تأويلات وإسرائيليات وخرافات، لأجل الحفاظ على جماله وقدسه وجلاله.

ويبقى (آلاء الرحمن) تجربة ناضجة ناجحة على طريق تفسير القرآن الكريم، فهي أحقّ بأن نقتدى وتحتذى.

الهوامش:

(١) انظر آلاء الرحمن ١ : ١٣٤، ٢٢٥، ٢٦٤، ٢٧٤.

(٢) انظر آلاء الرحمن ١ : ٢٦٠.

(٣)و (٤)و (٥) البقرة: ٢ وانظر الكشاف ١ : ٣٥، التفسير الكبير ٢ : ١٩، التبيان في إعراب القرآن ١ : ١٥.

(٦) الاعراف: ٥٢، النحل: ٦٤، ٨٩.

(٧) البقرة: ١٨٥.

(٨) آل عمران: ٣.

(٩) النمل: ٧٧.

(١٠) فصلت: ٤٤.

(١١) آلاء الرحمن ١ : ٤٧.

(١٢) المائدة: ٣.

(١٣) الحج: ٢٨

(١٤) المزمّل: ٨.

(١٥) الدهر: ٢٥.

(١٦) الاعلى: ١.

(١٧) السجدة: ٧.

(١٨) الأنبياء: ١٠٤.

(١٩) آلاء الرحمن ١ : ٥٢.

(٢٠) آل عمران: ١٨.

(٢١) تفسير التبيان ٢ : ٢١٦.

(٢٢) الكشاف ١ : ٤١٦.

(٢٣) آلاء الرحمن ١ : ٢٦٤.

(٢٤) آل عمران: ١١٠.

(٢٥) (٢٦)(٢٧) الدر المنثور ٢ : ٢٩٣، المستدرك ٢ : ٢٩٤، تفسير الطبري ٤ : ٢٩.

(٢٨) حقائق التأويل: ٣٤٣.

(٢٩) يضرب المثل لمن تبدلّت حاله وصار يفتخر بما مضى وفقده من صفاته ويسمّونه «كنتيّا»، وكذا من أعجزه الهرم فصار يفتخر بأمواله في شبابه، ويقول: كنت كذا وكنت كذا «من المؤلف رحمة اللّه».

(٣٠) النساء: ١٤٨.

(٣١) البقرة: ٢٨٠.

(٣٢) البقرة: ١٢٧.

(٣٣) آلاء الرحمن ١ : ٣٢٨ـ٣٢٩.

(٣٤) آل عمران: ١٤٦.

(٣٥) مغني اللبيب ١ : ٢٤٦، شرح الكافية ٢ : ٩٤.

(٣٦) مجمع البيان ٢ : ٨٥٣.

(٣٧) تفسير التبيان ٣ : ١٠.

(٣٨) يوسف: ١٠٥.

(٣٩) الحج: ٤٥و٤٨.

(٤٠) العنكبوت: ٦٠.

(٤١) محمّد: ١٣.

(٤٢) الطلاق: ٨.

(٤٣) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، شاعر النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، أحد المخضرمين، توفّي سنة ٥٤هـ. تهذيب التهذيب ٢ : ٢٤٧، الاصابة ٢ : ٨، شرح شواهد المغني ١ : ٣٣، ٣٧٩و ٢ : ٨٥٢.

(٤٤) الديوان: ١٠٧ ، والمراد بقوله «من سر عمرو» أي من خيارهم.
(٤٥) آلاء الرحمن ١ : ٣٥٣.
(٤٦) النساء: ٢٦.
(٤٧) الكشاف ١ : ٥٠١.
(٤٨) المائدة: ٦.
(٤٩) التوبة: ٥٥.
(٥٠) الأحزاب: ٣٣.
(٥١) القيامة: ٥.
(٥٢) مجمع البيان ٣: ٥٧، ذيل أمالي القالي: ١١٩.
(٥٣) يوسف: ٤٣.
(٥٤) تفسير التبيان ٣: ١٧٤ ، مجمع البيان ٣: ٥٧.
(٥٥) مغني اللبيب ١ : ٢١٦.
(٥٦) الأنعام: ٧١، وانظر تفسير التبيان ٣: ١٧٤ ، مجمع البيان ٣: ٥٧، شرح الكافية ٢: ٣٢٩، وتفسير الرازي ١٠: ٦٦.
(٥٧) إعراب القرآن لنحّاس ١: ٣٤٨، تفسير التبيان ٣: ١٧٤ ، مجمع البيان ٣: ٥٧.
(٥٨) تفسير التبيان ٣: ١٧٣ ، مجمع البيان ٣: ٥٦.
(٥٩) الزمر: ١٢.
(٦٠) آلاء الرحمن ٢: ٩٥ ـ ٩٦.
(٦١) آلاء الرحمن ١ : ٣٩.
(٦٢) آل عمران : ٥٤.
(٦٣) الصحاح ٢: ٨١٩، لسان العرب ٥: ١٨٣ ، القاموس المحيط ٢: ١٤١.
(٦٤) البقرة: ١٩٤.
(٦٥) تفسير التبيان ٢: ٤٧٦.
(٦٦) مجمع البيان ٢ : ٧٥٨.
(٦٧) الأعراف: ٩٩.
(٦٨) الأنفال: ٣٠.
(٦٩) مصباح المتهجد: ٥٢٤.
(٧٠) النهاية ٣: ٣٤٩.
(٧١) عيون أخبار الرضا ١ : ١٢٦/ ١٩.
(٧٢) آلاء الرحمن ١ :٢٧٨.
(٧٣) البقرة: ١٨٢.
(٧٤) مجمع البيان ١ : ٢٨٥.
(٧٥) الكافي ٧: ٢٠/ ١و ٢١/ ٢.
(٧٦) من لايحضره الفقيه ٤: ١٤٨/ ٥١٥.
(٧٧) تفسير الطبري ٢: ٧٢.
(٧٨) آلاء الرحمن ١: ١٥٥ - ١٥٦.
(٧٩) البقرة: ٢٠٣.
(٨٠) كنز العرفان ١ : ٣٢٠، زبدة البيان: ٢٨٢.
(٨١)(٨٢) جواهر الكلام ٢٠: ٣٦.
(٨٣) الكافي ٤: ٥٢١/ ١١، التهذيب ٥: ٢٧٢/ ٩٣١ و٢٧٣/ ٩٣٣.
(٨٤) الدر المنثور ١ : ٥٦٦.
(٨٥) آلاء الرحمن ١ : ١٨٢ - ١٨٣.
(٨٦) الدر المنثور ٢: ١٧٠، مجمع البيان ٢: ٧٢٢.
(٨٧) الدر المنثور ٢: ١٧٠.
(٨٨) كما في الفصل الخامس عشر من سفر التكوين عدد ١٣ - ٥١ «من المفسر رحمه الله».
(٨٩) الهدى إلى دين المصطفى ٢: ٢٤ - ٢٩.
(٩٠) مجمع البيان ٢: ٧٢٢.
(٩١) آلاء الرحمن ١ : ٢٦٨ - ٢٦٩.
(٩٢) آل عمران: ٧٢.
(٩٣) تفسير القمي ١: ١٠٥.
(٩٤) آلاء الرحمن ١: ٢٩٨.
(٩٥) البقرة: ٢٨٠.
(٩٦) تفسير التبيان ٢: ٣٦٨، مجمع البيان ٢: ٦٧٦.
(٩٧) الدر المنثور ٢: ١١٢.
(٩٨) آلاء الرحمن ١: ٢٤٦.
(٩٩) آل عمران: ١٥٢.
(١٠٠) تفسير التبيان ٣: ١٨.
(١٠١) مجمع البيان ٢: ٨٥٩.
(١٠٢) الدر المنثور ٢: ٣٤٣ -٣٤٥.
(١٠٣) آلاء الرحمن ١ : ٣٥٧.
(١٠٤) تفسير الطبري ١: ٢٤.
(١٠٥) تفسير الطبري ١ : ٢٦، كنز العمال ٢: ٥٥/ ٣٠٩٧.
(١٠٦) كنز العمال ٢: ٦٦/ ٢٩٥٦.
(١٠٧) مسند أحمد ٥: ٤١.
(١٠٨) انظر مسند أحمد ٥: ٥١، ١٢٤ ، كنز العمال ٢:

۶۰/۳۰۷۵، الاتقان ۱ : ۱۶۸ ، سنن أبي داود ۲ :
۷۶/۱۴۷۷ ، تفسير الطبري ۱ : ۵۱ .
(۱۰۹) كنز العمال ۲ : ۵۹۱/ ۴۸۰۲ .
(۱۱۰) كنز العمال ۲ : ۶۰۹/ ۴۸۷۶ ،
والاية من سورة الحمد : ۴ .
(۱۱۱) سنن أبي داود ۴ : ۳۷/ ۴۰۰۰ ، الدر المنثور ۱ : ۳۶.
(۱۱۲) الكافي ۲ : ۴۶۲/۲۳ .
(۱۱۳) الكافي ۲ : ۴۶۱/۱۲ .
(۱۱۴) اعتقادات الصدوق : ۹۴ .
(۱۱۵) الكافي ۲ : ۴۶۱/۱۳ .
(۱۱۶) انظر تفصيل ذلك في آلاء الرحمن ۱ : ۲۹ - ۳۲ .
(۱۱۷) آلاء الرحمن ۱ : ۲۸۴ .
(۱۱۸) البرسام - بفتح الباء وكسرها - التهاب يعرض للحجاب الذي بين القلب والكبد ، ويتعرض المصاب به للهذيان .
(۱۱۹) آلاء الرحمن ۱ : ۹ - ۱۰ .
(۱۲۰) آلاء الرحمن ۱ : ۱۶ .
(۱۲۱) آل عمران : ۲۳ .
(۱۲۲) آلاء الرحمن ۱ : ۲۶۷ - ۲۶۸ .
(۱۲۳) آلاء الرحمن ۱ : ۱۵ .
(۱۲۴) آلاء الرحمن ۱ : ۲۲۳ .
(۱۲۵) آلاء الرحمن ۱ : ۳۰۲.
(۱۲۶) آل عمران : ۱۳۵
(۱۲۷) آلاء الرحمن ۱ : ۳۴۴.
(۱۲۸) آل عمران : ۶۴.
(۱۲۹) آلاء الرحمن ۱ : ۲۹۵ .
(۱۳۰) البقرة : ۱۰۴ .
(۱۳۱) آلاء الرحمن ۱ : ۱۱۳ .
(۱۳۲) آل عمران : ۲۷ ، آلاء الرحمن ۱ : ۲۷۱ .
(۱۳۳) البقرة : ۱۶۴ ، آلاء الرحمن ۱ : ۱۴۳ .
(۱۳۴) آلاء الرحمن ۱ : ۴۸ .
(۱۳۵) البقرة : ۲۴۸ ، آلاء الرحمن ۱ : ۲۲۲ .
(۱۳۶) آلاء الرحمن ۱ : ۲۲۳ .
(۱۳۷) البقرة : ۲۴۶ ، آلاء الرحمن ۱ : ۲۲۰ .
(۱۳۸) الحجر : ۹۱ .
(۱۳۹) آلاء الرحمن ۱ : ۱۹ - ۲۰ .
(۱۴۰) الكافي ۸ : ۵۳/ ۱۶ .
(۱۴۱) البقرة : ۱۴۳ .
(۱۴۲) المحكم والمتشابه : ۳۷، بحار الأنوار ۹۲ : ۶۱ .
(۱۴۳) اعتقادات الصدوق : ۹۳ .
(۱۴۴) أوائل المقالات : ۵۵ .
(۱۴۵) تفسير التبيان ۱ : ۳ .
(۱۴۶) آلاء الرحمن ۱ : ۲۳۷ .
(۱۴۷) النساء : ۱ .
(۱۴۸) هي : الاية ۷ و۸ من سورة السجدة، و۳۰ - ۳۳ من سورة البقرة، و ۲۸ - ۳۱ من سورة الحجر، و۷۱ - ۷۸ من سورة ص، و۲ من سورة الأنعام، و۱۱ من سورة الصافات، ۱۴ من سورة الرحمن .
(۱۴۹) تفسير المنار ۴ : ۳۲۳ .
(۱۵۰) آلاء الرحمن ۲ : ۴ .
(۱۵۱) وهم أصحاب أبي سليمان داود الظاهري، من أئمة السنة والجماعة، ولد بالكوفة ونشأ ببغداد، وتوفي بها سنة سبعين ومائتين هـ، لقب بالظاهري لقوله بأخذ معنى القرآن والحديث الظاهر دون الباطن .
(۱۵۲) آلاء الرحمن ۱ : ۴۲ .
(۱۵۳) البقرة : ۲۵۵.
(۱۵۴) الأطيط : صوت الأقتاب، واطيط الرحل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه وعجزه عن احتماله .
(۱۵۵) الدر المنثور ۲ : ۱۸ .
(۱۵۶) الدر المنثور ۲ : ۱۷ .
(۱۵۷) آلاء الرحمن ۱ : ۲۲۸ .
(۱۵۸) آلاء الرحمن ۱ : ۶۶.
(۱۵۹) الأحقاف : ۱۲ .
(۱۶۰) الزخرف : ۳ .
(۱۶۱) آلاء الرحمن ۱ : ۵۲.
(۱۶۲) أعيان الشيعة ۴ : ۲۶۱ .

الاشاعة: رؤية قرآنيّة(١)
إشارات موحية في الحرب النفسية: معركة أحد نموذجاً

الأستاذ حسن السعيد

منذ انطلاقتها الأولى، تعرضت الدعوة الاسلامية الى حملات دعائية مضللة، والى حرب نفسية مخرّبة... من قبل المشركين في مكة، والمنافقين واليهود في المدينة وما حولها، كما تتعرض الأمة الاسلامية ـــ اليوم ـــ الى الحملات الدعائية المضللة، والحرب الهدّامة[١]. وتأتي الاشاعات والأكاذيب والأراجيف في مقدمة المخطط.

فما أشبه الليلة بالبارحة!.

وما أشبه الأساليب الملتوية التي يقوم بها مرجفو اليوم بأساليب مرجفي الأمس!.

هنا محاولة لتسليط الضوء على الأشاعة... وكيف تعامل معها القرآن، في واحدة من محطات تاريخ الاسلام.

ظاهرة اجتماعية قديمة:

الاشاعة (أو الشائعة) Rumeur ظاهرة اجتماعية بالغة الأهمية، ويضاعف من هذه الأهمية شيوعها في كل زمان ومكان، وأنها مسلك مألوف من مسالك الجماعات... وتعتبر الشائعات وسيلة مؤثرة من وسائل الدعاية السوداء، وأداة رئيسية من أدواتها، لأنها تعمل على بث الذعر، والكراهية وتحطيم الروح المعنوية، واثارة عواطف الجماهير، وبلبلة أفكارهم، وخاصة في أوقات الحروب والأزمات، حيث يستولي على الناس الخوف والرعب[٢].

وفي ضوء هذا، فالاشاعة سلاح من أسلحة الحرب النفسية، يتمثل في خبر مدسوس كليّاً أو جزئياً، وينتقل شفهياً أو عبر وسائل الاعلام دون أن يرافقه أي دليل أو برهان، ويقصد به تحطيم المعنويات[٣].

فمنذ أقدم العصور عرف الانسان الحرب النفسية، وأثرها التخريبي في تماسك الشعوب والأمم والجماعات والأفراد، خصوصاً في حالة الحروب والأزمات والتحولات الاجتماعية والأحداث الجديدة، فاستخدمها كسلاح هدّام في صراعه الفكري والعسكري والسياسي والاقتصادي... الخ[٤]. وقد وجدت الاشاعة حيث وجدت المجتمعات البشرية، وتطورت مع تطور المجتمع، وتبلورت في ظل كل حضارة وثقافة، فأخذت أشكالاً متنوعة، وقد لعبت الاشاعة دوراً في التاريخ، فادّت مثلاً الى موت سقراط بتهمة تحريض الشبان في أثينا على التمرد والعصيان[٥] ويقول البورت وبوستمان في كتابهما عن سيكولوجية الاشاعة أن أباطرة الرومان كانوا يعانون من الاشاعات التي تنتشر بين سكان المدن والقرى... من أجل ذلك قام كثير من هؤلاء الأباطرة باستخدام حرّاس الاشاعات للاختلاط بالناس وتجميع الاشاعات التي يتناقلونها، وابلاغها للامبراطور فضلاً عن اطلاق الاشاعات المضادة[٦].

وقامت الحروب، في القرون الوسطى، نتيجة للمغالاة في رواية قصص المعجزات والجرائم والأسلاب. وكان لها دور في التعبئة النفسية في اوربا إبّان الحروب الصليبية. ومن الأمثلة التاريخية ذات الدلالات، الاشاعة التي ساعدت على اندلاع الثورة الهندية ضد بريطانيا عام ١٨٥٧. فلقد كان الجنود الهنود العاملون في جيش الهند البريطاني يستخدمون بنادق تملأ من فوهة السبطانة (الماسورة)، وكان عليهم خلال الرمي أن ينزعوا بأسنانهم الورق المشحّم من طرف كل خرطوشة، حتى يسقط البارود في سبطانة البندقية، قبل وضع المقذوف في مكانه، واعتمدت الاشاعة التحريضية على هذا الأمر، إذ انتشرت بين الجنود المسلمين اشاعة تقول بأن الشحم المستخدم هو شحم خنزير، وخيّل للهندوس بأنه شحم بقر، وقد حاول الانكليز وقتذاك اقناع الجنود بالقيام بأنفسهم بتشحيم ورق الخرطوش بالسمن النباتي[٧].

تزايد دورها في العصر الحديث:

وفي العصر الحديث تطورت أساليب الاشاعة، وكانت فترة الحرب العالمية الثانية مسرحاً مكثفاً لانتشار الشائعات على نطاق واسع، خاصة وأنها أُستخدمت كسلاح ذي

حدين: للاقناع والاستفزاز.

ولهذا نجد أن موضوع الاشاعة من المواضيع التي اهتم بها علم النفس، منذ الحرب العالمية الثانية. فلقد لاحظ علماء النفس والمهتمون بالحروب النفسية أن الاشاعة وسيلة هامة من وسائل الحرب النفسية يفيد منها العدو الذي يوعز الى عملائه ببث الاشاعات التي تبلبل نفسيّة الجماهير وتفقدها ثقتها بحكومتها وتشككها بجيشها وقواتها المحاربة. ولذلك عكف علماء النفس على درس الاشاعات وعوامل انتشارها وما يحدث لها منذ أن تُطلق الى أن تنتشر (٨).

وقد أولت مدارس الدعاية السياسية الاشاعة اهتمامها الكبير، وهذا غوبلز ـ مهندس الدعاية الهتلرية ـ نموذج شاخص، في هذا الاتجاه. إذ كان يجمع الشائعات المتجولة بصورة منهجيّة، وينظم دعاية مضادة لتحييدها، سواء من خلال الاتصال الكلامي، أم من حلال الصحافة المطبوعة والراديو والسينما، أو أنه كان يلجأ الى «شهود» أجانب، وهم عموماً من المحررين المحابين. وكما هو الأمر بالنسبة للنبوءات والتنبؤات والتنجيم لم يكن غوبلز يتردد في اعطاء تلك الشعوذات تفسيراً رسمياً ملائماً لخطط الرايخ. هناك مثال متميز حول مهارته في هذا المجال: في نهاية صيف ١٩٤٣، انتشرت شائعة حول اعدام عدد من كبار شخصيات النظام، وعمد غوبلز الى المزايدة على هذه الشائعة، فاعطى أمراً لقطاعاته المتخصصة بنشر شائعة مفادها أن هيملر نفسه قد اعتقل وأعدم. وهذا ما أحدث انفعالاً كبيراً وفي اللحظة المناسبة، عاد هيملر الى الظهور في كل مكان، مما أدّى كضربة مقابلة، الى تدمير مجمل الشائعات التي انتشرت حول هذا الموضوع. كان الأمر يكمن في تحطيم شائعة كاذبة من خلال شائعة أخرى تفوقها كذباً، ولكن من الممكن اثبات أنها عارية عن الصحة (٩).

قبال ذلك، كانت أجهزة الحلفاء تقوم بدعاية سياسية مضادة، ولجأت في معركتها ضد الخصم الى اسلوب تحليل الوسائل والخدع التي تلجأ اليها الدعاية السياسية المعادية وفضحها أمام الجمهور، وهذا ما سعى إليه «معهد تحليل الدعاية السياسية» Institute For Propaganda Analysis في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الفترة الممتدة بين عام ١٩٣٧ وعام ١٩٣٩. وحاول هذا المعهد

أن يحصّن الجمهور ضد كل نوع من أنواع الدعاية السياسية معلمّاً اياه كشف الخدع الرئيسية التي يلجأ اليها الخصم. كذلك انشأ صحفي أمريكي، خلال الحرب العالمية الثانية، زاوية أطلق عليها اسم «عيادة الشائعة» حيث لم يكن يكتفي بتكذيب الأنباء المزيفّة التي تُسيء الى معنويات السكان، بل كان يقوم أيضاً بتحليل نفسي لهذه الشائعات بغية كشف العوامل التي ولّدتها وسهّلت تداولها(١٠).

ما هي الاشاعة؟

الاشاعة، أو الشائعة معناهما واحد... فقد جاء في المعجم الوسيط أن (الشائعة: الخبر ينتشر ولا تثبّت فيه) و(الاشاعة: الخبر ينتشر غير متثبّت منه)(١١).

يقول ابن منظور: «شاع الشيب: ظهر وتفرّق. وشاع الخبر في الناس شَيْعاً وشَيَعاناً...، فهو شائع: انتشر وافترق وذاع وظهر. وأشاع ذِكرَ الشيء: أطاره وأظهره. وقولهم: هذا خبر شائع وقد شاع في الناس، معناه قد اتصل بكل أحد فاستوى علم الناس به ولم يكن علمه عند بعضهم دون بعض. والشاعةُ: الأخبار المنتشرة وفي الحديث: أيمّا رجل أشاع على رجل عوْرة ليشينه بها أي أظهر عليه ما يعيبه.

وأشعتُ السرّ وشِعْتُ به إذا أذعتَ به... ورجل مِشْياع أي مذياع لا يكتم سراً(١٢)

والى هذا المعنى أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به﴾**(١٣).

والشائعه أيضاً هي: «معلومة لا يتحقق من صحتها، ولا من مصدرها، تنتشر عن طريق النقل الشفوي» كما ورد في قاموس موريس.

ويعرفها الدكتور مختار حمزه بقوله: «الاشاعات هي الأحاديث والأقوال والأخبار والروايات التي يتناقلها الناس دون تأكد من صحتها، ودون التحقق من صدقها. ويميل كثير من الناس الى تصديق كل ما يسمعونه دون محاولة للتأكد من صحته، ثم يأخذون يروون بدورهم الى الغير. وقد يضيفون إليه بعض التفصيلات الجديدة، وقد يتحمسون لما يرونه، ويدافعون عنه بحيث لا يدعون السامع يتشكك في صدق ما يقولون.

والشائعة ـ كما يقول الدكتور ابراهيم امام ـ: «تقوم على أساس انتزاع بعض الأخبار أو المعلومات ومعالجتها بالمبالغة، والتأكيد أحياناً، وبالحذف والتهوين أحياناً

أخرى، ثم القاء ضوء باهر على معالم محددة، تجسّم بطريقة انفعالية وتصاغ صياغة معينة، بحيث يتيسر للجماهير فهمها. ويسهل سريانها، واستساغتها، واستيعابها على أساس اتصالها بالأحداث الجارية وتمشيها مع العرف والتقاليد والقيم السائده[١٤].

الأهميّة والغموض:

والاشاعات التي تروّج بين الناس قد تكون عن قصد أو عن غير قصد... وتلعب الاشاعات المقصودة المغرضة دوراً رئيسياً في أوقات الحروب والأزمات، لأنها تثير العواطف، وتترك آثاراً عميقة في النفوس... أما الاشاعات غير المقصودة فتسمى ثرثرة أو دردشه... ويجد كل من ناقلها ومستمعها لذة ومتعة في روايتها، دون أن يعلموا أنهم يساعدون على نشر الاشاعات الكاذبة والروايات المختلقة[١٥].

وليست كل الاشاعات بالضرورة مختلقة من أساسها، فهناك اشاعات تستند الى حدث حقيقي يتم تشويهه عند اطلاق الاشاعة. ويعتمد انتشار الاشاعة المختلقة أو المستندة الى حدث على أهمية موضوعها، وتوافر عنصري الاثارة والغموض فيها[١٦]...والقانون الأساسي للاشاعة عبارة عن حاصل ضرب الأهميّة في الغموض، وليس حاصل جمعهما. فإذا كانت الأهميّة كبيرة والغموض صفراً فلن تكون هناك اشاعة. كذلك إذا كان الغموض شديداً في موقف لا يهمنا، فلن تكون هناك اشاعة... وبتعبير آخر إذا لم يكن للموضوع أهمية، فإن غموضه لا يكفي وحده لاختلاق اشاعة، كذلك فإن الاشاعة لن تقوم لها قائمه إذا كانت الأمور واضحة لا غموض فيها[١٧].

ويلاحظ ان الغموض قد ينتج عن انعدام وسائل الاتصال والاعلام، أو فقدان الأخبار الموثوقة، أو أمثال ذلك من الأسباب التي تكثر اثناء الحروب، أو في البلاد التي مزقتها الحروب، أو فيما بين الجماعات المعزولة كبعض الفرق الحربية أو بعض الجماعات النائية. كما قد ينشأ الغموض عن انتشار الأخبار المتضاربة وانعدام الثقة بالسلطات الحاكمة أو وجود رقابة على الأخبار وسواها[١٨] أو نقص المعلومات الرسمية وتضاربها، وسوء الاتصالات والاستعداد النفسي لتقبّل الاشاعة. وهذا ما يفسر انتشارها بسرعة ابّان الحروب والاضطرابات وفي المجتمعات المحرومة من الاستقرار الداخلي... بسبب تناقضاتها

الحادة، سواء كانت هذه التناقضات اجتماعية أم دينية ام عرقيّة[١٩].

ففي مثل هذه الأجواء تنتشر الاشاعات الهدّامه التي تتعلق بحياة الانسان ومصالحه، لاثاره الخوف والرعب والفرقة والخلاف والضعف، فتثير الاشاعات المخوّفة من الغلاء وندرة السلع، أو قوة العدو العسكرية وتفوقه، أو ضعف قوة الجبهة الداخلية، أو الفرقة الطائفية والعنصرية والمذهبية والاقليمية، أو التشكيك بالشخصيات والقيادات والكيانات... والايحاء للآخرين بالشبهات والتهم وضعف الصف... وتخلخل تماسكه[٢٠].

اشكالها: سايكولوجيتها:

تقسم الشائعة الى أشكال متعددة، فهناك الشائعة التي تنتقل ببطء من شخص الى آخر، والشائعة التي تنطلق بضجة فتصل الى أسماع عدد كبير من الناس خلال فترة زمنية قصيرة وتكثر في الكوارث وعند الانتصارات أو الهزائم الساحقة، والشائعة التي يُطلق عليها تسمية الشائعة الغائصة أي أنها تروج في البداية ثم تختفي لتظهر ثانية عندما تتاح لها فرصه للظهور.

ويمكن التميز بين الشائعة التي يطلقها العدو أو عملاؤه، والشائعة التي تنطلق ذاتياً للتنفيس عن كبت شديد، أو للتظاهر بسعة الاطلاع والمعرفة، أو تفسير الأحداث بشكل خيالي يبرر التطورات والأحاسيس العنيفة. وتتعرض الشائعة الى تحريف ناقليها فيسقطون بعض تفصيلاتها ويركزون على البعض الآخر، ويعطونها طابعاً مشوقاً يزيد من خطورتها وقدرتها على الاقناع[٢١]. وتوجد علاقة طردية بين شدّة الاشاعة ودرجة الصداقة وعلاقات الالفة والمحبة التي تقوم بين الأفراد، حيث يسهل سريان الاشاعة عبر العلاقات والتفاعلات التي تقوم بين الأصدقاء والأقارب. ومع أن الاشاعة تنتقل في المجتمع ككل إلاّ أنها تبدأ في اطار هذه العلاقات حيث يكون التفاعل على أشدّه[٢٢].

ويمكن تقسيم الاشاعات على أساس دلالتها ودوافعها الى ثلاثة أنواع رئيسية هي: اشاعات الأحلام والأماني... واشاعات الكراهية والعداء.. واشاعات الخوف...[٢٣] ويلاحظ ان الاشاعات قد تنتج عن الخوف، خوف المواطنين، فهم يفتحون آذانهم لالتقاط الاشاعات التي قد يطلقها أناس أبرياء أو جماعة من العملاء

والمخربين والخونة.

وهنا نلاحظ علاقة الاشاعة وانتشارها بوجود الأقليّات العرقية أو الدينية أو القومية أو سواها وكيف تدور هذه الاشاعات حول هذه الأقليّات وتتناولها وتهاجمها...

ولقد أُجري احصاء في أمريكا عام ١٩٤٢ حيث دُرست ألف اشاعة فوجد أنها تتوزع كالتالي:

٦٦ ٪ من الاشاعات كانت اشاعات عداء.

٢٥ ٪ كانت اشاعات خوف.

٢ ٪ كانت اشاعات تمني.

٧ ٪ كانت اشاعات من أنواع مختلفة.

ولقد لوحظ أن اشاعات الخوف والتمني ما لبثت أن تغيّرت طبيعتها باقتراب النصر. على ان الملحوظ أن غالبية الاشاعات كانت من طبيعة افترائية شريرة وتعبّر عن عداء ضد هذه الجماعة أو تلك(٢٤).

وقد توقف علماء النفس أمام «سيكولوجية الاشاعة» وأوعزوا الأسباب الرئيسية لانتشارها الى أنها تقوم بوظيفة مزدوجة؛ فهي تفسّر التوترات الانفعالية التي يستشعرها الأفراد وتنفّس عنها... ومعلوم أن التنفيس المادي والمعنوي يسبب تراخي التوتر، ويقود الى الشعور بالراحة(٢٥).

وتأسيساً على ذلك اعتبر علماء الحرب النفسية الاشاعة من أهم الأسلحة التي يلجأون اليها في الحرب داخلياً وخارجياً، وتقوم الكيانات السياسية باستخدام الاشاعة كسلاح يقتالون به سمعة أعدائهم خلقياً ومسلكيّاً ووظيفة ونزاهة، ولكن الاعلام الاسلامي والرأي العام الاسلامي يرفض اللجوء الى هذا النوع من الاشاعات سواء أكانت فردية أم جماعية، وطلب من المسلم أن يرقى بنفسه عن هذا الدرك السيء من اللجوء الى الاشاعة الكاذبه لتحطيم وتفسيخ المجتمع(٢٦) وقد عالج القرآن الكريم هذا الموضوع الخطير في غير موضع، وتناوله على أكثر من صعيد.

الاشاعه في القرآن:

لم يأتِ في القرآن الكريم ذكر صريح للاشاعة أو مشتقاتها إلاّ مرّة واحدة وردت في سورة النور وهو قوله تعالى: **﴿ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾**(٢٧) بيد أنها وردت في مفهومها الشامل وتطبيقاتها ومداليلها العديدة في الكثير من المواطن والمواقف المشهودة.

وككل حركات التغيير الكبرى التي

تركت بصماتها على مسيرة التاريخ، لم تمر الدعـوة الاسلامية بسـلام، ومن دون ردود فعل مضادة رعنيفة وشـرسة. فمنذ أن جهر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالدعوة الى الله، وعالن قومه بضـلال ورثوه عن آبائهم، قرر المشركـون ألاّ يألوا جهداً فـي محاربة الاسلام وإيذاء الداخلين فيه، وانفجرت مكة بمشاعـر الغضب، وظلـت عشرة أعـوام تعد المسلمين عصاة ثائرين، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، واستباحت دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وصـاحب كل ذلك حـرب عاتية مـن الشـائعـات المغـرضـة، والسخـريـة والتحقير، لتخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنـوية، وتحطيـم نفسياتهـم... فرُمـي الـنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وصحابته بتهم هازلة، وشتائم سفيهة وأشيعت حولهم الافتراءات والأباطيل للحط من مكانتهم لدى الجماهير...

وفي المدينة حيث كثر عدد المسلمين، فقد اتخذت العـداوة للاسلام طريـق الدس والنفـاق والمخاتلـة وتـرويـج الشائعـات، فأسلم فريق من المشـركين واليهود ظاهراً، وقلوبهم تغلي حقداً وكفراً، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول العوفي[٢٨].

وفي غمرة المواجهة الضارية... حرص القرآن الكريم على توعية المسلمين، وتكوين الحسّ السياسي والاعلامـي لديهم، لصيانة الرأي العام الاسلامي، وتحصينه من التأثّر بالاشاعات والأكاذيب والأراجيف التي يبثها المندسـون والمنافقون والخصـوم، ليكوّن المناعـة الفكرية والنفسية، ويفـوّت الفرص علـى اولئك المخـرّبيـن، فثبّـت الأسـس والموازين اللازمة للانسان المسلم، ليتمكّن من فحص وتمييز الاشاعة والدعاية الكاذبة وفرزها، والوقوف بوجهها[٢٩].

وحينمـا نستقـرى آيات القـرآن التـي تحدثـت عن الاشـاعات التـي روّجها أعـداء الاسـلام، واسلوب التعـامـل معها... نجـد نماذج عديدة لها مبثوثة في كتاب الله، وتكاد تغطّي كل مساحات المـواجهة خلال مرحلة النبّـوة، وفيمـا يلـي بعـض المحطـات الهامة[٣٠].

من أساليب الدعاية السوداء:

جاء الخطـاب القرآنـي قويّـاً مجلجلاً، وكان وقعه كالصاعقة على المشركين، ولما أعيتهم الحيلة فـي مواجهة الحجة بـالحجة، وأنّى لهم ذلـك؟، انتهجوا ترويج الاشـاعات ضد الرسـول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم، باعتبـاره المثل الأعلـى، وذلك فـي محاولـة

للتسقيط الشخصي، فأخذوا يشيعون أنه: كاهن، وأنه مجنون، وأنه شاعر، وأنه كذّاب، وأنه ساحر...!!.

﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ القلم: ٥١.

﴿قالوا أضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ الأنبياء: ٥.

﴿وقالوا إنْ هذا إلاّ سحر مبين﴾ الصافات: ١٥.

﴿ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون﴾ الصافات: ٣٦.

﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذّاب﴾ ص: ٤.

وفي غمرة انهماك أعداء الاسلام ببث أباطيلهم حول الصادق الأمين صلّى الله عليه وآله وسلّم نزل الوحي يقرّع هؤلاء: **﴿فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين﴾** الحاقة: ٣٨ ـ ٤٣.

ولمّا ثبت بطلان كل تلك الشائعات عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم ، لم يلقِ المشركون سلاحهم، ولم يتركوا أساليب دعايتهم السوداء، فعمدوا الى اسلوب آخر، فتواصوا على أن يمنعوا الوافدين الى مكّة من الاستماع إليه. واجتمع الوليد بن المغيرة مع نفر من قريش ليتفقوا على شيء واحد يجمعون عليه... قال الوليد: ان الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم فتختلف فيه أقوالكم، يقول هذا: ساحر، ويقول هذا: كاهن ويقول هذا: شاعر، ويقول هذا: مجنون، وليس يشبه واحداً مما يقولون. ولكن أصلح ما قيل فيه: ساحر يفرّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته... وقد اقتسم هؤلاء المتآمرون مداخل مكة أيّام موسم الحج، يحذرون الناس منه صلّى الله عليه وآله وسلّم وينعتونه بما تواصوا به من سحر مفرق[٣١].

ومرّة أخرى تخيب ظنون المشركين، ويرتد كيدهم الى نحورهم... وطفق الناس يقبلون على كلمة السماء دون أن يعيروا أدنى اهتمام لما يبثّه دهاقنة الشرك... وحينما تيقّن الوليد بن المغيرة وأضرابه بعقم محاولاتهم الراميه الى التشكيك في شخصية الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، وتشويه صورته وصولاً الى صرف الناس عن اتباعه والانقياد الى دعوته... انتقلوا الى خطوة أخرى واخرى.. ليمارسوا في اطارها تجارتهم الخاسرة... وفيمايلي وقفة مع

معركه أحد، كنموذج للمحطات الأخرى.

معركة أحد.. نموذجاً:

كان يوم أُحد يوم السبت للنصف من شوّال[٣٢] سنة ثلاث من الهجرة. وكانت واقعة أُحد من أهم الوقائع الاسلامية الحربيّة التي عاش المسلمون فيها حالة النصر كأفضل ما يكون النصر، ثم حولوها الى هزيمة بفعل الممارسات الخاطئة التي انحرف فيها الكثيرون من المقاتلين عن الهدف الذي يفرض عليهم الانضباط، فيما تقتضيه خطة الحرب من مواقع ومواقف...[٣٣] وبهذا يمكن القول: إن غزوة أُحد لم تكن معركة في الميدان وحده، انما كانت معركه كذلك في الضمير... كانت معركة ميدانها أوسع الميادين. لان ميدان القتال فيها لم يكن إلاّ جانباً واحداً من ميدانها الهائل الذي دارت فيه... ميدان النفس البشرية، وتصوراتها ومشاعرها، وأطماعها وشهواتها، ودوافعها وكوابحها، على العموم... وكان القرآن هناك، يعالج هذه النفس بالطف وأعمق، وبافعل وأشمل ما يعالج المحاربون أقرانهم في النزال[٣٤]!.

وكانت موقعة أُحد فرصه سانحة لكي يعالج القرآن فيها كثيراً من الجوانب الانسانية المتحركة في المعركة، ويثير كثيراً من الأجواء... بكل ما حفلت به المعركة من نقاط الضعف والقوّة، ليثير في وعي المسلمين الكثير من المفاهيم الاسلامية المتعلّقة بحركة المعركة وموقع القيادة في خط السير ومدى تأثير وجودها وغيابها، في موضوع الالتزام بالمسيرة والاستمرار على المبدأ، ويتابع المسلمين في المعركة وهم يتأملون ويخالفون ويندفعون ويواجهون الاعداء وينهزمون أمامهم، ولاحظ كيف تتحكم بهم جوانب الضعف البشري، ووقف معهم ليدفعهم الى مواجهتها بشجاعة المؤمن الذي يعترف بها بصراحة في محاولة لتحويلها الى نقاط قوة بالجهد والايمان والمعاناة... وأعطانا درساً عملياً في التأكيد على الجانب السلبي في الشخصية التاريخية بنفس القوة التي تؤكد على الجانب الايجابي فيها، على أساس الواقعية الانسانية في الانسان وعدم اغفال الضعف في التجربة الحيّة بحجة أن ذلك يسيء الى قداسة التاريخ وعظمة أبطاله[٣٥] وكانت هذه الحصيلة الضخمه التي استقرت في الجماعة المسلمة من وراء الأحداث، ومن وراء التوجيهات القرآنيّة بعد الأحداث، أكبر وأخطر ـ بما لا يقاس ـ في حصيلة النصر

والغنيمة... ولا قيمة ولا وزن في نظر الاسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي، ما لم يقم هذا كله على أساس المنهج الرباني، في الانتصار على النفس، والغلبة على الهوى، والفوز على الشهوة، وتقرير الحق الذي اراده الله في حياة الناس. ليكون كل نصر نصراً لله ولمنهج الله، وليكون كل جهد في سبيل الله ومنهج الله، وإلاّ فهي جاهلية، تنتصر على جاهلية...(٣٦).

ومن بين جوانب المعركة، تبرز الاشاعة كأحد أخطر الأسلحة التي استخدمها المشركون ضد المسلمين. ولو قدّر لتلك الاشاعة أن تحقق كامل أهدافها لمني المسلمون بهزيمة مروّعة ولهدّدت دولة الاسلام الفتيّة يومذاك من الأساس. والمسألة باختصار شديد:

كانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار، حيث قتل من هؤلاء سبعون من صناديدهم، وانهزم أعداء الله وولوا مدبرين، حتى انتهوا الى نسائهم. وحتى شمرّت النساء ثيابهنّ عن أرجلهن هاربات!.

فلّما رأى الرماة هزيمة المشركين وانكشافهم، تركوا مراكزهم التي امرهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الاّ يبرحوها. وقالوا، الغنيمة! الغنيمة! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فلم يسمعوا، وظنوا أن لليس للمشركين رجعة! فذهبوا في طلب الغنيمة، وأخلوا الثغر في أحد!.

عندئذ أدركها خالد (بن الوليد) فكرّ في خيل المشركين، فوجدوا الثغر خالياً فاحتلوه من خلف ظهور المسلمين. وأقبل المنهزمون من المشركين حين رأوا خالداً والفرسان قد علوا المسلمين، فأحاطوا بهم!.

وانقلبت المعركة، فدارت الدائرة على المسلمين، ووقع الهرج والمرج في الصف، واستولى الاضطراب والذعر، لهول المفاجأة التي لم يتوقعها أحد. وكثر القتل واستشهد من المسلمين مَنْ كتب الله له الشهادة. وخلص المشركون الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقد أفرد إلاّ من نفر يعدون على الأصابع قاتلوا عنه حتى قتلوا. وقد جرح وجهه صلّى الله عليه وآله وسلّم وكسرت سنه الرباعيّة اليمنى في الفك الأسفل، وهشمت البيضة على رأسه، ورماه المشركون بالحجارة حتى وقع لجنبه، وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق قد حفرها وغطّاها! يكيد بها للمسلمين. وغاصت حلقتان من حلق المغفر في وجنته.

وفي وسط هذا الهول المحيط بالمسلمين صاح صائح: إن محمداً قتل... فكانت الطامة التي هدّت ما بقي من قواهم، فانقلبوا على أعقابهم مهزومين هزيمة منكرة لا يحاولون قتالاً مما أصابهم من اليأس والكلال[٣٧].

قال ابن عباس، وقتادة، والضحّاك، ومجاهد: انه لما أرجف بان النبيصلّى الله عليه وآله وسلّم قتل يوم أحد وأشيع ذلك، قال ناس لو كان نبياً ما قتل. وقال آخرون: نقاتل على ما قاتل عليه حتى نلحق به[٣٨].

وحدثت البلبلة والارتباك، وانكفأ الناس عن النبي محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وما بقي معه إلاّ قليل، وقال البعض: ليتنا نجد من يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان، وقال آخرون: لو كان محمد نبياً لم يقتل، الحقوا بدينكم الأول... كما يروي المؤرخون ذلك وغيره، في الخط السلبي للقضية... أمّا في الخط الايجابي الذي يمثّل الثبات على الاسلام حتى في غياب الرسول القائد... فتمثّله لنا القصّة التي ينقلها الطبري في تفسيره.. إن رجلاً من المهاجرين مرّ برجل من الأنصار يتشحّط في دمه، فقال للانصاري أعلمت أن محمداً قد قتل، فقال الأنصاري: ان كان محمد قد قتل فقد بلّغ فقاتلوا عن دينكم...

.. وفي رواية أخرى ــ يرويها الطبري أيضاً ــ ان أنس بن النضر مرّ بعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم فقال أنس: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل محمد. قال: ان كان قد قتل محمد فان ربّ محمد لم يُقتل وما تصنعون بالحياة بعده، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم إني أعتذر اليك ممّا قال هؤلاء، وأبرأ اليك ممّا جاءوا به ثم شدّ بسيفه فقاتل، حتى قتل رضوان الله عليه[٣٩].

وكان أصل هذه الشائعة أن مصعب بن عمير رضي الله عنه كان يقاتل دون رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حين انكشف المسلمون حتى قتل، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي، وهو يظن أنه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فرجع الى قريش وقال: قتلت محمداً.

ويبدو أن شائعة قتل النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم سرت على أفواه كثيرة.. حتى أن أبا سفيان قائد المشركين، حين أراد الانصراف بعد انتهاء المعركة، رأى أن يتحقق من تلك الشائعة وهي قتل محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم فأشرف على الجبل وطلب من عمر بن الخطاب أن يأتيه ليعرف الحقيقه منه. فقال

رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعمر: ائته فانظر ما شأنه فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وانه ليسمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر. وهو الذي زعم أنه قتل النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم..

ومن الواضح ان تلك الشائعة التي قامت على خبر غير متثبّت من صحته وسرت بسرعة بين المسلمين والمشركين على السواء.. حيث توهم ابن قمئة، حين قتل مصعب بن عمير، أنه قتل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ثم أشاع هذا الوهم، لما يعلم من أثر ذلك على تحطيم قوى المسلمين المعنوية، وتثبيطهم وتخذيلهم لو شاع بينهم. وبالفعل تحقق له بعض ما أراد، حيث صدقها المسلمون والمشركون على السواء، لأن النفوس كما قلنا، في أوقات الحروب يستولي عليها الخوف والقلق وتكون مستعدة لتصديق كل ما يُشاع في أمثال هذه الأوقات.

لكن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يترك هذه الشائعة تسري بين المسلمين دون أن يتصدى لها ويقاومها، ويظهر بطلانها وزيفها، ووجد أن أمضى سلاح لذلك هو أن يظهر بشخصه حتى يراه الجميع وتخمد الشائعة.. لذلك أخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يصيح بالمؤمنين إليّ عباد الله.. اليّ عباد الله.. فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلاً.. ومضى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يدعو المسلمين إليه، واستطاع بالرجال القلائل الذين معه أن يصعد فوق الجبل، فانحازت إليه الطائفة التي اعتصمت بالصخرة وقت الفرار.. وفرح النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أن وجد بقيّة من رجاله يمتنع بهم، بعد أن قاوم تلك الشائعة وأخمدها، وعاد الى هؤلاء المسلمين، اذ وجدوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حيّاً، وهم يحسبونه قد مات.

وممّا أنزل الله سبحانه وتعالى في «أُحد» من القرآن، في صدد هذه الشائعة، وهي شائعة قتل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قوله تعالى يعاتب المسلمين الذين سقط في ايديهم، وانكسرت همنهم، وتركوا المعركة يائسين لما أُشيع أن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قد مات:

﴿وما محمّد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾

آل عمران: ١٤٤.

فهذه الحادثة التي أذهلت المسلمين هذا الذهول يتخذها القرآن مادة للتوجيه، ويجعلها محوراً لاشارات موحية[٤٠].

أولاً: غياب القيادة.. وحضور الرسالة

حول هذه النقطة يقول السيد محمد حسين فضل الله: في هذه الآية تأكيد قرآني على أحد المبادي الاسلامية الإيمانية، وهو أن غياب القيادة، مهما كانت عظيمة، لا يوقف المسيرة ولا يلغي الرسالة ـ المبدأ.. لأن عظمة القائد في حساب الرسالات لا تجمدها عند حدود حياته لتنتهي بانتهاء حياته بل تمثّل ـ بدلاً من ذلك ـ خطوة أولى نحو الانطلاقة المستمرة في الدرب الطويل، ومرحلة متقدمة من مراحل العمل، ثم تتبع الخطوة خطوات على الطريق وتنطلق المراحل الجديدة على درب المرحلة القديمة... فالرسالة هي الأصل والقاعدة.. والقيادات المتتابعة تمثل دور الحَمَلَة لها، فقيمتهم بمقدار ما يقدمون لها من خدمات وتضحيات، وعظمتهم بقدر ما يواجهونه من مواقف الصدق والاخلاص.. الأمر الذي يلغي من المسيرة عبادة الشخصية، التي توحي بأن الشخص هو الاساس، والرسالة شأن من شؤونه، وميزة من ميزاته، وليس الأمر بالعكس..

وهكذا نجد القاعدة الاسلامية التي تربط الانسان المؤمن بالرسالة ولا تربطه بالشخص إلاّ من خلال الرسالة فلا تموت الرسالة بموته.. ممثلة في بعض النماذج المؤمنة في ذلك الوقت[٤١].

ثانياً: الارتداد

بعد تقرير هذه الحقيقة والتأكيد عليها، ينتقل النص الى استنكار انقلاب البعض على عقبيه: **﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾**؟ ليعقب هذا الاستنكار تهديد صريح: **﴿ومنْ ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾**.

وفي التعبير تصوير حي للارتداد: **﴿انقلبتم على أعقابكم﴾**... **﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾**. فهذه الحركة الحسيَّة في الانقلاب تجسِّم معنى الارتداد عن هذه العقيدة، كأنه منظر مشهود. والمقصود أصلاً ليس حركة الارتداد الحسيّة بالهزيمة في المعركة، ولكن حركة الارتداد النفسية التي صاحبتها حينما هتف الهاتف: إن محمداً قد قُتل، فاحسّ بعض المسلمين أن لا جدوى اذن من قتال المشركين، وبموت محمد انتهى أمر هذا الدين، وانتهى أمر

الجهاد للمشركين! فهذه الحركة النفسية يجسّمها التعبير هنا، فيصورها حركة ارتداد على الأعقاب، كارتدادهم في المعركة على الأعقاب! وهذا هو الذي حذرهم ايّاه النضر بن أنس ـ رضي الله عنه ـ

..وكأنّما أراد الله ـ سبحانه ـ بهذه الحادثة، وبهذه الآية، أن يفطم المسلمين عن تعلقهم الشديد بشخص النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو حي بينهم، وأن يصلهم مباشرة بالنبع. النبع الذي لم يفجره محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكن جاء فقط ليومي إليه، ويدعو البشر الى فيضه المتدفق. كما أوما إليه من قبل من الرسل، ودعوا القافلة الى الارتواء منه!.

..وكأنما كان الله ـ سبحانه ـ يعدّ الجماعة المسلمة لتلقي هذه الصدمة الكبرى ـ حين تقع ـ وهو سبحانه يعلم أن وقعها عليهم يكاد يتجاوز طاقتهم. فشاء أن يدربهم عليها هذا التدريب، وأن يصلهم به هو، وبدعوته الباقية، قبل أن يستبد بهم الدهش والذهول[٤٢].

ثالثاً: شكر السائرين على الخط

بعد أن أكدت الآية الكريمه مبدأ أن الذي ينقلب على عقبيه، بعد موت الرسول، سوف يضر نفسه.. ولن يضر الله شيئاً، لأن رسالات الله لا تتوقف أو تتجمد عند كفر كافر أو انحراف منحرف مهما كان دوره، ومهما كانت درجته وطبقته.. ثم انعطفت الآية الى السائرين على خط الحق فاعتبرت ذلك شكراً لله كما يجب أن يشكر.. وهو ما يمثله الشكر العملي الذي يتحوّل الى موقف للعمل، ولا يظل مجرد كلمة تتحرك في الشفاه.. ووعدت هؤلاء بأن الله سيجزيهم على ذلك جزاءً موفوراً[٤٣].

وقفه للتذكير:

بعد هذا الاستنكار.. والتهديد.. يمضي السياق، في خطوة تذكيرية، الى الحديث. في تاريخ النبوات السابقة، ليربط تجربة الحاضر بتجربة الماضي، وليثير امام جيل التجربة الجديدة ما يبعث فيهم روحاً حيّة متحركة تثير فيهم قوة الاندفاع والحركة[٤٤]: **﴿وكأيّن من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهُم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلاّ ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن**

ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨.

وهنا يضرب الله للمسلمين المثل من اخوانهم المؤمنين قبلهم، من موكب الايمان اللاحب الممتد على طول الطريق، الضارب في جذور الزمان.. من أولئك الذين صدقوا في ايمانهم، وقاتلوا مع أبنائهم، فلم يجزعوا عند الابتلاء، وتأدبوا ــ وهم مقدمون على الموت ــ بالأدب الايماني في هذا المقام.. مقام الجهاد.. فلم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم، وأن يجسّموا أخطاءهم فيروها «اسرافاً» في أمرهم. وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار.. وبذلك نالوا ثواب الدارين، جزاء احسانهم في أدب الدعاء، واحسانهم في موقف الجهاد. وكانوا مثلاً يضربه الله للمسلمين..

لقد كانت الهزيمه في «أحد» هي أول هزيمه تصدم المسلمين، الذين نصرهم الله ببدر وهم ضعاف قليل فكأنّما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعه هو السنه الكونيّه. فلما أن صدمتهم احد، فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه[٤٥]!.

تلك هي الصورة في مجتمع النبوات السابقة.. وتلك هي الصوره التي يريد الله للمجتمع المسلم أن يستعيدها في نفسه عندما تضيق به الأمور وتحيق به الهزائم وتجتمع في آفاقه الأزمات وتتضافر عليه قوى الشر، فيسأل الله الفرج حيث لا فرج، والمدد حيث لا مدد فتسكن النفس، ويرتاح القلب، وينفتح للحياة على الله درب طويل لا نهاية له تخضَر فيه الأرواح، وتنبت فيه كل الجنائن الروحية التي يزهر فيها الورد وتتفتح فيها براعم الرياحين.. ويبدأ الانسان حياته الجديدة الامنة المطمئنه في آفاق الله[٤٦]..

المتربصون يبلبلون الأفكار:

ولكن المسألة لم تقف عند هذا الحد، وأحداث المعركة لم تنته، فاذا ما أُسدل الستار على مشهد من مشاهدها، فسرعان ما تبدأ فصلاً آخر، تهدأ فيه قرقعة السيوف.. لتستعر حمّى سلاح آخر من نوع آخر.. لعله الأخطر.. انه سلاح الاشاعة. ولهذا يمضي السياق خطوة أخرى في استعراض آحداث المعركة، واتخاذها محوراً للتعقيبات، يتوخى بها تصحيح التصوّر، وتربية الضمائر، والتحذير من مزالق الطريق، والتنبيه الى ما يحيط بالجماعة المسلمه من الكيد، وما يبيته لها أعداؤها المتربصون:

ولقد كـانت الهزيمــه في «أحـد» مجالاً لـدسائس الكفـار والمنـافقين واليهـود في المـدينـة وكانـت المـدينة لـم تخلص بعـد للاسـلام، بل لا يـزال المسلمون فيهـا نبتة غريبـة الى حد كبيـر. نبتة غـريبة أحـاطتها «بدر» بسياج مـن الرهبة، بما كـان فيها من النصر الأُبلـج. فلما كانـت الهزيمه فـي أحد تغيّر الموقف الى حد كبير، وسنحت الفرصه لهـؤلاء الأعـداء المتـربصيـن أن يظهـروا أحقادهـم، وأن ينفثوا سمومهـم، وأن يجدوا في جـو الفجـائع التي دخلـت كل بيـت من بيوت المسلمين ــ بخاصة بيـوت الشهداء ومن أصابتهم الجـراح المثخنة ـ ما يسـاعد على ترويج الكيد والدس والبلبلة في الأفكار والصفوف:

﴿يـا أيّهـا الـذين آمنـوا إن تطيعـوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خـاسـريـن * بـل الله مـولاكم وهـو خيـر النـاصـرين * سنلقي فـي قلـوب الـذين كفروا الرعب بما أشركـوا بالله ما لم ينزل به سلطـانـاً ومأواهم النـار وبئس مثوى الظـالمين * ولقـد صـدقكـم الله وعـده إذ تحسـونهـم بـاذنــه حتـى إذا فشلتـم وتنازعتـم في الأمر وعصيتـم من بعد مـا أراكم مـا تحبـون منكم من يـريـد الدنيـا ومنكم من يـريد الآخرة ثم صـرفكم عنهم ليبتليكم ولقـد عفـا عنكـم والله ذو فضل على المؤمنين * إذ تصعـدون ولا تلوون على أحـد والرسول يـدعوكم في اخـراكم فاثـابكم غمّا بغم لكيـلا تحزنوا علـى ما فـاتكم ولا مـا أصـابكـم والله خبيـر بمـا تعملون * ثـم أنزل عليكم من بعـد الغم أمنةً نعاسـاً يغشى طائفة منكم وطـائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شـيء قل إن الأمـر كلّـه لله يخفـون فـي أنفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هـاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الـذين كتب عليهم القتل الـى مضـاجعهم وليبتلـي الله مـا فـي صدوركـم وليمحص ما في قلـوبكم والله عليم بـذات الصـدور * ان الذيـن تولـوا منكم يـوم التقى الجمعان إنّما استـزلّهم الشيطان ببعـض ما كسبوا ولقـد عفا الله عنهم ان الله غفـور حليم * يا أيّها الـذين آمنـوا لا تكونـوا كالـذين كفـروا وقالـوا لاخوانهم إذا ضـربوا في الأرض أو كـانوا غزّى لـو كانوا عندنـا ما ماتوا ومـا قتلوا ليجعلَ الله ذلـك حسرةً فـي قلـوبهم والله يحيي ويميت واللهُ بما تعملـون بصير *

ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون * ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾

آل عمران: ١٤٩ ـ ١٥٨.

وحين ننظر في هذه المجموعة من الآيات نظرة فاحصة نجدها قد ضمّت جوانحها على حشد ضخم من المشاهد الفائضة بالحيوية، ومن الحقائق الكبيرة الأصيلة في التصور الاسلامي، وفي الحياة الانسانية. وفي السنن الكونيّة.. نجدها تصور المعركة كلها بلمسات سريعه حيّة متحركة عميقه، فلا تدع منها جانباً إلاّ سجلته تسجيلاً يستجيش المشاعر والخواطر، وهي بدون شك أشد حيوية وأشد استحضاراً للمعركه بجوها وملابساتها ووقائعها، وبكل الخلجات النفسية والحركات الشعورية المصاحبة لها.. من كل تصوير آخر ورد في روايات السيرة ـ على طولها وتشعبها ـ ثم نجدها تضم جوانحها على ذلك الحشد من الحقائق في صورتها الحية الفاعلة في النفوس البانية للتصور الصحيح[٤٧]. وسنحاول هنا الوقوف سريعاً أمام المشاهد ذات العلاقة بالبحث:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردّوكم على أعقابكم...﴾ هذا خطاب للمؤمنين حذرهم الله من أن يطيعوا الكفار، وبيّن أنهم إن أطاعوهم ردوهم كافرين. والمعني بـ**﴿الذين كفروا﴾** ـ كما قيل ـ صنفان:

أحدهما: قال الحسن، وابن جريج إنهم اليهود والنصارى أي إن تستنصحوهم وتقبلوا رأيهم يردوكم خاسرين. وقال السدي: أراد إن تطيعوا ابا سفيان وأصحابه يرجعوكم كافرين. والطاعة موافقة الارادة المرغّبه في الفعل[٤٨].. ولا يبعد أن يستفاد من السياق ان الكفار كانوا أيّام نزول الآيات، بعد غزوة أحد، يلقون الى المؤمنين ـ في صورة النصح ـ ما يثبطهم عن القتال، ويلقي التنازع والتفرقة وتشتت الكلمه واختلافها بينهم، وربما أيده ما في آخر هذه الآيات من قوله: **﴿الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾** الى أن قال: **﴿ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾**.

وربما قيل: ان الآية اشارة الى قول اليهود والمنافقين يوم أحد: «ان محمداً قد قتل فارجعوا الى عشائركم»[٤٩].

لقد انتهز الكفار والمنافقون واليهود في المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة

والقتل والقرح، ليثبطوا عزائمهم، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد، ويصوروا لهم مخاوف القتال، وعواقب الاشتباك مع مشركي قريش وحلفائهم.. وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبلبلة القلوب، وخلخلة الصفوف، واشاعة عدم الثقة في القياده، والتشكيك في جدوى الاصرار على المعركة مع الأقوياء وتزيين الانسحاب منها ومسالمة المنتصرين فيها، مع اثارة المواجع الشخصية والآلام الفردية، وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعة، ثم لهدم كيان العقيدة ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين.

ومن ثم يحذر الله الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا. فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة وليس فيها ربح ولا منفعة. فيها الانقلاب على الأعقاب الى الكفر. فالمؤمن إمّا أن يمضي في طريقه يجاهد الكفر والكفار، ويكافح الباطل والمبطلين، واما أن يرتد على عقبيه كافراً ـ والعياذ بالله ـ ومحال أن يقف سلبياً بين بين، محافظاً على موقفه، ومحتفظاً بدينه.. انه قد يخيّل إليه هذا.. يخيّل إليه في أعقاب الهزيمة، وتحت وطأة الجرح والقرح، انه مستطيع أن ينسحب من المعركة مع الأقوياء الغالبين وان يسالمهم ويطيعهم، وهو مع هذا محتفظ بدينه وعقيدته وايمانه وكيانه! وهو وهم كبير. فالذي لا يتحرك الى الامام، في هذا المجال لابد أن يرتد الى الوراء، والذي لا يكافح الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان، لابد أن يتخاذل ويتقهقر ويرتد على عقبيه الى الكفر، والشر والضلال والباطل والطغيان! والذي لا تعصمه عقيدته ولا يعصمه ايمانه من طاعه الكافرين، والاستماع اليهم، والثقة بهم يتنازل ــ في الحقيقة ــ عن عقيدته وايمانه منذ اللحظة الأولى.. إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة الى أعداء عقيدته، وأن يستمع الى وسوستهم، وأن يطيع توجيهاتهم[٥٠]. ان حالة الهزيمة قد تخلق لدى الانسان وضعاً صعباً يؤدي الى الانهيار والانسحاق والضياع في بعض الأحيان.. وقد ينتهي به ذلك الى البحث عن مخرج للمأزق الذي وقع فيه.. وقد يتمثل ذلك في الوقوع في قبضة مخطط الكفر في التنازل عن بعض المبادى الأساسية وفي الدخول في بعض المشاريع المحرمة، والسير في الدروب الملتوية التي لا تؤدي الى خير وصلاح.. وذلك من أجل الحصول على الأمن المستقبلي من مراكز القوى المنتصرة والكافرة[٥١]..

وإذا كان مبعث الميل الى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنصرة عندهم، فهو وهم، يضرب السياق صفحاً عنه، ليذكرهم بحقيقة النصرة والحماية:

﴿بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾

فهذه هي الجهة التي يطلب المؤمنون عندها الولاية. ويطلبون عندها النصرة ومن كان الله مولاه، فما حاجته بولاية أحد من خلقه؟ ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد(٥٢)؟.

وبعد أن يمضي السياق في بيان حقيقة قدر الله في الموت والحياة، وزيف تصورات الكفار والمنافقين عن هذا الأمر، منادياً الذين آمنوا بالتحذير من أن تكون تصوراتهم كتصورات هؤلاء. ويردهم في النهاية الى قيم أخرى والى اعتبارات ترجح الآلام والتضحيات:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا، وقالوا لاخوانهم، إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا..﴾ وفي مكان لاحق من السورة يأتي قوله تعالى: **﴿الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾** آل عمران: ١٦٨.

وعلى ما يبدو، ان هذه التقولات التي كان المتربصون والمخلفون يشيعونها بين صفوف المسلمين قد شقت طريقها الى ذوي النفوس الضعيفة، الذين راحوا، بدورهم، يرددون ما يقوله المتصيدون في الماء العكر باسلوب آخر، وتساؤل آخر: **﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾**.. **﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا...﴾**!.

وهذا هو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص للعقيدة حينما تصطدم في موقعه بالهزيمة. وحينما تعاني آلام الهزيمة! حين ترى الثمن أفدح مما كانت تظن، وأن الثمرة أشد مرارة مما كانت تتوقع.. وحين تفتش في ضمائرها فلا ترى الأمر واضحاً ولا مستقراً، وحين تتخيل أن تصرّف القيادة هو الذي ألقى بها في هذه المهلكة، وكانت في نجوة من الأمر لو كان أمرها في يدها! وهي لا يمكن ـ بهذا الغبش في التصور ـ أن ترى يد الله وراء الأحداث، ولا حكمته في الابتلاء، انما المسألة كلها ـ في اعتبارها ـ خسارة في خسارة! وضياع في ضياع!.

أمّا اولئك الذين حاولوا خلخلة الصفوف والنفوس فانهم لم يكتفوا بالتخلّف ـ والمعركة على الأبواب ـ وما يحدثه هذا

التخلف من رجة وزلزلة في الصفوف والنفوس، وبخاصة ان عبد الله بن أبي (رأس النفاق) كان ما يزال سيداً في قومه، ولم يُكشف لهم نفاقه بعد، ولم يصفه الله بهذا الوصف الذي يهز مقامه في نفوس المسلمين منهم. بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة في قلوب أهل الشهداء وأصحابهم بعد المعركة وهم يقولون: **﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾**...

فيجعلون من تخلفهم حكمة ومصلحة ويجعلون من طاعة الرسولصلّى الله عليه وآله وسلّم واتباعه مغرماً ومضرة. وأكثر من هذا كله يفسدون التصور الاسلامي الناصع لقدر الله. ولحتمية الأجل، ولحقيقة الموت والحياة، وتعلقهما بقدر الله وحده.. ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم الناصع، الذي يرد كيدهم من ناحية ويصحح التصور الاسلامي ويجلو عنه الغبش من ناحية:

﴿قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾.

فالموت يصيب المجاهد والقاعد، والشجاع والجبان، ولا يرده حرص ولا حذر ولا يؤجله جبن ولا قعود.. والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء.. وهذا الواقع هو الذي يجبههم به القرآن الكريم، فيرد كيدهم اللئيم، ويقر الحق في نصابه ويثبت قلوب المسلمين، ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين..

ومما يلفت النظر في الاستعراض القرآني لأحداث المعركة تأخيره ذكر هذا الحادث ـ حادث نكول عبد الله بن أبي ومن معه عن المعركة ـ وقد وقع في أول أحداثها وقبل ابتدائها.. وهذا التأخير يحمل سمة من سمات منهج التربية القرآنية.. فقد أخره حتى يقرر جملة القواعد الأساسية للتصور الاسلامي التي قررها، وحتى يقر في الأخلاد جملة المشاعر الصحيحة التي أقرها، وحتى يضع تلك الموازين الصادقة للقيم التي وضعها.. ثم يشير هذه الاشارة الى **﴿الذين نافقوا﴾**. وفعلتهم وتصرفهم بعدها.. وقد تهيأت النفوس لادراك ما في هذه الفعلة وما في هذا التصرف من انحراف عن التصور الصحيح، وعن القيم الصحيحة في الميزان الصحيح.. وهكذا ينبغي أن تنشأ التصورات والقيم الايمانية في النفس المسلمة، وأن توضع لها الموازين الصحيحة التي تعود اليها لاختبار التصورات والقيم، ووزن الأعمال والأشخاص، ثم تعرض عليها الأعمال والأشخاص ـ بعد ذلك ـ فتحكم عليها الحكم المستنير الصحيح، بذلك

الحس الايماني الصحيح.

ولعل هنالك لفتة أخرى من لفتات المنهج الفريد. فعبد الله بن أبي كان الى ذلك الحين ما يزال عظيماً في قومه ـ كما أسلفنا ـ وقد ورم أنفه لأن النبيصلّى الله عليه وآله وسلّم لم يأخذ برأيه وقد أحدث تصرف هذا المنافق الكبير رجّة في الصف المسلم، وبلبلة في الأفكار. كما أحدثت أقاويله بعد ذلك عن القتلى حسرات في القلوب وبلبلة في الخواطر. فكان من حكمة المنهج اظهار الاستهانه به وبفعلته وبقوله، وعدم تصدير الاستعراض القرآني لأحداث الغزوة بذلك الحادث الذي وقع في أولها، وتاخيره الى هذا الموضع المتأخر من السياق. مع وصف الفئة التي قامت به بوصفها الصحيح: **﴿الذين نافقوا﴾** والتعجيب من أمرهم في هذه الصيغة المجملة: **﴿ألم تر الذين نافقوا؟﴾** وعدم ابراز اسم كبيرهم أو شخصه، ليبقى نكرة في: **﴿الذين نافقوا﴾** كما يستحق من يفعل فعلته، وكما تساوي حقيقته في ميزان الايمان(٥٣)..

وتصل الاستهانة برأس النفاق وجيش الشرك الى مدياتها البعيدة، حينما يأتي الغد ـ بعد يوم أُحد مباشرة ـــ فيؤذن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلاّ من حضر يومنا بالأمس ـ كما يذكر ابن اسحق (٥٤)ـ

وبهذا يكون الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قد وجه الحرب النفسية ضد الأعداء، وعهد الى توظيف حاذق لها.. وذلك عندما رأى الضعف والوهن في جيشه بعد المعركة واحساس المشركين بالتفوّق والنصر، أراد أن يحطمّ معنوية الأعداء، ويعيد لأصحابه الثبات والقوة المعنوية، فطلب منهم أن يتجهزوا بعيد معركه أحد، وينفروا لقتال العدو ومطاردته، وهو في طريق انسحابه الى مكة، ليعرف الناس أن المسلمين ما زالوا اقوياء ولهم القدرة على شن الهجمات، وأن العدو يتقهقر أمامهم، فيتغيّر الموقف الاعلامي لصالح الدعوة الاسلامية، فاستجاب له أصحابه، ومارس هذا العمل الجهادي الاعلامي، وحقق عن طريقه نتائج اعلامية باهرة، فأنزل الله سبحانه آيات تثني على هذا الموقف، وتعظّم المجاهدين، وتبشرّهم بالانتصار(٥٥).

قال تعالى: **﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح للذين احسنوا منهم واتقوا أجر عظيم * الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم**

فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٣.

انهم اولئك الذين دعاهم الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم الى الخروج معه كرّه أخرى غداة المعركة المريرة وهم مثخنون بالجراح. وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة. وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة، ومرارة الهزيمة، وشدّة الكرب. وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا، فقل عددهم فوق ما هم مثخنون بالجراح!.

ولكن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم دعاهم. ودعاهم وحدهم. لم يأذن لأحد تخلّف عن الغزوة أن يخرج معهم ـ ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يُقال! ـ فاستجابوا.. استجابوا لدعوة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، وهي دعوة الله ـ كما يقرر السياق وكما هي في حقيقتها وفي مفهومهم كذلك ـ فاستجابوا بهذا لله والرسول **﴿من بعدما أصابهم القرح﴾**، ونزل بهم الضر، واثخنتهم الجراح.

لقد دعاهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ودعاهم وحدهم. وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل ايحاءات شتى، وتوميء الى حقائق كبرى نشير الى شيء منها:

فلعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم شاء ألا يكون آخر ما تنضم عليه جوانح المسلمين ومشاعرهم، هو شعور الهزيمة، وآلام البرح والقرح، فاستنهضهم لمتابعة قريش، وتعقبها، كي يقر في أخلادهم أنها تجربه وابتلاء، وليست نهاية المطاف، وأنهم بعد ذلك أقوياء، وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء، انما هي واحده وتمضي، ولهم الكرّة عليهم، متى نفضوا عنهم الضعف والفشل، واستجابوا لدعوه الله والرسول.

ولعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم شاء في الجانب الآخر إلاّ تمضي قريش وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته. فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس، يشعر قريشاً أنها لم تنل من المسلمين منالاً. وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها..

وقد تحققت هذه وتلك كما ذكرت روايات السيرة..

ولعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم شاء أن يشعر المسلمين، وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم، بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض.. حقيقه أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها.

..وينظر الانسان في هذه الصورة وفي

هذا الموقف، فيحس كأن كيـان الجماعة كله قـد تبـدل مـا بيـن يـوم وليلـة. نضجـت وتناسقـت. واطمأنت الى الأرض التـي تقف عليها. وانجلى الغبش عن تصورها. وأخذت الأمـر جداً كلـه. وخلصت من تلك الأرجحـة والقلقلـة، التـي حـدثت بـالأمـس فقط فـي التصورات والصفوف. فما كانت سوى ليلة واحدة هي التـي تفرق بين موقف الجمـاعة اليـوم ومـوقفها بـالأمس.. والفـارق هـائل والمسافة بعيدة.. لقد فعلت التجربة المريرة فعلها في النفـوس، وقد هزتها الحـادثة هزاً عنيفـاً. أطار الغبـش، وأيقظ القلـوب، وثبت الأقدام، وملأ النفوس بالعزم والتصميم..

نعم. وكان فضل الله عظيماً في الابتلاء المرير(٥٦)..

وتنتهي معـركه أُحـد، ولكن المعركـة الدائبـة بين الاسـلام وأعدائه لم تنتـه حتى يوم الناس هذا. انّهـا المعركة التي تستخدم فيها كل الوسـائل: الجدل والمراء، التشكيك والبلبلة، الكيـد والدس، التربص والتـدبير.. وتختلف وسـائل الابتلاء والفتنة بـاختلاف الـزمـان، وتختلف وسـائل الـدعايـة ضـد الجمـاعـة المسلمة، ووسـائل ايـذائهـا في سمعتها وفي مقوماتهـا وفي أعراضـها وفي أهدافهـا وأغراضـها.. ولكن القاعـدة واحدة:

﴿لَتُبلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ولَتَسمعُن من الـذين اوتـوا الكتـاب من قبلكـم ومن الذين اشركوا اذىً كثيراً﴾.

.. ويبقى هذا التـوجيه القرآنـي رصيداً للجماعة المسلمة كلمّا همّت أن تتحرك بهذه العقيـدة وأن تحـاول تحقيق منهـج الله في الأرض، فتجمعت عليها وسائل الكيد والفتنة، ووسائل الدعاية الحديثـة، لتشويه أهدافها، وتمزيق أوصالها.. يبقى هذا التوجيه القرآني حاضراً يجلو لأبصارهـا طبيعة هذه الدعوة، وطبيعة طريقها، وطبيعة أعـدائها الراصدين لها فـي الطريق. ويبـث في قلبها الطمـأننية لكل مـا تلقاه من وعد الله ذاك. فتعـرف حين تتنـاوشهـا الـذئاب بـالاذى. وحين تعـوي حولهـا بالـدعايـة، وحين يصيبهـا الابتلاء والفتنة.. أنها سائرة في الطريق. وأنها ترى معالم الطريق(٥٧).

وهكـذا يـوّضح لنـا القـرآن الكـريـم الحقائق الأساسية لمعالم الاسلوب والمنهج الاعـلامي كمـواجهـة أعـداء الله فـي غمـرة الصـراع الحضاري الـذي نخوض غمـاره.. والله المستعان. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

الهوامش:

(١) مؤسسة البلاغ: «مرتكزات اساسية في الاعلام القرآني» طهران، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م، ص: ٢٥.

(٢) د. محمد فريد محمود عزّت: «بحوث في الاعلام الاسلامي»، جدّة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص: ١٣.

(٣) د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون: «موسوعة السياسة» ٣: ٤٢٣، بيروت، ١٩٨٣.

(٤) مرتكزات اساسية في الاعلام القرآني: المرجع السابق.

(٥) موسوعة السياسة: المرجع السابق.

(٦) د. أحمد بدر: «الرأي العام: طبيعته وتكوينه وقياسه ودوره في السياسة العامة»، القاهرة، ١٩٧٧، ص١٣٤.

(٧) موسوعة السياسة: المرجع السابق.

(٨) د. فاخر عاقل: «سيكولوجية الاشاعة»، مجلة العربي، العدد (٩٤). سبتمبر ١٩٦٦، ص: ٦٧.

(٩) د. فريال مهنا: «تقنيات الاقناع في الاعلام الجماهيري»، دمشق ١٩٨٩، ص: ٨٢.

(١٠) غي دورندان: الدعاية السياسية. ترجمة د. رالف رزق الله، بيروت، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ص: ٦٧.

(١١) المعجم الوسيط: الجزء الأول، ط(٢)، القاهرة، ١٩٧٣، ص: ٥٠٣.

(١٢) ابن منظور: لسان العرب ٧: ٢٦٠.

(١٣) النساء: ٨٣.

(١٤) اعتمدنا في هذه الاستشهادات على كتاب «بحوث في الاعلام الاسلامي» للدكتور محمد فريد محمود عزت ص: ١٤ ـ ١٥.

(١٥) م. س.

(١٦) موسوعة السياسة: المرجع السابق: ٤٢٤.

(١٧) بحوث في الاعلام الاسلامي، م. س: ١٦.

(١٨) سيكولوجية الاشاعة: م. س.

(١٩) موسوعة السياسة: م. س.

(٢٠) بشيء من التصرف من كرّاس: «مرتكزات اساسية في الاعلام القرآني»: ٤٢.

(٢١) موسوعة السياسة: م. س: ٤٢٣.

(٢٢) بحوث في الاعلام الاسلامي: م. س.

(٢٣) للمزيد من الاطلاع على أنماط هذه الاشاعات يراجع المرجع السابق: ١٧ ـ ١٨.

(٢٤) سيكولوجية الاشاعة: م. س.

(٢٥) م. س.

(٢٦) موسى زيد الكيلاني: الاعلام السياسي والاسلام، بيروت ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ص: ٥٣.

(٢٧) النور: ١٩.

(٢٨) محمد الغزالي: فقه السيرة، ط(٧)، القاهرة، ١٩٧٦، ص: ١٠٦، ٢٥٦ (نقلاً عن كتاب بحوث في الاعلام الاسلامي، ص: ٢٥ ـ ٢٦.

(٢٩) مرتكزات أساسية في الاعلام القرآني: المرجع السابق: ٢٦.

(٣٠) نقول (بعض) المحطات الهامة.. لأننا أغفلنا نماذج الاشاعه التي لم يرد ذكرها في القرآن كالذي حصل بين مهاجري الحبشة، وفي عمرة القضاء.. وكذلك لم نقف ازاء كل الآيات التي عالجت موضوع الاشاعة واكتفينا ببعضها، على أمل أن نواصل الحديث لاحقاً إن شاء الله تعالى.

(٣١) فقه السيرة: م. س: ١١٠.

(٣٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ١٠٦، بيروت، ١٩٨٥.

(٣٣) محمد حسين فضل الله: من وحي القرآن ٦: ١٦١، بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م.

(٣٤) سيد قطب: في ظلال القرآن ١: ٤٥٧ (طبعة دار الشروق العاشرة)، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٣٥) من وحي القرآن: م. س: ١٦٣ ـ ١٦٥.

(٣٦) في ظلال القرآن: م. س: ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٣٧) المصدر السابق: ٤٦٢.

(٣٨) الشيخ الطوسي: «التبيان في تفسير القرآن» ٣: ٦ (طبعة بيروت).

(٣٩) من وحي القرآن: م. س: ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٤٠) بحوث في الاعلام الاسلامي: م. س: ٥٢.

(٤١) من وحي القرآن: م. س: ١٩٤ ـ ١٩٦.

(٤٢) في ظلال القرآن: م. س.

(٤٣) من وحي القرآن: م. س.

(٤٤) المصدر السابق

(٤٥) في ظلال القرآن ١: ٤٨٨.

(٤٦) من وحي القرآن ٦: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٤٧) في ظلال القرآن ١: ٤٩٠.

(٤٨) التبيان في تفسير القرآن: ٣: ١٤.

(٤٩) محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ٤: ٤٢ ـ ٤٣ (طبعة بيروت).

(٥٠) في ظلال القرآن ١: ٤٩١.

(٥١) من وحي القرآن ٦: ٢٠٢.

(٥٢) في ظلال القرآن ١: ٤٩١.

(٥٣) في ظلال القرآن: ٤٩٦، ٥١٦.

(٥٤) لمزيد من الاطلاع على وقائع معركة أُحد يراجع كتاب سيرة ابن هشام: ٣: ٦٤ ـ ١٨٧.

(٥٥) مرتكزات أساسية في الاعلام القرآني: ١٧ ـ ١٨.

(٥٦) في ظلال القرآن: ٥١٩ ـ ٥٢١.

(٥٧) المصدر السابق: ٥٤٠.

* * *

في تحريم الخمر والقمار

السيّد حسين الطباطبائي اليزدي

٤٩ـ قوله تعالى: ﴿يسألونک عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما ويسألونک ماذا ينفقون قل العفو كذلک يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾

البقرة: ٢١٩.

ـ المفردات ـ

الخمر ـ مأخوذة من مصدر خمر الشيء اذا ستره وغطّاه، وسميت بها لأنّها تستر العقل وتغطيه، وفي مجمع البحرين عن ابن العربي: انّما سمّى الخمر خمراً لأنّها تركت فاختمرت، واختمارها تغير ريحها؛ والخمر فيما اشتهر كل شراب مسكر ولايختص بعصير العنب.

وفي القاموس: والعموم اصحّ لأنّها حرمت ومافي المدينة خمر عنب وما كان شرابهم الا البسر والتمر. ويشهد له ما روى عن أبي عبدالله عليه السّلام؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الخمر من خمسة، العصير من الكرم والنقيع من الزبيب، والنقيع من العسل، والمرز من الشعير، والنبيذ من التمر.[1]

وعن الكافي والتهذيب بسند صحيح الى ابي الحسن عليه السّلام قال: ان الله لم يحرّم الخمر لاسمها ولكن حرمها لعاقبتها فما كان عاقبته عاقبة الخمر فهو خمر.[2]

الميسر ـ القمار، من اليسر وهو السهولة، لأنّه كسب بلامشقة ولاكد.

وقيل: كل شيء يكون منه قمار فهو ميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز الّذي يتقامرون به.

ويشهد له حديث جابر عن ابي جعفر عليه السّلام : لمّا انزل قـول اللّه عزّوجلّ على رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم : «انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه» المائدة: ۹۳ قيل : يا رسول اللّه ما الميسر؟ قال : كل ما تقامر به حتى الكعاب والجوز .[۳]

وعن الازهرى : الميسر ، الجزور والجمل ، كانوا يتقامرون عليه ، سمى ميسراً لانه يجزأ أجزاء ، فكأنه موضع التجزية ، وكل شيء جزأته فقد يسرته ، والياسر الجازر ، أي لانّه يجزئ لحم الجزور ثم صار يقال : للمتقامرين ، جازرين : لانّهم سبب الجزر والتجزئة .

وكان كيفيته عند عرب الجاهليه ، انّه كانت لهم عشرة قداح وتسمى الازلام والاقلام ايضاً (واحدها قدح وزلم وقلم ، وهى قطع من خشب) وقد نظم بعضهم اسماءها ؛ وقال :

كل سهام الياسرين عشرة
فأودعوها صحفا منشرة
لها فروض ولها نصيب
الفن والتوأم والرقيب
والحلس يتلوهنّ ثم النافس
وبعده مسبلهن السادس
ثم المعلّى كاسمه المعلى
صاحبه في الياسرين الاعلى
والوغد والسفيح والمنيح
غفل فما فيها يرى ربيح

سبعة لكل منها نصيب معلوم ، وثلاثة لانصيب لها ، كما بينه في النظم ، فيجعلون العشرة في كيس يجلجلها عدل منهم ويدخل يده فيخرج منها الاقداح ، فمن خرج له قدح من ذوات الانصاب أخذ نصيبه ، ومن خرج له قدح مما لانصيب له لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله ، وكانوا يدفعون تلك الانصاب الى الفقراء ، ولايأكلون منها ، ويفتخرون بذلك ، ويذمون من لم يشترك معهم .

وفي الاء الرحمن : الميسر هو القمار . وآخطأ في المصباح في قوله : الميسر قمار العرب بالازلام ولم يلتفت الى قوله تعالى في سورة المائدة: ۹۲ «انّما الخمر والميسر والانصاب والازلام» ولوكانت الازلام والمقامرة بها عين الميسر لما صح عطفها على الميسر مع الفاضل لكنها عطف عليه من باب عطف الخاص على العام لما فيه

من الاهمية. اقول: وقد عرفت أن في رواية جابر المتقدمة الميسر كل ما تقومر به.

الاثم ـ الذنب، ولاذنب الا فيما يكون ضاراً، من قول او فعل، والضرر يكون في البدن والنفس والعقل والمال. وقيل: إن الخمر تسمى إثما في اللغة؛ كما في قول الشاعر:

شربت الاثم حتى ضلّ عقلى
كذاك الاثم يصنع بالعقول

العفو ـ الفضل والزيادة على الحاجة للانسان ولمن يعوله، كما عن ابن عباس؛ وعن الباقر عليه السّلام: ما فضل عن قوت السنة؛ قال (نسخ ذلک باية الزكاة؛ وعن الصادق عليه السّلام: العفو هو الوسط من غير اسرف ولا اقتار؛ وقيل: افضل المال واطيبه؛ كما في مجمع البيان ج٢ ص٣١٠٠.

ـ القراءة ـ

قرأ حمزة والكسائي «كثير» بالثاء المنقوطة من فوق؛ والباقون «كبير» بالباء المنقوطة من تحت، وقرأ ابوعمرو وحده «قل العفو» بالرفع؛ والباقون بالنصب.

ـ النزول ـ

في مجمع البيان(٤): نزلت في جماعة من الصحابة أتوا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلّم فقالوا: افتنا في الخمر والميسر فانّها مذهبة للعقل ومسلبة للمال؛ فنزلت الآية.

وفي تفسير المراغي(٥): روى احمد عن ابي هريرة قال: قدم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عنهما فنزلت الآية؛ فقال الناس: ماحرّم علينااتّما قال: «اثم كبير» وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوم صلّى رجل من المهاجرين، وامّ الناس في المغرب، فخلّط في قراءته فانزل اللّه آية اغلظ منها «يا ايّها الّذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون» ثم نزلت آية اغلظ من ذلک: «يا ايّها الّذين آمنوا انّما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان» ـ الى قوله ـ «فهل انتم منتهون» قالوا: انتهينا يا ربّنا.

ـ التفسير ـ

قوله تعالى: «يسألونک عن الخمر والميسر» أي يسألونک عن حكم الخمر

والميسر أحلال هو أم حرام. ولايخفى انه تعالى شأنه تدرج في بيان حكم الخمر والقمار في ثلاث أو اربع حتى وصلت الى آية التحريم الصريح، وعالج في هذه الآيات داء عضالاً، يشهد باعجاز القرآن حقا، لانّه سبحانه ونعالى جعل في القرآن اساليب وطرقاً لعلاج النفس البشرية، التي يمكن استقراؤها في كثير من احكامه وفرائضه.

فان الشخص المتأمل في القرآن العظيم، يشاهد انّه عندما يعالج مرضا اعتقاديا أو اخلاقياً ليس فيه للعادة مدخل، يعالجه بالجزم دفعه واحدة ويقضى فيها قضاء حاسما باتاً منذ اللحظة الاولى، كالشرك والزنا وغيرها من امثاله؛ وعندما يكون الحكم متعلقاً بعادة شعورية أو بوضع اجتماعي، فان القرآن يتدرج في احكامه، ويأخذ الامر باليسر والتدريج، حتى يبلغ الهدف الذي يرمي اليه، في رفق وفي هوادة.

ولمّا كان في الخمر والميسر امر عادة شعورية وإلفة وعادة، والعاده تحتاج أحياناًالى التدرج في تركها، فالكتاب الاقدس أخذ ني بيان حكمها بالتدريج، فبدأ بتحريك الوجدان الديني والمنطق التشريعي في نفوس المسلمين، بان الاثم في الخمر والميسر اكبر من النفع، واشار الى ان تركهما أولى وهي اول آية نزلت في الخمر على الظاهر، ثم جاء بالخطوة الثانية، وحرّم الخمر في حال الصلاة، وهذا تضييق للمزاولة العملية لمن عادته الشرب، لان الصلاة تقع في خمسة اوقات، ومعظمها متقاربة لا تكفى ما بينهما للسكر والا فاقة.

ولمّا تمت هاتان الخطوتان بقوله: ﴿لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى﴾ النساء: ٤٢، جاء بالنهي الصريح الجازم بقوله: ﴿انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾.

يشهد على ما ذكرنا ما عن محمّد بن يعقوب مرسلا عن بعض اصحابنا؛ قال:

إنّ اول ماتزل في تحريم الخمر قول اللّه عزّوجلّ: ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما﴾ فلما نزلت هذه الآية احس القوم بتحريمها وتحريم الميسر وعلموا انّ الاثم مما ينبغى اجتنابه، ولايحمل اللّه عزّوجلّ عليهم من كل طريق لأنه قال:

ومنافع للناس» ثم انزل الله عزّوجلّ آية اخرى: «إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون» فكانت هذه الآية اشد من الاولى واغلظ في التحريم، ثم تليت بآية اخرى فكانت اغلظ من الاولى والثانية فقال عزّوجلّ: «انّما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون» فامر عزّوجلّ باجتنابها وفسر عللها التى لها ومن اجلها حرمها. ثم بين الله عزّوجلّ تحريمها وكشف في الآية الرابعة مع مادل عليها في هذه الآيه المذكورة المتقدمة بقوله عزّوجلّ: «قل انّما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها ومابطن والاثم والبغي بغير الحق» وقال عزّوجلّ في الآية الاولى: «يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس» ثم قال في الآية الرابعة «قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها ومابطن والاثم» فخبر الله عزّوجلّ ان الاثم في الخمر وغيرها وانّه حرام، وذلك ان الله عزّوجلّ اذا اراد ان يفترض فريضة انزلها شيئاً بعد شيء حتى يوطن الناس انفسهم عليها ويسكنوا الى امر الله عزّوجلّ ونهيه فيها، وكان ذلك من فعل الله عزّوجلّ على وجه التدبير فيهم اصوب واقرب لهم الى الاخذ بها، واقل لنفارهم عنها. (٦)

:- قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس- أي قل لهم: ان في تعاطي الخمر والميسر وزراً كبيراً أي عظيماً أوكثيراً من الكثرة، لان فيهما اضراراً كثيرةً ومفاسد عظيمة؛ وان كان يوجد فيهما منافع قليلة كما ذكروا في منافع الخمر، ماكانوا يأخذونه من أثمانها والا تّجاربها وطلب الثروة منها، كما انّه لاتزال موثراً كبيراً للغنى والثروة في عصرنا هذا، حتى ان الحكومات(الاسلامية) مع علمهم بمضارها، وان الشارع الاقدس الاسلامي منع عنها، لايمنعونها، لاجل منافعها من الكمارك والضرائب التى يأخذونها؛ ومن انها قد تكون علاجا لبعض الامراض، ككثير من السموم المهلكة، والمقدار الّذي يعطى حيتئذ يكون قليلا لايكفى اللّذة والنشوة والطرب.

وامّا ما ذكر في منافع القمار: هو ان يفوز الرجل بمال صاحبه من دون كد ولامشقة ويصير الفقير غنيّا بدون تعب ولانصب، خصوصاً في النوع المتداول

اليوم في البلاد الاسلامية المسمى (يا نصيب) وقد يتصور في هذا النوع ان منافعة اكثر لمواساة الفقراء فيه، لانهم يجعلون فيها حصة يعملون بها المستشفيات والمدارس وغيرها من اعمال البر، ولكن لايجدي ذلك لانه يشبه قمار الازلام المنهي عنه في الكتاب، ولهذا قال سبحانه وتعالى:

ـ واثمهما اكبر من نفعهما ـ لان المنافع التي ذكروها كلّها دنيوية، ولكن مضارها دنيوية واخروية لانها توجب سخط الله تعالى في الاخرة ولايعادله شيء من المنافع مع ان في مضارها الدنيوية ذكروا اشياء لايعادلها شيء من المنافع المذكورة للخمر، وفي استعمالها مضار ؤتر في الصحة، والمال الشخصي والامور الاجتماعية، فلا بأس بين الاشارة اليها.

اما في مضارها الصحية فقال الاطباء: إنها تفسد المعدة، وتفقد الشهوة للطعام، وتجحظ العينين، وتعظم البطن، ويمتقع اللون، وتوجب امراض الكبد والكلى، والسلّ الّذي يفتك بالبلاد الاوربية فتكا ذريعاً، على عناية اهلها بالقوانين الصحية، واسراع الهرم الى السكير حتى نقل عن بعض اطباء الالمان: ان السكير ابن الاربعين يكون نسيج جسمه كنسيج جسم ابن الستين.

وعن آخر: ان المسكر يعطل وظائف الاعضاء أو يضعفها، فهو يضعف حاسة الذوق ويحدث التهابات في الحلق، وتقرحات في الامعاء، وغدداً في الكبد، ويولد الشحم فيه فيضعف عمله، ويعيق دورة الدم وقد يوقفها أحياناً فيموت السكّير فجأة، كما يضعف مرونة الشرايين فتمتد وتغلظ حتى تفسد احيانا، فيفسد الدم ولو في بعض الاعضاء فتحدث (الغرغرينا) التى تقضى بقطع العضو الّذي تظهر فيه، حتى لايسري الفساد الى الجسم كلّه فيكون الموت.

وكذا تحدث مرونة في الحنجرة ويهيج شعب التنفس فيحدث بحة في الصوت ويكثر السعال. ويسبب انقطاع النسل، لان ولد السكير يكون ضعيفا واضعف عقلا، وهكذا يسري الضعف الى اولاده طبقة بعد اخرى حتى ينقطع النسل، ولاسيما اذا سار الابناء على سنة الاباء وهو الغالب فيهم. وعن احد الاطباء: اقفلوا لي نصف الحانات اضمن لكن الاستغناء عن

نصف المستشفيات.

ومن مفاسدها، انّها تؤثر في المجموع العصبى، وتضعف القوة العاقلة، وكثيراً ما ينتهي أمر السكير الى الجنون.

وامّا مضارها الاجتماعية، فمنها وقوع النزاع والخصام بين السكارى بعضهم مع بعض غالباً، اوبينهم وبين من يعاشرهم، لادنى بادرة تصدر من واحد منهم، فيوغلون فيه حتى يكون عداوة وبغضاء، كما أشار اليه القرآن الكريم فى سورة المائدة: «**انّما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوةوالبغضاء في الخمر والميسر**» آية: ٩٠ـ وغير خفى على كل عاقل انّها توجب الخسة والمهانة بين الناس، لانّ السكير في حال السكر تصدر منها حركات وهيئات وكلام واعمال غير عادية فيضحك منه الناس كما يضحكون من المجانين، ويستخف به كل من يراه حتى الصبيان، لانه يكون اقل عقلا منهم وابعد عن التوازن في حركاته وسكناته، ولايمكنه الضبط على اعصابه وافكاره واقواله، بل قد يفشى السّر، وهو ضرر يتولد منه اضرار كثيرة، خصوصاً اذا كان السّر يتعلق بالحكومة وسياسة الدولة ومصالح عسكرية، وقد يصير سببا لانقراض دولة أو حكومة.

ومن مضارها الروحية والدينية، ان السكران لا تتأتى منه عبادة صحيحة، ولاسيما الصلاة التي هي عمادالدين، ومن ثم قوله تعالى في سورة المائدة: «**ويصدّكم عن ذكر اللّه وعن الصلاة**» آية: ٩٢ـ أي يصدكم الشيطان بتناولها عن ذكر الصلاة.

الى غير ذلك من الاضرار التى لاتعد ولاتحصى، المعلومة عند كثير من الناس.

وقد حرّمها بعض الدول المسيحية، ومنعت استيرادها الى بلادها، ولكن مع الاسف فان الدول الاسلامية لم يرشدوا بعد الى هذه الهداية، بل نقل ان في بعض عواصم الدول الاسلامية حوانيت الخمر اكثر من المخابز، مع أنّهم اولى باتباع القرآن، والهداية بهدي الاسلام.

اللهم ارشدنا إلى سبيل هداينک والتمسک بكتابک، بحق محمّد نبيک واله اصفيائک من خلقک. هذا بالنسبة الى مضار الخمر، وامّا مضار القمار، فليست باقل من مضارها.

فمن مضارها، غرم مجهد، وعداوة بلاسبب، وضياع الوقت فيما يضر، وصرف العقل عن جادة التفكير، وداع

للكسل والخمول، ومع ذلك قد يؤدي الى خراب البيوت بغتة، وضياع اموال اربابها فجأة بالخسارة في لعب القمار، فكم ينقل من اسرة نشأت بين احضان الثروة والغنى، وانحصرت ثروتها في واحد من افرادها، فلم يكن منه الا ان اضاعها بين غمضة عين وانتباهتها، واصبحت هذه الاسرة في فقر مدقع لاتملك ما تعيش به عيش الكفاف.

ومن مفاسدها ايضاً، افساد التربية، لان المقامر غالبا ينتظر الرزق من اسباب وهمية، ويعوّد نفسه على الكسل، ويضعف القوة العقلية بترك الاعمال المفيدة من طريق الكسب الطبيعية الصحيحة، كالزراعة والصناعة والتجارة، التي هي اركان العمران.

قوله تعالى: **ـ «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو»** ـ قرئ العفو بالرفع على الخبرية أي(هو العفو) وقرئ بالنصب مفعول لمحذوف، أي(انفقوا العفو)، وقد ذكرنا معنى العفو، وبعض الروايات الصادرة من اهل العصمة وغيرهم فيه، في بيان مفردات الآية.

وذكروا في وجه نزولها، ان عمرو بن الجموح سأل: أي شيء ينفقون في الجهاد او الصدقات؛ فاجيب عنها.

: **ـ «كذلك يبين الله لكم الآيات»** ـ انّما وحّد الكاف لان الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويدخل فيه الامة ولهذا جمع الضمير في قوله: «لكم» أي على هذا النحو من البيان قضت الحكمة بان يبين لكم الاحكام التي فيها مصالحكم ومنافعكم، ويوجه عقولكم الى مافيها من منافع ومضار.

: **ـ «لعلكم تتفكرون»** ـ أي لغاية ان تتفكروا باختياركم فتأخذوا بحظكم من الرشد.

ـ الحكم ـ

وفيه مسائل:

المسألة ـ ١ : في تحريم شرب الخمر، فانّه لاخلاف فيه بين المسلمين، بل هو من ضروريات الدين، حتى ورد في الاخبار انّه اكبر الكبائر، وقد ذكر في اثاره الوضعية، انّه لوصبّ في اهل شجرة ما اكل من ثمرها، ولو وقع في بئر وقد بنيت عليه منارة ما اذّن عليها.

الى غير ذلك من الاثار الدالة عليها الاخبار. وعلى المبالغة في تحريمها لكثرة

مفاسدها. وامّا استفاة تحريمها من الاية المذكورة، فقد ذكر عن وجوه.

منها ـ من حيث انّ فيه إثما ونحن مكلفون باجتناب المآثم كلّها وتحريمها علينا، كما هو صريح قوله ثم في سورة الاعراف: «قل انّما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها ومابطن والاثم والبغي بغير الحق» آية: ٣٣ـ، ومن كون اشتمالها على المنفعة، لايفيد الاباحة، لما ذكر من اشتمالها على الاثم الذي يجب اجتنابه.

ومنها ـ انّ الاثم المذكور في الآية، امّا ان يراد به العقاب، أو ما يستحق به العقاب من الذنوب، ولايخلو من هذين وايّهما كان فلا يصح ان يوصف به الا المحرّم.

ومنها ـ انّ الآية دلت على تحريم الخمر مؤكداً ومعللاً، لانّه تعالى شأنه قال: «وفيهما اثم» وهو الذنب، واكد بالكبير أو الكثير، على القراءتين، ويقوله: «اثمهما» وبين انّه مشتمل على مفاسد كثيرة، وهي اكثر مما يتخيل انّه منفعة في العاجلة، والحكمة تقتضى تحريم ما فيه المفسدة فكيف المفاسد، كما هو مبين مشروحاً ومفصلاً في علم الاصول.

هذا من جهة دلالة هذه الآية على تحريمها، وفي القرآن الكريم آيات اخرى دلالتها اصرح لاخفاء فيها، كما تقدم بعضها، وسيأتي بيان دلالتها في مواردها ان شاء اللّه.

وامّا الأخبار الدالة على حرمة الخمر فكثيرة مستفيضة بل متواترة من الطريقين

منها ـ صحيحة ريّان بن الصلت قال: سمعت اباالحسن الرضا عليه السّلام يقول: مابعث اللّه نبيّا الابتحريم الخمر، وان يقرللّه بالبداء انّ اللّه يفعل مايشاء، وان يكون في تراثه الكندر.(٧)

وصحيحة سعيد الا سكاف عن ابى جعفرعليه السّلام قال: من شرب مسكراً لم تقبل منه صلاته اربعين يوماً، وان عاد سقاه اللّه من طينة خبال؛ قال: وما طينة خبال؛ قال: ماء يخرج من فروج الزناة.(٨)

وحسنة زرارة قال: قال ابوجعفر عليه السّلام: ما بعث اللّه عزّوجلّ نبيّا قط الا وفى علم اللّه انه اذا أكمل دينه كان فيه تحريم الخمر ولم تزل الخمر حراما، وانّما ينقلون من خصلة الى خصلة، ولو حمل ذلك عليهم جملة لقطع بهم دون المدين؛ قال: وقال ابوجعفر عليه السّلام: ليس احد ارفق من اللّه عزّوجل فمن رفقه تبارك وتعالى انه

نقلهم من خصلة، ولو حمل عليهم جملة لهلكوا.[9]

الى غير ذلك من الاخبار الكثيرة الدالة على ذلك الموجودة في الكتب الاربعة.

وروى البخاري في صحيحة ـ باسناده ـ عن ابن عمر: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الاخرة.[10]

وفيه ايضاً ـ عن انس بن مالك قال: كنت أسقي اباعبيدة واباطلحة وابي بن كعب من فضيح زهووتمر، فجاءهم آت؛ فقال: ان الخمر قد حرّمت؛ فقال ابوطلحة: قم يا انس ناهرقها، فأهرقتها.[11] الى غير ذلك فيه وفي غيره من صحاحهم الست.

هذا ولاخلاف بين اصحابنا الامامية، ان كل مسكر حرام من أي شيء اخذ، ولافرق بين قليله وكثيره.

وفي الجواهر: وكذا لاخلاف في انّه يحرم كل مسكر، ولوقلنا بعدم تسميته خمراً، بل الاجماع بقسميه عليه ـ الى ان قال ـ: والمراد بالمسكر ما وجد فيه طبيعة الاسكار ولو بالكثير منه، فانّه يحرم قليله ايضاً، بلاخلاف بل الاجماع بقسميه عليه.

وامّا فقهاء العامة فجمهورهم على ذلك، الا ان القرطبي في تفسيره نقل عن ابي حنيفة والثوري وابن ابي ليلى وابن شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة، انّهم قالوا: ما اسكر كثيره من غير خمر العنب فقليله حلال، واذا اسكر منه احد دون ان يتعمد الوصول الى حد السكر فلا حدّ عليه.

ويدل على خلاف مازعموه؛ الكتاب والسنة واجماع الامامية.

امّا الكتاب فقوله تعالى في سورة المائدة: «**انّما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة**» آية ـ ٩٢ ـ

وجه الدلالة فيها انّه سبحانه وتعالى علل تحريم الخمر في الآية الشريفة بالافعال المذكورة، ولاشك ان هذه معللة بالسكر، وهذا التعليل صريح لاخفاء فيه، فتكون هذه الآية نصّاً في ان حرمة الخمر معللة بكونها مسكرة، فحينئذ اما أن يجب القطع بان كل مسكر خمر، أو ان لم يكن كذلك فلابد من ثبوت هذا الحكم في كل مسكر، ولافرق بين قليله وكثيره، لان اطلاقه يشتمل الكثيرة والقليل ولادليل على تقييدة، وكل من ترك العناد وانصف، يرى

ان الآية ظاهرة جليّة في اثبات المطلوب.

واما الاخبار الدالة على ان المسكر كلّه حرام، وان الخمر هو المسكر، وانّه لافرق بين كثيره وقليله، فكثيرة مستفيضة من الطريقين الخاصة والعامة.

منها ـ رواية معاوية بن وهب قال: قلت لابى عبدالله عليه السّلام: انّ رجلاً من بني عمي وهو من صلحاء مواليك أمرنى ان اسألك عن النبيذ واصفه لك؟ فقال له: أنا اصفه لك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كل مسكر حرام فما اسكر كثيره فقليله حرام؛ قال: قلت فقليل الحرام يحلّه كثير الماء، فرد علي بكفيّه مرتين ان لا.[12]

وصحيحة عطاء بن يسار، عن ابي جعفر عليه السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كل مسكر حرام، وكل مسكر خمر.[13] وصحيحة صفوان الجمّال قال: كنت مبتلى بالنبيذ معجبا به فقلت لابي عبدالله عليه السّلام: جعلت فداك أصف لك النبيذ قال: فقال لى: بل أنا اصفه لك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كل مسكر حرام وما اسكر كثيره فقليله حرام... الحديث.[14]

الى غير ذلك من الاخبار الكثيرة المستفيضة من طريق اهل العصمة عليهم السّلام.

واما عن طريق غيرهم من الجمهور:

فمنها ـ ما اخرجه مسلم في صحيحه عن ابى موسى الاشعرى قال: بعثنى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنا ومعاد بن جبل الى اليمن فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان شرابا يصنع بأرضنا يقال له المرز من الشعير وشراب يقال له التبع من العسل، فقال: كل مسكر حرام.[15]

وفيه ايضا ـ باسناده ـ عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كل مسكر خمر وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو بد منها لم يتب لم يشربها في الاخرة.[16]

وفيه ايضا ـ اخرجه عن جابر: ان رجلا قدم من جيشان، وجيشان من اليمن، فسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن شراب يشربونه بارضهم من الذرة يقال له: المرز؛ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: او مسكر هو؟ قال: نعم؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كل مسكر حرام، ان على الله عزّوجلّ عهداً لمن يشرب المسكر ان يسقيه من طينة الخبال؛ قالوا: يا رسول الله وما

طينة الخبال؛ قال: عرق اهل النار، أوعصارة اهل النار.[17]

ومنها ـ ما اخرجه ابن ماجة القزويني في سننه عن نعمان بن بشير يقول: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: إن من الحنطة خمراً ومن الشعير خمراً ومن الزبيب خمرا ومن التمر خمرا ومن العسل خمرا.[18]

وفيه ايضاً ـ اخرجه عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: كل مسكر حرام، وما اسكر كثيرة فقليله حرام.[19]

وفيه ايضاً ـ اخرجه عن جابر بن عبداللّه: ان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما اسكر كثيره فقليله حرام.[20]

الى غير ذلك من الاخبار الكثيرة المتواترة أو قريب منها، بان الخمر له اقسام، وجميع اقسامه حرام وانه لافرق بينه وبين سائر المسكرات، بل في بعضها انه هو المسكر، وان قليله ككثيره في الحرمة، والعدول عن هذه الاخبار الصريحة، واطلاق الآية الشريفة، الى القول بان قليله من غير العنب حلال وجائز، تعسف وعناد. وخروج عن ظاهر الكتاب بلادليل، عصمنا اللّه وجميع المسلمين منه.

* * *

المسألة ـ ٢: في قوله تعالى: «الميسر» وهو القمار بسائر انواعه كالنرد والشطرنج، وبه قال اكثر المفسرين، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السّلام، كما تقدّم.

وفي الجواهر: قال في المنتهى: القمار حرام بلاخلاف بين العلماء؛ وكذا ما يؤخذ منه ـ الى ان قال ـ فان جميع انواع القمار حرام من اللعب بالنرد والشطرنج والاربعة عشر واللعب بالخاتم حتى لعب الصبيان بالجوز.

وفي الرياض: بلاخلاف في شيء من ذلك، بل عن هى وفي غيره الاجماع عليه، وهو الحجة بعد الكتاب والسنة المستفيضة.

وقال فخر الدين الرازي في تفسيره[21]: عن ابن سيرين ومجاهد وعطاء: كل شيء فيه خطر فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز؛ ثم قال: وقال الشافعي رضي الله عنه: اذا خلا الشطرنج عن الرهان واللسان عن الطغيان والصلاة عن النسيان لم يكن حرام وهو خارج

عــن الميسر .

اقول: وقـد دلت الاخبـار الكثيرة على ان الشطرنج هو الميـسـر، من الـطريقـين الخاصة والعامة .

كـرواية ابي جـارود عن أبي جـعفـر عليه السّلام في قـول الله تـعـالى: «انّمـا الخـمـر والميـسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فـاجتنبوه لـعلّكم تفلحون» قـال: امّا الخـمر فكل مـسكر من شراب ـ الى ان قـال ـ وامّا الميـسـر فـالنرد والشطرنج وكل قـمـار ميسر . . . الحديث . [٢٢]

ومـا رواه فــخــر الدين الـرازي في نفسيره[٢٣] عن النبيّ صلّى الله عليـه وآله وسلّم: اياكـم وهـاتين الكـعبـتـين فـانهـمـا مـن ميـسـر العجم .

وفـيه ايضـاً عن على عليه السّلام انّه قـال: النرد والشطرنج من الميسر .

وفي تفـسـير القـرطبي[٢٤] قــال ابن عبـاس: كـان الرجل في الجـاهليـة يخـاطر الرجل على اهله ومـاله فايهـمـا قـمر صـاحبـه ذهب بماله واهله، فنزلت الآية .

وفـيه ايضـاً ـ وقال مـجـاهد ومحـمّد بن سيرين والحـسن وابن المسيب وعطاء وقتادة ومـعـاوية بن صـالح وطاوس وعـلى بن ابي طالـب رضي الله عنه وابن عبـاس ايضـاً: كل شيء فيـه قمار من نرد وشـطرنج فهو الميـسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب، الا ما ابيح من الرهان في الخيل والقرعـة فى افراز الحقوق وقال مـالک: الميسر ميسـران ميسر اللهو، وميسر القمار، فمن ميسر اللّهو النرد والشطرنج والملاهي كلّها؛ وميـسـر القمار: مايتخاطر الناس عليه .

قــال عـلى بن ابى طالـب: الشـطرنج ميـسر العجم وكل ما تقرمر به فهو ميسر عند مالک وغيره من العلماء. انتهى .

اقـول: بما ذكـر من الروايات واقـوال المفـسرين والفـقهاء، ظـهر فـساد من زعم: ان اللعب بالشطرنج بدون رهان جـائز، لانّه قـد ظهــر ممـا تقــدم ان الـشطرنج هـو من الميـسـر، فـاطلاق الآية والنصـوص الواردة بتحريم الميسـر مطلقا تشمله، ولادليل على تقـييـده بالخـصـوص في صـورة كـونه مع الرهان وهذا مما لاخفاء فيه .

ـ اليانصيب ـ

وقـد ظهـر في عـصـرنـا نوع من القـمـار يسـمـونه(اليـانصيب) وكـان مـعـمـولاً به في اوربـا، ويســمــونـه بـالانـكليــزى

(لوترى=LOTIERY) ولابأس بذكر اقسامه وبيان احكامه.

منها ـ مايتعاطاه بعض التجار لصرف اموالهم البائرة أو غيرها، كما اذا عرض شخص داره أو سيارته أو أمواله التجارية، مدة من الزمان ولم يحصل له المشترى، فيقدر قيمته مثلا بالف دينار، فيوزع هذه القيمة الى مائة بطاقة أو الفا فيبيع البطاقات على الاشخاص، فحينئذ يضرب القرعة على طريق خاص معمول بينهم، فيربح أحد المشتركين جميع المال ويخسر الباقون.

وهذا تقريباً بعينه الميسر ـ الازلام ـ الذي كان مستعملا في الجاهلية قبل الاسلام، ونهى القرآن الكريم عنه بقوله: **«انّما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون»** وقد ذكرنا كيفيته قمار الازلام في مفردات الآية.

ومنها ـ عبارة عن مال كثير تجمعه بعض الحكومات أو الجمعيات أو الشركات من الاف الناس، كمائة الف دينار، وتجعل جزءاً كبيراً من هذا المال لعدد قليل من دافعيه، كمائة شخص مثلا يقسم بينهم بطريقة خاصة، وتأخذ هي الباقي، أو تجعله لمصالح عامة، كانشاء المستشفيات والمدارس أو سائر الاعمال الخيرية، أو المصالح الدولية.

وترتيب ذلك، ان تطبع اوراقا صغيرة، كانواط المصارف المالية، وتسمى اوراق اليانصيب وتجعل ثمن كل واحدة منها ديناراً، أو نصف دينار مثلا يطبع عليها، وتجعل الجزء الكبير من المال المجتمع كالنصف أو الثلث أو الربع، ربحا لمائة شخص أو أقل أو اكثر من المشتركين، وتعرف نصيبهم من الارقام العددية التى تطبع على الورقة المشتراة وتسمى(نمرة) ويتعين في السحب نصيب كل من الرابحين على اختلاف بينهم في الربح، والرابح الاول الذي يربح كثيراً، كألف دينار مثلاً يسمونه(الممتاز) وطريقة سحبهم على ما سمعت، انّه يتخذون قطعاً صغيرة من المعدن ينقش في كل واحدة منها عدد من ارقام الحساب المطبوع على اوراق بطاقات اليانصيب، ويضعونها في وعاء ويسحبونها منه، وهذا القسم من اليانصيب ايضاً يشبه الميسر ـ الازلام ـ التى كان العرب في الجاهلية يقامرون به، والظاهر انّه ايضاً حرام، لشمول النهى الوارد في الكتاب

عليه. نعم يمكن ان يقال: ان هذا النوع لايظهر فيه ما في سائر انواع القمار من ضرر العداوات والبغضاء والصد عن ذكر الله «عن الصلاة» لان دافعي المال فيه لايجتمعون كلّهم عند السحب، وقد يكونون في بلاد أو اقطار بعيدة عن موضعه، ولايعملون له عملا آخر فيشغلهم عن الصلاة أو ذكر الله تعالى كقمار الموائد ونحوه، ولكن فيه مضار القمار الاخرى، واظهرها أنّه أكل المال بالباطل، والعمومات الدالة على حرمته وعدم جواز أكله يدل عليه.

وقد قال بعض اساتيذنا: انّه اذا كان قصد الباذلين والمشترين للاوراق المذكورة الاعانة للفقراء والامور الخيرية، ولم يكن في قصده الربح والمقامرة، ففي هذه الصورة لا اشكال في اشتراء الاوراق، والمال الّذي يصيبه حكمه حكم المال المجهول المالك، ويجوز له التصرف فيه باذن الحاكم الشرعي ان كان فقيراً.

هذا ولكن لايخفى ان غالب المشترين لهذه الاوراق، بل كلّهم نظرهم الى المال والربح الّذي يمكن ان يصيبهم، فاذا لم يكن فيه احتمال الربح لم يقدموا على شرائه.

ومع انّه من مفاسد هذا القسم انّ في الغالب يقع الضرر على الفقراء، لانّهم اكثر المشترين لهذا الاوراق، بأمل ان يصيبهم الرقم الممتاز فيصيروا اغنياء بهذه الوسيلة، فعلى كل حال الاجتناب منه اقرب الى الصواب، والله العالم.

وهناك قسم آخر من اليانصيب تستعمله الشركات وارباب المجلات، للدعاية في ترويج امتعتهم ومجلاتهم، وكيفية ذلك ان يجعلوا هدايا من امثال السيارات والمكائن والاقلام وغيرها لبعض المشترين لامتعتهم، أو المشتركين لمجلاتهم، يعينونه لهم بالقرعة على كيفية خاصة.

وهذا القسم من اليانصيب على الظاهر لا اشكال ولاخلاف في جوازه، والمال الّذي يأخذه المشترى أو المشترك، حلال طيب له، لانّه لايدخل في أي قسم من اقسام الميسر والقمار، ولاتشمله الآية والعمومات الدالة على حرمة القمار، ولايكون اكلاً للمال بالباطل، لانّه هدية من قبل الشركة أو صاحب المجلة له، هذا والله العالم.

المسألة ـ٣: في قوله تعالى: «يسألونك ماذا ينفقون قل العفو...» الآية

اختلف المفسرون في معنى العفو هنا على اقوال:

القول الاول ـ ان يكون بمعنى الوسط من غير اسراف ولااقتار، وهو المروى عن ابي عبدالله عليه السّلام كما في مجمع البيان[٢٥]. وبه قال عطاء وحسن؛ كما في تفسير القرطبي[٢٦] واحكام القرآن لابن العربي[٢٧] وتفسير الطبري (٢ : ٣٦٥).

الثاني ـ انّه مافضل عن قوت السنة، ونسخ ذلك بأية الزكاة، وهو المروى عن ابي جعفر الباقر عليه السّلام، كما في مجمع البيان.[٢٨]

وفي تفسير القرطبي[٢٩]: قال الكلبي كان الرجل بعد نزول هذه الآية اذا كان له مال من ذهب أو فضة أو زرع أو ضرع نظر إلى ما يكفيه وعياله لنفقة سنة امسكه وتصدق بسائره، وأن كان ممن يعمل بيده امسک مايكفيه وعياله يوما وتصدق بالباقي، حتى نزلت آية الزكاة المفروضة فنسخت هذه الآية. وبه قال ايضاً ابن عباس في احد اقواله؛ كما في احكام القرآن لابن العربي.[٣٠]

الثالث ـ الصدقة من ظهر غنى، وهو المروى عن الصادق عليه السّلام في رواية عبدالاعلى مولى آل سلم، عنه عليه السّلام قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: افضل الصدقة عن ظهر غنى، كما في قلائد الدرر.

وفي ما رواه القرطبي في تفسيره[٣١]: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: خير الصدقة ما انفقت عن غنى.

الرابع ـ أطيب المال وافضله؛ كما في مجمع البيان.[٣٢]

الى غير ذلک من الاقوال.

اقول: الظاهر انّ الاولى من التأويل القول الادل، وهو الوسط من غير اسراف ولااقتار لان الروايات والشواهد على هذا القول اكثر، كرواية ابن ابي عمير، ورواية جميل بن دراج، ورواية عبدالرحمن، المذكورة في تفسير البرهان.[٣٣]

وبه يمكن الجمع بين بعض الروايات المتناقضة، لان صدق الاسراف والاقتار يختلف باختلاف الازمان والموارد والمقتضيات.

وقد ورد عن الصادق عليه السّلام في تفسير قوله تعالى في سورة الانعام آية ـ١٤١ـ: «ولاتسرفوا» قال: كان فلان بن فلان الانصارى سمّاه، وكان له حرث فكان

اذا اخذ يتصدق به ويبقى هو وعياله بغير شيء، فجعل اللّه عزّوجل ذلک اسرافا.[٣٤]

وما روى عن جابر بن عبداللّه قال كنا عند رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وجاء رجل، وفي لفظ ابوحصين السلمى، بمثل بيضة الحمام من ذهب فقال يا رسول اللّه اصبت هذه من معدن، فخذها، فهي صدقة ما املک غيرها، فاعرض عنه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أتاه من خلفه فاخذها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، فحذفه بها فلوا اصابته لاو جعته أو لغفرته، فقال: يأتى احدكم بما يملک فيقول هذه صدقة ثم يقعد يستكف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول.

وفي رواية: ان رجلا اتى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ببيضة من ذهب اصابها في بعض الغزوات؛ فقال خذهامنّى صدقة، فاعرض عنه، فاتاه من جانب آخر فقال له مثله، فاعرض عنه، ثم اتاه من جانب آخر فاعرض عنه، ثم قال: هاتها مغضبا فاخذها وحذف بها حذفا لو اصابته لشجته أو عقرته؛ ثمّ قال: يجيء أحدكم بماله كلّه يتصدق به ويجلس ويتكفف الناس، انّما الصدقة عن ظهر غنى.[٣٥]

هذا وقد وردت اخبار كثيرة تدل على مدح الصدقة عن جهد واحتياج، واظهر مصاديقه فعل اميرالمؤمنين واهل بيته عليهم السّلام، حتى نزلت سورة(هل اتى).

ولايخفى أنّ في بعض الموارد، لوجود بعض المقتضيات والجهات، انفاق المال كلّه جميعاً لايكون اسرافاً بل هو الوسط، كما فعله اميرالمؤمنين عليه السّلام في موارد متعدده منها في مورد نزول سورة(هل اتى)، وفي بعض موارد اخرى، لاينبغى التصدق بجميع المال بحيث يبلغ الجهد، فيما اذا لم يتمكن من الصبر على ذلک، أو يقع في محاذير ينافي شؤونه وحيثياته، بل قد يصير حراما فيما اذا استلزم ذلک تضييع واجبى النفقة حقّهم، أو اهلاك نفسه.

فعلى هذا ظهر ان الآية دلت على الالتزام بالاوسط في الانفاق كلّه، واجباً كان أو مندوباً، صدقة وغيرها، وهو طريق السلامة والامن من الافراط والتفريط الموبقين، واللّه العام.

وعلى القول الرابع، بان يكون المراد من«العفو» اطيب المال وافضله، يمكن الاستدلال بالاية على استحباب الصدقة بالمال اللذيذ والشهي، ولذلک نقل عن

الحسن عليه السّلام، كان يتصدق بالسكر فقيل له في ذلك؛ فقال: إني احبه وقال الله تعالى: «لن تنالوا البر حتّى تنفقوا مما تحبون». [٣٦] كما في كنز العرفان ونقل مثله عن ابي عبدالله عليه السّلام ايضاً.

الهوامش

(١) التهذيب ـ ج٢ ـ كتاب الاطعمة ـ ص٣٠٧ ـ.

(٢) نفس المصدر ـ ص٣١٠ ـ، الكافي ٦ : ٤١٢.

(٣) تفسير البرهان ١ : ٢١٢ ـ عن محمّد يعقوب ـ .

(٤) ٢ ـ : ٣١٦.

(٥) ٢ ـ : ١٣٨.

(٦) تفسير البرهان ١ ـ: ٢١١، وفي الكافي ـ ٦ : ٤٠٦ ـ في ابواب الخمر ـ.

(٧) التهذيب ـ كتاب الصيد والذباحة ـ باب الاطعمة ـ ٢ : ٣٠٧.

(٨) نفس المصدر المتقدم : ٣٠٨ ـ وفي الكافي ٦: ٤٠٠ ـ في ابواب الخمر ـ.

(٩) ٢ : ٣٠٧ باب ان الخمر لم تزل محرما.

(١٠ـ١١) ٧ : ١٣٥ ـ ١٣٦.

٣ ـ : ٥٢.

(١٢, ١٣, ١٤) التهذيب ـ باب الاطعمة والاشربة ٢ : ٣١٠ ـ الكافي / كتاب الاشربة ٦: ٤٠٨.

(١٥, ١٦, ١٧) ٢ ١٣٠ ـ ١٣١ ـ باب كل مسكر خمر ـ.

(١٨, ١٩, ٢٠) ٢: ١٧١ الى ١٧٣ ـ ابواب الاشربة.

(٢١) ٦ : ٤٨.

(٢٢) الوسائل ـ كتاب التجارة ـ باب تحريم اللعب بالشطرنج : ٦٠٦.

(٢٣) ٦ : ٤٨.

٣ : ٥٢.

(٢٤) ٣ : ٥٢.

(٢٥) ٢ : ٣١٦.

(٢٦) ٣ : ١٥٣.

(٢٨) ٢ : ٣١٦.

(٢٩) ٣ : ٦٢.

(٣٠) ١ : ١٥٣.

(٣١) ٣ : ٦١.

(٣٢) ٢ : ٣١٦.

(٣٣) ١ : ٢١٢.

(٣٤) تفسير البرهان ١ : ٥٥٦.

(٣٥) الدر المنثور ج١ : ٢٥٤.

(٣٦) الوسائل ٢ باب استحباب التصدق.

* * *

كتاب المفردات للراغب الاصفهاني
عرض وتحليل

د. مرتضى الايرواني

ألف الراغب الأصفهاني كتاباً في شرح ألفاظ القرآن الكريم وبيان تفسيرها لم يؤلَّف على منواله قبله، لأنّ الراغب حاول استقصاء كلمات القرآن الكريم كلمةً كلمةً -بما في ذلك حروف المعاني- ليفسّرها، وليذكر أقوال العلماء فيها. والعلماء وإنّ عُنوا بذكر معاني مفردات القرآن الكريم إلاّ أنّهم لم يفردوا لها تصنيفاً كتصنيف الراغب.

وسنعرض في بحثنا هذا لكتاب الراغب من خلال ثلاثة موارد هي:

١ـ ترتيب مادة الكتاب.

٢ـ كميّة مادة الكتاب.

٣ـ كيفية عرض مادة الكتاب.

ولكننا قبل الخوض في هذا نرى من الأفضل تكملةً للبحث أنّ نتعرض إلى مسألة هامّة وهي سنة وفاة الراغب.

سنة وفاة الراغب:

اختلف المورّخون في تحديد سنة وفاة أبي محمّد الحسين بن محمّد بن المفضّل الأصفهاني المعروف بالراغب. فقد ذكرت تواريخ مختلفة لوفاته يمكن حمل بعضها على بعض، فقد ذكر كلّ من حاجي خليفة[١] والشيخ آغابزرك الطهراني[٢] والزركلي[٣] أنّها كانت سنة ٥٠٢هـ.

وذكر حاجي خليفة في موضع آخر أنّها سنة نيّف وخمسمائه.[٤]

وذكر الشيخ عبّاس القمي في سفينة البحار أنّها كانت بعد المئة الخامسة.[٥]

وذكر صاحب روضات الجنّات[٦] والشيخ آغابزرك الطهراني -في موضع

آخر -[٧] ناقلين عن «تاريخ أخبار البشر» والشيخ عبّاس القمي في الكنى والألقاب[٨] أنّها كانت سنة ٥٦٥هـ.

وذكر السيوطي أنّ الراغب الأصفهاني كان في أوائل المئة الخامسة.[٩]

ويظهر من استعراض هذه الأقوال أنّ بعض المصادر ذكر كلّ منها للراغب أكثر من تاريخ وفاة واحدة، وذلك لمناح متعددة، فصاحب كشف الظنون عند ذكره لكتاب «أخلاق الراغب» ذكر أنّه توفي سنة نيّف وخمسمائة،[١٠] بينما حددها عند ذكره لكتاب «مفردات الراغب» بأنّها سنة ٥٠٢هـ.[١١] وصاحب الذريعة ذكر تاريخين كذلك لوفاة الراغب اولّهما سنة ٥٠٢هـ عند ذكره لكتاب «محاضرات الأدباء»،[١٢] وثانيهما سنة ٥٦٥هـ عند ذكره لـ«مفردات القرآن»[١٣] و«أخلاق الراغب»[١٤] و«الذريعة إلى مكارم الشريعة»[١٥] وأغرب من هذا أنّ المرحوم آغابزرك الطهراني نسب كلا التاريخين لصاحب «تاريخ أخبار البشر». ولم يتيسّر لي الإطلاع على الكتاب لعدم وجوده فيما رجعت إليه من مكتبات، فلا أدري هل اختلاف التاريخين راجع لصاحب «تاريخ أخبار البشر» أو للشيخ الطهراني؟

وإذا أردنا أن نجمع بين هذه الروايات لمعرفة التاريخ الصحيح لوفاة الراغب فإنّ أوّل رواية تسقط من الحساب، رواية صاحب «تاريخ أخبار البشر» القائلة بأنّها سنة ٥٦٥هـ، لأنّه عقّب عليها بقوله «وذلك قبل وفاة جار الله الزمخشري». ومن المعلوم أنّ الزمخشري توفى سنة ٥٣٨هـ ولم أرمن ذكر لوفاته تاريخاً آخر رغم بحثي عنه، فهذه الرواية تحمل في طيّاتها مايجعلها مُستبعدة.

أما رواية السيوطي بأنّه كان في أوائل المئة الخامسة. فيبدو منها أنّ مقصود السيوطي أوائل المئة السادسة، لأنّ المئة الخامسة هي التي تبدأ بـ«٤٠٠» وتنتهي بـ«٥٠٠»، فمابعد الخمسمائة يعتبر من المئة السادسة، ولعلّ مقصود السيوطي كان في أوائل مابعد المئة الخامسة.

ولربّ سائل يسأل فيقول: لعلّ مقصود السيوطي أنّ الراغب كان في أوائل الأربعمائة، ولم يقصد أن يذكر تاريخ وفاته فلعلّه كان في أوائل مابعد الأربعمائة وعاش للقرن السادس فلاتنافي، ورواية السيوطي حينئذ مستقيمة. الجواب على هذا أنّ أحداً

من المهتّمين بترجمة الراغب لم يذكر شيئاً عن حياته سوى وفاته، فمن المُستبعد أن يكون مقصود السيوطي من قوله هذا أنّ الراغب كان في أوائل القرن الخامس وعاش للقرن السادس، إضافة إلى أنّ الأخذ بهذا القول يجعل الراغب من المعمّرين ولم يذكر أحد ذلك. ثُمّ إنّ هذا يقال عادة عند مايكون تاريخ الوفاة مختلفاً فيه ولايمكن الجزم به.

فإذا أقررنا بأنّ مقصود السيوطي أنّ الراغب كان في أوائل القرن السادس وهذا يعني أنّه كان مابعد الخمسمائة، تقاربت حينئذ الروايات، مابعد الخمسمائة، نيّف وخمسمائة، اثنتين وخمسمائة، وهذه تواريخ متقاربة جداً فيمكن الاطمئنان إلى الرواية القائلة بأنّ وفاته كانت سنة اثنتين وخمسمائة، لأنّه ينطبق عليها القول بأنّها بعد الخمسمائة، ونيّف وخمسمائة خصوصاً إذا أخذنا بقول المبرّد من أنّ النيّف من الواحد إلى الثلاثة.[١٦]

ترتيب المادّة:

رتّب الراغب الاصفهاني مادة كتابه حسب الترتيب الالفبائي مراعياً في ذلك الحروف الأوائل فالثواني فالثوالث من حروف الكلمة الأصليّة دون الزائدة كما ذكر الراغب ذلك في مقدّمة كتابه.[١٧] ولكن يلاحظ على ترتيب الراغب مايلى:

١ـ راعى الراغب تقديم الهمزة فيما بُدئ بها، أى انّه قدّم المواد الّتي تبدأ بالهمزة كـ«أبو»، «أبد»، «أبل» و . . . ولكنّه لم يُراع هذا في الهمزة الوسطية والّتي في آخر الكلمة، أى لم يقدّم الكلمات التي تحوى الهمزة في وسطها أو آخرها في أول الكلمات في مادّتها، فحسب الترتيب الطبيعي يجب في باب الباء مثلاً تقديم «بدأ» على «بدر» و«بدع» و«بدل» وفي باب السين تقديم «سأل» على «سبب» و«سبت» و«سبح»، ولكنّا نراه جعل الهمزة الوسطيّة والّتي في آخر الكلمة مع الواو والياء، أي جعلها جزء حروف العلّة، ولعلّ كثرة التغيير الّذي يحصل في الهمزة الوسطية والّتي في آخر الكلمة هو الّذي حداً بالراغب إلى هذا.

٢ـ بدأ في كلّ باب بالمضاعف قبل غيره إلاّ في «أبّ» حيث أخّره عن «أبا» و«أبى»، و«ثلّ» أخّره عن «ثلث».

٣ـ قدّم باب الواو على باب الهاء، أى كان ترتيبه للأبواب هو: باب الواو، باب

الهاء، باب الياء، ولكنّه لم يُراع ذلك عند مارتّب مواد كتابه في كلّ باب، فجعل الهاء قبل الواو والياء.

٤ـ حصل في ترتيب مواد الكتاب في كلّ باب خلط، فقدّم مارتبته التأخير وأخّر ما رتبته التقديم، وأكثر ماحصل ذلك في الكلمات الّتي تحوى الواو والهاء والياء بنحو يمكن معه القول بأنّه لم يخلُ باب من أبواب كتابه من هذا. وما احتمله محقق كتاب المفردات من أنّ هذا الأمر سببه نَسخُ الكتاب[١٨] بعيد، لأنّه لو كان كذلك فلم كان الخلط في كلّ باب؟ فإن قيل إن هذا -وجود التقديم والتأخير في كلّ باب- أدعى إلى قبول الاحتمال بأنّه راجع الى الناسخ، لأنّه لم يستطع تمييز الواويّ من اليائي. أجيب بأنّ الخلط لم ينحصر بهذا بل تعدّاه إلى موادّ ليس فيها واو أو ياء كما سيظهر من فهرس ذلك، بالأضافة الى أنّ الناسخ ليس من شأنه تغيير ترتيب مايكتبه عادة بل ينسخ مايجده أمامه.

وها هو درج للكلمات الّتي لم يّراع فيها الترتيب الالفبائي:

١ـ «أبا»، «أبى»، «أبّ» ومن المعلوم أنّ «أبا» من «أبو» والترتيب المعروف هو «أبّ».

٢ـ «أخذ»، «أخ»، «أخر» والترتيب المعروف «أخذ»، «أخر»، «أخ» ولوجعلنا «أخ» من المضاعف جدلاً لكان الترتيب «أخ»، «أخذ»، «أخر».

٣ـ «أدّ»، «اداء»، «أدم».

٤ـ «أسف»، «أسر».

٥ـ «أوب»، «أيد»، «أيك»، «أل»، «أول»، «أيم»، «أين»، «أوّه»، «أيّ».

٦ـ «بتك»، «بتر»، «بتل».

٧ـ «بخل»، «بخس»، «بخع».

٨ـ «باب»، «بيت»، «بيد»، «بور».

٩ـ «بيض»، «بيع»، «بال».

١٠ـ «تبع»، «تبر».

١١ـ «تضث»، «ترب».

١٢ـ «ثلث»، «ثلّ».

١٣ـ «جيب»، «جوب»، «جأر»، «جوز»، «جاس»، «جوع»، «جاء»، «جال»، «جوّ».

١٤ـ «حصن»، «حصل».

١٥ـ «حيد»، «حيث»، «حوذ»، «حاج»، «حير».

١٦ـ «حيض»، «حائط».

١٧ـ «حيف»، «حاق»، «حول»،

«حين»، «حوايا»، «حوا».

١٨ـ «خاب»، «خير»، «خوار»، «خوض»، «خيط»، «خوف»، «خيل»، «خول».

١٩ـ «دلو»، «دلك».

٢٠ـ «دوم»، «دين»، «دون».

٢١ـ «رعى»، «رعن».

٢٢ـ «ريب»، «روح»، «رود»، «ريش»، «روض»، «ريع»، «روع»، «روغ»، «رأف»، «روم»، «رين».

٢٣ـ «سيب»، «ساح»، «سود»، «سار»، «سور»، «ساعة»، «ساغ»، «سوف»، «سؤف»، «سول»، «سال»، «سأل»، «سام»، «سأم»، «سين».

٢٤ـ «شوب»، «شيب»، «شيخ»، «شيد»، «شور»، «شيط»، «شوظ»، «شيع»، «شوك»، «شأن»، «شوى».

٢٥ـ «صرف»، «صرم»، «صرط»، «صطر»، «صرع».

٢٦ـ «صوت»، «صاح»، «صيد»، «صير»، «صاغ»، «صوغ»، «صوف»، «صيف»، «صرم»، «صيص».

٢٧ـ «طيب»، «طود»، «طور»، «طير»، «طوع»، «طوف»، «طوق»، «طول»، «طين».

٢٨ـ «عبد»، «عبث».

٢٩ـ «عاب»، «عوج»، «عود»، «عوذ»، «عور»، «عير»، «عيس»، «عيش»، «عوق»، «عول»، «عيل»، «عوم»، «عون»، «عين».

٣٠ـ «غيب»، «غوث»، «غور»، «غير»، «غوص»، «غيض»، «غيط»، «غول».

٣١ـ «فوج»، «فأد»، «فور»، «فوز»، «فوض»، «فيض»، «فوق»، «فوه»، «فيأ».

٣٢ـ «قرطس»، «قرض».

٣٣ـ «قاب»، «قوت»، «قوس»، «قيض»، «قيع»، «قول»، «قيل»، «قوم».

٣٤ـ «كشف»، «كشط».

٣٥ـ «لعن»، «لعل».

٣٦ـ «لوم»، «ليل»، «لون»، «لين».

٣٧ـ «مزن»، «مزج».

٣٨ـ «موج»، «ميد»، «مور»، «ميز».

٣٩ـ «نوص»، «نيل»، «نوم».

٤٠ـ «هرع»، «هرت»، «هرن».

٤١ـ «هزل»، «هزؤ»، «هزم».

٤٢ـ «هود»، «هار»، «هيت»، «هات»، «هيهات»، «هيم»، «هان»،

«هوى»، «هيا».

٤٣ـ «وبل»، «وبر»، «وبق».

٤٤ـ «وتن»، «وتر».

٤٥ـ «وجس»، «وجل»، «وجه»، «وجف».

٤٦ـ «وزن»، «وسوس»، «وسط».

٤٧ـ «وكل»، «ولج»، «وكأ».

٤٨ـ «وهب»، «وهج»، «ولي»، «وهن».

٥ـ ذكر الراغب بعض الكلمات في غير موادّها الأصليّة المعروفة، وكان ينبغي وضعها في مكانها الأصلي، وهذه الكلمات هي:

١ـ ذكر «كاد» التي هي فعل يدلّ على مقاربة وقوع الفعل والّتي مضارعها يكاد مع «كاد» التي مضارعها يكيد. ومن المعروف أنّ الأولى من مادة «كود»، والثانية من مادة «كيد». وقد ذكرهما الراغب تحت مادة «الكيد». وقد يجاب عن الراغب بأنّه لايعتبرهما من مادتين مختلفتين.

٢ـ ذكر كلمة «أب» الّتي تضايف «أبن» في مادّة «أبا» بدل مادة «أبو».

٣ـ ذكر كلمة «يؤده» الّتي بمعنى «يثقله» في مادة «أيد»، وهي من مادة «أود»، وقد أشار الراغب إلى ذلك بقوله (وقوله عزّوجلّ «ولايؤده حفظهما»[البقره] أي لايثقله، وأصله من الأود أو يؤدُ أوداً و إياداً إذا أثقله).

٤ـ ذكر كلمة «بكّة» في قوله تعالى: «إنّ أوّل بيت وُضع للنّاس للذي ببكّة مباركاً»(آل عمران: ٩٦) تحت مادة «بكت» والصحيح أنّه من مادة «بكك».

٥ـ ذكر الراغب كلاً من «متكأ» و«أتوكّأ» و«مُتكّئين» تحت عنوان «متكأ» في باب التاء. والصحيح أنّ أصل هذه الكلمات مادة «وكأ».

٦ـ جمع الراغب بين «زيادة» و«الزاد» في باب واحد تحت عنوان «زاد» في حين أنّ الزيادة من مادة «زيد»، و«الزاد» من مادة «زود».

٧ـ جمع الراغب بين مادتى «زال يزول» بمعنى فارق طريقته و «زال يزال» تحت عنوان واحد وهو «زال»، وإن قال إنّ أصل زال يزال من الياء.

٨ـ ذكر كلمة «يتسنّه» من قوله تعالى «لم يتسنّه»(البقرة: ٢٥٩) بمعنى لم يتغيّر تحت مادة «سنن»، وزاد بأنّ الهاء فيه للاستراحة.

والمذكور فيما بين يدي من المعاجم أنّها من مادة «سنه». وذكر في مادة «سنة» بأنّه (قيل: ومنه «لم يتسنّه» اي لم يتغيّر بمرّ السنين عليه، ولم تذهب طراوته).

٩ـ ذكر كلمة «سلسبيل» من قوله تعالى «عينا فيها تسمّى سلسبيلا»(الانسان:١٨) تحت مادة «سلّ» في حين أنّها في المعاجم في مادة «سلس» كما في لسان العرب.[١٩]

كمّية المادة:

يلاحظ القارئ أنّه رغم قول الراغب الأصفهاني (وقد استخرتُ اللّه تعالى في املاء كتاب مستوفى فيه مفردات القرآن)[٢٠] فقد سقطت من قلم الراغب كلمات كثيرة كان ينبغي ذكرها. وها هو جدول يبيّن هذه الكلمات مرتبة على حروف التهجّي مع ذكر الآية الّتي وردت فيها الكلمة إن وردت مرةً أو مرّتين في القرآن الكريم، فإن زاد العدد على ذلك أو كان عدد الآيات الّتي وردت فيها الكلمات المشتقة من المادة أكثر من ذلك اكتفينا بذكر الكلمات وذكر أرقام الآيات الواردة فيها:

١ـ «التناهم» من قوله تعالى «ألحقنا بهم ذريّتهم وما ألتناهم من علمهم من شيء». (الطور: ٢١)

٢ـ «أمتا» من قوله تعالى «لاترى فيها عوجاً ولا أمتا». (طه:١٠٧)

٣ـ «الأنام» من قوله تعالى «والأرض وضعها للأنام». (الرحمن: ١٠)

٤ـ «البُقعة» «فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة». (القصص: ٣٠)

٥ـ «أتقن» من قوله تعالى «صنع اللّه الّذي أتقن كلّ شيء. . ». (النمل:٨٨)

٦ـ «تنور» من قوله تعالى «حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور. . ». (هود: ٤٠)

وقوله تعالى «فإذا جاء أمرنا وفار التنور. . ». (المؤمنون: ٢٧)

٧ـ «الثرى» من قوله تعالى «له ما في السّموات وما في الأرض ومابينهما وماتحت الثرى». (طه: ٦)

٨ـ «جبريل». (البقرة:٩٧ـ٩٨)، (التحريم: ٤)

٩ـ «جامدة» من قوله تعالى «وترى الجبال تحسبها جامدة». (النمل:٨٨)

١٠ـ «جوف» من قوله تعالى «ماجعل اللّه لرجل من قلبين في جوفه». (الأحزاب: ٤)

١١ـ «حصب». (الأنبياء:٩٨)، «حاصباً» (الاسراء:٦٨)، (العنكبوت: ٤٠)، (القمر: ٣٩)، (الملك: ١٧).

١٢ـ «الخيام» من قوله تعالى «حور مقصورات في الخيام». (الرّحمن: ٧٢)

١٣ـ «أدهى» من قوله تعالى «بل الساعة أدهى وأمرّ». (القمر: ٤٦)

١٤ـ «أذاعوا» من قوله تعالى «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به». (النساء: ٨٣)

١٥ـ «رفيقاً». (النساء: ٦٩)، «مرفقاً». (الكهف: ١٦)، «المرافق». (المائدة: ٦)، «مرتفقا». (الكهف: ٢٩ـ٣١)

١٦ـ «الزبانية» من قوله تعالى «سندع الزبانية». (العلق: ٨)

١٧ـ «زمهريرا» من قوله تعالى «لايرون فيها شمساً ولازمهريرا». (الانسان: ١٣)

١٨ـ «زنجبيلا» من قوله تعالى «ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا». (الانسان: ١٧)

١٩ـ «زَهرَة» من قوله تعالى «زهرة الحياة الدّنيا». (طه: ١٣١)

٢٠ـ «سدى» من قوله تعالى «أيحسب الإنسان أن يُترك سدى». (القيامة: ٣٦)

٢١ـ «مسفوحاً». (الانعام: ١٤٥)، «مسافحين». (النساء: ٢٤، المائدة: ٥)، «مسافحات». (النساء: ٢٥)

٢٢ـ «سُنبلة». (البقرة: ٢٦١)، «سنابل». (البقرة: ٢٦١)، «سُنبله». (يوسف: ٤٧)، «سنبلات». (يوسف: ٤٣ـ٤٦)

٢٣ـ «مُسَنّدة» من قوله تعالى «كأنّهم خشب مُسنّدة». (المنافقون: ٤)

٢٤ـ «سُندُس». (الكهف: ٣١، الدخان: ٥٣، الانسان: ٢١)

٢٥ـ «المشئمة» من قوله تعالى «وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة». (الواقعة: ٩)

وقوله تعالى «والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة». (البلد: ١٩)

٢٦ـ «شفتين» من قوله تعالى «ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين». (البلد: ١٩)

٢٧ـ «يستصرخه». (القصص: ١٨)، «يصطرخون». (فاطر: ٢٧)، «صريخ». (يس: ٤٣)، «بمصرخكم». (ابراهيم: ٢٢)، «بمصرخيّ». (ابراهيم: ٢٢)

٢٨ـ «فصكّت» من قوله تعالى «فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها». (الذاريات: ٢٩)

٢٩ـ «صلصال». (الحجر: ٢٦)، (الحجر: ٢٨)، (الحجر: ٣٣)، (الرحمن: ١٤).

٣٠ـ «صامتون» من قوله تعالى «سواء

علیکم أدعوتموهم أم أنتم صامتون». (الأعراف: ١٩٣)

٣١ـ «المَضاجع». (النساء: ٣٤)، (السجدة: ١٦)، «مضاجعهم». (آل عمران: ١٥٤)

٣٢ـ «الضفادع» من قوله تعالی «فأرسلنا علیهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع». (الأعراف: ١٣٣)

٣٣ـ «یعکفون». (الأعراف: ١٣٨)، العاکف». (الحج: ٢٥)، «عاکفا». (طه: ٩٧)، «عاکفون». (البقرة: ١٨٧)، (الأنبیاء: ٥٣)، «العاکفین». (البقرة: ١٢٥)، (طه: ٩١)، (الشعراء: ٧١)، «معکوفاً». (الفتح: ٢٥)

٣٤ـ «العنکبوت» من قوله تعالی «.. کمثل العنکبوت اتخذت بیتاً، وإنّ أوهن البیوت لبیت العنکبوت». (العنکبوت: ٤١)

٣٥ـ «غَصبا» من قوله تعالی «وکان وراءهم ملک یأخذ کل سفینة غَصبا». (الکهف: ٧٩)

٣٦ـ «الغائط» من قوله تعالی «أوجاء أحد منکم من الغائط». (النساء: ٤٣)، (المائدة٦)

٣٧ـ «الفردوس» من قوله تعالی «کانت لهم جنّات الفردوس نزلا». (الکهف: ١٠٧)

قوله تعالی «الّذین یرثون الفردوس هم فیها خالدون». (المؤمنون: ١١)

٣٨ـ «انفصام» من قوله تعالی «فقد استمسک بالعروة الوثقی لا انفصام لها». (البقرة: ٢٥٦)

٣٩ـ «تفضحون» من قوله تعالی «قال إنّ هؤلاء ضیفی فلاتفضحون». (الحجر: ٦٨)

٤٠ـ «الفضّة». (آل عمران: ١٤)، (التوبة: ٣٤) (الزخرف: ٣٣)، (الانسان: ١٥، ١٦، ٢١)

٤١ـ «فان» من قوله تعالی «کلّ من علیها فان». (الرحمن: ٢٦)

٤٢ـ «قثّائها» من قوله تعالی «فادع لنا ربّک یخرج لنا مما تنبتُ الأرض من بقلها وقثّائها». (البقرة: ٦١)

٤٣ـ «قَدحا» من قوله تعالی «فالموریات قدحا». (العادیات: ٢)

٤٤ـ «اقتده». (الانعام: ٩٠)، (الزخرف: ٢٣)

٤٥ـ «قریش» من قوله تعالی «لإیلاف قریش». (قریش: ١)

٤٦ـ «أقلعی» من قوله تعالی «وقیل یا أرض ابلعی ماءك ویا سماء أقلعی». (هود: ٤٤)

٤٧ـ «کبکبوا» من قوله تعالی «فکبکبوا فیها هم والغاوون». (الشعراء: ٩٤)

٤٨ـ «کسادها» من قوله تعالی «وتجارة

تخشون كسادها». (التوبة: ٢٤)

٤٩ـ «كالحون» من قوله تعالى «تلفح وجوههم النّار وهم فيها كالحون». (المؤمنون:١٠٤)

٥٠ـ «الكُنّس» من قوله تعالى «فلا أقسم بالخُنّس الجوار الكُنّس». (التكوير: ١٦)

٥١ـ «كهلا» من قوله تعالى «ويكلّم النّاس في المهد وكهلا». (المائدة: ١١٠)

٥٢ـ «كَوكب». (النور: ٣٥)، «كوكباً». (الانعام: ٧٦)، «يوسف: ٤)، «الكواكب». (الصافات: ٦)، (الانفطار: ٢).

٥٣ـ «مَلجأ». (التوبة: ٥٧ـ ١١٨)، (الشورى: ٤٧)

٥٤ـ «الحيتى» من قوله تعالى «قال يا ابن أمّ لاتأخذ بلحيتى ولابرأسى». (طه: ٩٤)

٥٥ـ «تَلَذّ». (الزخرف: ٧١)، «لذّة». (الصافات: ٤٦)، (محمّد: ١٥)

٥٦ـ «فالتقطه». (القصص: ٨)، «يلتقطه». (يوسف: ١٠)

٥٧ـ «ليس». [٢١]

٥٨ـ «المجوس» من قوله تعالى «إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس . . ». (الحج: ١٧)

٥٩ـ «المخاض» من قوله تعالى «فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة». (مريم: ٢٣)

٦٠ـ «ماروت» من قوله تعالى «وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت». (البقرة: ١٠٢)

٦١ـ «المَروة» من قوله تعالى «إنّ الصفا والمروة من شعائرالله . . ». (البقرة: ١٥٨)

٦٢ـ «مَزقّناهم». (سبأ: ١٩)، «مُزّقتم» (سبأ: ٧) «مُمَزّق». (سبأ: ٧، ١٩)

٦٣ـ «تُمسون» من قوله تعالى «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون». (الروم: ١٧)

٦٤ـ «أمعاءَهُم» من قوله تعالى «وسقوا من ماء حميماً فقطّع أمعاءهم». (محمد: ١٥)

٦٥ـ «ميكال» من قوله تعالى «مَن كان عدواً لله وملائكته وجبرئيل وميكال . . ». (البقرة: ٩٨)

٦٦ـ «إملاق» من قوله تعالى «ولاتقتلوا أولادكم من إملاق». (الانعام: ١٥١)

ـ و«ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق». (الاسراء: ٣١)

٦٧ـ «المال»، «مالاً»، «ماله»، «ماليه»، «الأموال»، أموالاً»، «أموالكم»، «أموالنا»، «أموالهم». [٢٢]

٦٨ـ «الانجيل» . (٢٣)

٦٩ـ «أنصتوا» من قوله تعالى «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا» . (الأعراف: ٢٠٤)

ـ و«فلما حضروه قالوا أنصتوا» . (الأحقاف: ٢٩)

٧٠ـ«نصحتُ» . (الأعراف: ٧٩, ٩٣) ، «نصحوا» . (التوبة: ٩١) ، «أنصح» . الأعراف: ٦٢) ، (هود: ٣٤) ، «نُصحي» . هود: ٣٤) ، «ناصح» . (الأعراف: ٦٨) ، «ناصحون» . (يوسف: ١١) ، (القصص: ١٢) ، «الناصحين» . (الأعراف: ٢١، ٧٩) ، القصص: ٢٠) ، «نصوحاً» . (التحريم: ٨)

٧١ـ «يُنفوا» من قوله تعالى «أو تُقطَع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض» . (المائدة: ٣٢)

٧٢ـ «نقعاً» من قوله تعالى «فالمغيرات صبحاً، فأثرن به نقعاً» . (العاديات: ٤)

٧٣ـ «نمارق» من قوله تعالى «ونمارق مصفوفة» . (الغاشية. ١٥)

٧٤ـ «الناقة» . (الأعراف: ٧٣, ٧٧) ، (هود: ٦٤) ، (الأسراء: ٥٩) ، (الشعراء: ١٥٥) ، (القمر: ٢٧) ، (الشمس: ١٣) .

٧٥ـ «الهدهد» من قوله تعالى «مالي لا أرى الهدهد» . (النمل: ٢٠)

٧٦ـ «هَرَبا» من قوله تعالى «وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً» . (الجن: ١٢)

٧٧ـ«هامان» . (القصص: ٦، ٨، ٣٨) ، (العنكبوت: ٣٩) ، (غافر: ٢٤، ٣٦) .

٧٨ـ «المهيمن» . (الحشر: ٢٣) ، «مهيمنا» . (المائده: ٤٨)

٧٩ـ «مَهيلا» من قوله تعالى «وكانت الجبال كثيبا مهيلا» . (المزمل: ١٤)

٨٠ـ «مواطن» من قوله تعالى «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة» . (التوبة: ٢٥)

٨١ـ «الموءودة» من قوله تعالى «وإذا الموءودة سئلت» . (التكوير: ٨)

٨٢ـ «مَوْئلا» من قوله تعالى «بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا» . (الكهف: ٥٨)

٨٣ـ «يثرب» من قوله تعالى «وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم» . (الأحزاب: ١٣)

٨٤ـ «اليسع» من قوله تعالى «وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين» . (الأنعام: ٨٦)

ـ ومن قوله تعالى «واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار» . (ص: ٤٨) .

٨٥ـ «يوسف». [٢٤]

٨٦ـ «يعقوب». [٢٥]

٨٧ـ «يَعوق» من قوله تعالى **«ولاتذرنّ ودّاً ولا سواعاً ولايغوث ولايعوق»**. (نوح: ٢٣)

٨٨ـ «يغوث» من قوله تعالى **«ولاتذرنّ ودّاً ولا سواعاً ولايغوث ولايعوق»**. (نوح: ٢٣)

٨٩ ـ «الياقوت» من قوله تعالى **«كأنهنّ الياقوت والمرجان»**. (الرّحمن: ٥٨)

٩٠ـ «أيقاظاً» من قوله تعالى **«وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود»**. (الكهف: ١٨)

٩١ـ **«يونس»**. (النساء: ١٦٣)، (الانعام: ٨٦)، (يونس: ٩٨)، (الصافات: ١٣٩).

٩٢ـ **«اليهود»**. (البقرة: ١١٣، ١١٣، ١٢٠)، (المائدة: ١٨، ٥١، ٦٤، ٨٢)، (التوبة: ٣٠)، **«يهودياً»**. (آل عمران: ٦٧) بالاضافة الى عدم ذكر بعض الأدوات وهي «الفاء» و«كي» و«لوما» و«لكن» و«مهما».

ذكر كلمات وردت في القراءات:

تعرّض الراغب في كتابه لذكر كلمات وردت في قراءات قرآنية غير قراءة حفص عن عاصم مما لم يشرحه قبل ذلك، وهذه الكلمات هي:

١ـ بَظَر: (قُرِى في بعض القراءات **«والله أخرجكم من بُظُور أُمّهاتكم»**. (النحل: ٧٨) وذلك جمع البظارة وهي اللحمة المتدلية من ضَرِع الشاة، والهَنة الناتئة من الشفة العليا، فعبّر بها عن الهَن كما عُبّر عنه بالبُضع).

وهذه القراءة لم أجدها فيما بين يدي من كتب القراءات وكتب التفسير الّتي تتعرض لذكر القراءات عادة.

٢ـ حضب: (الحَضَب الوقود ويُقال لما تسعّر به النارُ محضَب وقُرئ **«حَضَبُ جهنم»**). يشير الآية الكريمة وهذه قراءة ابن عباس. [٢٦]

٣ـ سبخ: (قرئ **«إنّ لك في النهار سبخاً»** (المزمل: ٧) أي: سعة في التصرف، وقد سَبَخَ اللّه عنه الحُمّى فَتَسبّخ أي: تغشّى. والتسبيخ ريش الطائر والقُطن المندوف ونحو ذلك ممّا ليس فيه اكتناز وثقل) وبهذا يشير إلى الآية الكريمة **«إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً»**. وماذكره الراغب يُنسب ليحيى بن يعمر. [٢٧]

٤ـ شَعَفَ: (قُرئ **«شَعَفَها»** وهي من شَعَفَة القلب وهي رأسه مُعَلّق النياط وشَعَفة

الجبل أعلاه ومنه قيل فلان مشعوف بكذا كأنّما أصيب شَعَفَةَ قلبه). ويشير الراغب بهذا إلى قوله تعالى ﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شعفها حبّا﴾. (يوسف: ٣٠)

وهذه القراءة ذكرها جماعة من العلماء.[٢٨]

٥ـ صوغ: (قُرِئ ﴿صَوْغَ الملك﴾ يُذهب به الى أنّه كان مصوغاً من الذهب) وهذه قراءة في الآية الكريمة ﴿قالوا نفقد صُوَاعَ لملك﴾. (يوسف: ٧٣) وقد ذكرها جماعة.[٢٩]

٦ـ قبص: القبصُ التناول بأطراف الأصابع والتناول بها يُقال له القَبْصُ والقبيصة، ويُعبّر عن القليل بالقبيص. وقرئ ﴿فقَبَصتُ قَبصَةً..﴾) وهو بهذا يشير الى قراءة في الآية الكريمة ﴿قال بصرتُ بمالم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرّسول﴾. (طه: ٩٦) وقد ذكر هذه القراءة جماعة.[٣١]

٧ـ ولق: (الوَلْقُ الاسراع، يُقال وَلَق الرجلُ يَلِقُ كَذَب، وقرئ ﴿اذ تَلِقُونَه بألسنتكم﴾. (النور: ١٥)، أي: تسرعون الكذب..) وقد ذكر هذه القراءة جماعة.[٣٠]

هذا وقد ذكر الراغب ثلاث كلمات لم ينسبها لقراءة وهي:

١ـ الزّعاق: فقد ذكر الراغب تحت مادة زعق (الزّعاق الماء الملح الشديد المُلوحَة وطعام مَزعوق كثُرملحُهُ حتى صار زُعاقاً. وزعقَ به أفزَعَه بصياحه فانزعق أي فَزِع والزّعيقُ الكثير الزّعق: أي الصوت، والزّعّاق النّعّار). ويتبيّن من هذا النص أنّ الراغب لم ينسب هذه المادة الى قراءة من القراءات فرحتُ أبحث عنها، ولكنّي لم أجدها فيما بين يدي من المراجع التي تهتم بالقراءات القرآنية. والمعنى الثاني لهذه المادة وهو (زَعَق به أفزعه بصياحه يناسب الآية الكريمة ﴿ان كانت إلاّ صيحة واحدة﴾. (يس: ٢٩)

وفيها قراءة أخرى ﴿إن كانت إلاّ زَقيَةً واحدة﴾ وهي قراءة ابن مسعود وعبدالرحمن بن الأسود. ولم أجد من يذكر بها قراءة ﴿زعقة﴾.[٣٢]

٢ـ سرط: (السّراط الطريق المستسهل. أصله من سَرَطتُ الطعامَ وزردته ابتلعته فقيل سراط تصوراً أنّه يبتلعه سالكهُ، أو يبتلعُ سالكه، ألا ترى أنّه قيل: قتل أرضاً عالمها وقتلت أرض

جاهلها..).

وواضح من النص أنّه لم يشر الى قراءة وردت فيها كلمه سراط، ولكننا نستطيع بسهولة أن نتبيّن ورود هذه الكلمة في قراءة آية «اهدنا الصّراط المستقيم»(الفاتحة: ٦). (٣٣)

٣ـ غرض «الغَرَضُ الهدفُ المقصودُ بالرّمى ثُم جُعل اسماً لكلّ غاية يُتحرّى ادراكها..» ولم يشر الرّاغب إلى قراءة قرآنية. ولم أجد فيما بين يدي من المراجع مايشير إلى أنّها قراءة.

عرض المادة:

١ـ لم يلتزم الراغب في الابتداء بمادته بمبدأ معيّن، فهو قد يبدأ موضوعه بذكر الآية محلّ الشاهد كما في (شتا: «رحلة الشّتاء والصّيف»(قريش: ٢) يُقال شَتَى وأشتى وصاف وأصاف والمَشتَى والمَشتَاةُ للوقت والموضع والمصدر، قال الشّاعر:

نحن في المَشتَاة ندعوا الجَفَلى)

و(غَطَشَ: «أغطَش ليلها»(النازعات: ٢٩) أي جعله مُظلما وأصلهُ من الأغطَش وهو الذي في عينيه شبه عَمش. ومنه قيل فلاة غَطشى لايُهتدى فيها. والتّغاطش التّعامي عن الشيء).

فالراغب كما في هذين النّصّين يبدأ موضوعه بالآية محلّ الشاهد ثم يعقّب عليها بالشرح والتوضيح.

وقد يبدأ موضوعه بالمعنى ثم يذكر الآية كما في (غطا: الغطاء مايُجعل فوقَ الشيء من طبق ونحوه كما أنّ الغشاء مايُجعلُ فوق الشيء من لباس ونحوه، وقد استعير للجهالة، قال «فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليومَ حديد»). (ق: ٢٢)

والراغب في أغلب الموارد يذكر المعنى اللغوي ثمّ يعقب بالنص أو النصوص القرآنية.

٢ـ يسعى الراغبُ خلال بحثه لاستعراض المعاني المختلفة لاستعمالات المادة أو مشتقاتها موضّحاً ذلك بالنصوص القرآنية المختلفة فـ (الصِّهر الخَتَنُ وأهلُ بيت المرأة يُقال لهم الأصهار كذا قال الخليل. قال ابنُ الأعرابي: الاصهارُ التحريم بجوار أو نسب أو تزوّج، يُقال رجل مُصهِر اذا كان له تحرّم من ذلك، قال: «فَجَعَلَه نَسَباً وصِهرا»(الفرقان: ٥٤) والصَّهر اذابة الشَّحم قال: «يُصهَرُ به ما في بُطُونهم»(الحج: ٢٠) والصُّهارَةَ ماذاب منه وقال لأصهرنك بيميني مرّة، أي

لأذينك).

فالراغب يذكر تحت مادة صهر كلمتين هما «الصِّهر» و«الصَّهر»، والأوّل يُستعمل في القرابة. والثاني يُستعمل في الاذابة. وقد ذكر لكلّ معنى شاهداً قرآنياً.

٣ـ للراغب قدرة عجيبة على ايجاد الربط بين المعاني المختلفة للكلمات المأخوذة من المادة الواحدة، فهو يربط بين مشتقات المادة ويحاول ايجاد التناسب بينها فـ (جنّ: أصل الجنّ ستْرُ الشيء عن الحاسّة، يُقال جنّه الليلُ وجَنّ عليه فَجَنّه سترَهُ وأجَنّه جعل له ما يجنّه كقولك قَبَرتُه وأقبَرتُه وسقيتُه وأسقيتُهُ. وجنّ عليه كذا ستَر عليه قال (عزّوجل) «فلمّا جنّ عليه الليلُ أى كوكباً». (الانعام: ٧٦) والجنان القلبُ لكونه مستوراً عن الحاسّة. والمجنّ المجنّة التُّرسُ الذي يُجنّ صاحبَه قال (عزّوجل) «اتّخذوا أيمانَهم جنّةً»(المجادلة: ١٦) وفي الحديث «الصوم جُنّة» والجنّة كلّ بستان ذي شَجَر يستُرُ بأشجاره الأرض، قال (عزّوجل) «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنّتان عن يمين وشمال»(سبأ: ١٥) ـ «وبَدّلناهم بجنّتهم جنّتين»(سبأ: ١٦) ـ «ولولا إذ دخلتَ جنّتك»(الكهف: ٣٩)، قيل وقد تُسمّى الاشجار السّاترة جنّة، وعلى ذلك حُمِل قول الشاعر:

«منَ النواضح تسقى جَنّةً سَحقا»

وسميّت الجَنّةُ إمّا تشبيهاً بالجنّة في الأرض وإن كان بينهما بَون، وإمّا لستره نعَمَها عنا المشار اليها بقوله تعالى «فلاتعلم نفس ما أخفى لهم من قُرّة أعين»(السجدة: ١٧) قال ابن عباس رضى الله عنه: أنّما قال جنّات بلفظ الجمع لكون الجنان سبعاً جنة الفردوس وعدن وجنّة النّعيم ودار الخلد وجنّة المأوى ودارالسّلام وعلّيّن. والجنين الولدُ مادام في بطن أمّه وجمعه أجنّة قال تعالى «واذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم»(النجم: ٣٢) وذلك فَعيل في معنى مفعول، والجنين القبر، وذلك فَعيل في معنى فاعل، والجنّ يقال على وجهين: أحدهما للروحانيّين المستترة عن الحواسّ كلّها بإزاء الانس، فعلى هذا تدخل فيه الملائكة والشياطين، فكل ملائكة جنّ، وليس كل جنّ ملائكة، وعلى هذا قال أبوصالح: الملائكة كلّها جنّ، وقيل بل الجنّ بعض الروحانيّين، وذلك أنّ الرّوحانيّين ثلاثة: أخيار وهم الملائكة، وأشرار وهم الشياطين، وأوساط فيهم

اخيار وأشرار وهم الجنّ، ويدلّ على ذلك قوله تعالى «قل أوحى إليّ» إلى قوله (عزّوجل) «وأنّا منّا المسلمون ومنّا القاسطون» (الجنّ: ١٤) والجنّة جماعة الجنّ قال تعالى «من الجنّة والنّاس» (النّاس: ٦) وقال تعالى «وجعلوا بينه وبين الجنّة نسبا» (الصافات: ١٥٨) والجنّة الجنون، قال تعالى «مابصاحكم من جنّة» (سبا: ٢٦) أي جنون والجنون حائل بين النفس والعقل وجُنّ فلان قيل أصابه الجنّ وبُنيَ فعلُه على فُعلَ كبناء الأدواء نحو: زُكم ولُقى وحُمّ، وقيل أُصيب جنانُهُ وقيل حيل بين نفسه وعقله فجنّ عقله بذلك وقوله تعالى «مُعَلّم مجنون» (الدخان: ١٤) أي ضامّه مَن يعلّمه من الجنّ وكذلك قوله تعالى «أئنا لتاركو آلهتنا لشاعرمجنون» (الصافات: ٣٦) وقيل جُنّ التّلاعُ والآفاقُ أي كثُر عُشبُها حتى صارت كأنّها مجنونة وقوله تعالى «والجانّ خلقناه من قبل من نار السّموم» (الحجر: ٢٧) فنوع منَ الجنّ وقوله تعالى «كأنّها جانّ» (القصص: ٣١) قيل ضرب من الحيّات).

فالراغب يذكر أنّ أصل مادة (ج ن ن) يستعمل لستر الشيء، ولايُستعمل «أجنّه الليلُ» إلا لستره الأشياء. والقلب يقال له جنان لكونه مستوراً، وكذلك التّرس الذي يستعمله المحارب يسمّى مجنّاً ومجَنّةُ لأنّ المحارب يستتر به عن عدوّه. وسمّى البستان جنّة لأنّ أشجاره تسترُ وجه الأرض. وسُمّى ما في الرّحم جنيناً لأنّه مستور عن العيون. وسُمّى ما يقابل الإنس جنّاً لأنّهم مستورون، لايراهم أحد. وسُمّى مايمسّ عقل الانسان جنوناً لأنّه حائل بين النفس والعقل وكأنّه يستر العقل ولايجعله يعمل عمله الطّبيعى، وهكذا يسترسل الراغب فى بيان معانى مشتقات المادة مع توجيهها محاولاً استقصاء جميع المشتقّات الواردة من هذا الأصل فى القرآن الكريم، وهي جَنّ، جانّ، الجنّ، جنّة، مجنون، جَنّة، جُنّة، أجنّة. ومعلوم أنّ جانّ والجنّ بمعنى واحد. وكذلك جنّتك، جَنتى، جنّات، جنّتهم، جنّتان كلها ترجع إلى جَنّة.

والراغب الأصفهانى ليس رائداً في هذا الموضوع، بل سبقه إلى ذلك ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) في كتابه «معجم مقاييس اللغه» فهو يذكر أنّ المادة تستعمل في الأصل لكذا، تم يبدأ بذكر المعانى الأخرى لمشتقات المادة مع بيان المناسبة، ومراجعة

بسيطة لمادة «جن» في المعجم المذكور توضّح هذا وتؤيّده، ولكن الراغب استعمل هذا على نطاق أوسع.

٤ـ لايكتفى الراغب عادة بذكر المعانى الواردة في القرآن الكريم للمادة أو اللفظة، بل يسعى فى أغلب الأحيان إلى ذكر المعانى الأخرى لها، فـ(نمل: قال تعالى: «قالت نملَة يا أيّها النّملُ». (النمل:١٨) وطعام مَنمول فيه النّملُ، والنّملةُ قُرحَة تخرجُ بالجَنب تشبها بالنَّمل فى الهيئة، وشقّ فى الحافر، منه فرس نَملُ القوائم خفيفُها. ويُستعار النمل للنّميمة تصوّراً لدبيبه فيقال هو نمل وذو نملة، نَمال أيَ نَمام، وتنَمل القومُ تفرقوا للجمع تَفُرقَ النَمل، ولذلك يُقال هو أجمع من نملة، والأنمُلةُ طرف الأصابع، وجمعه أناملُ).

ويمكن مراجعه دهن، عصب، عضّ، عيس كذلك.

٥ـ يتطرّق الراغب فى بعض الأحيان لذكر أوجه التفسير للآية. ففى قوله تعالى «ويرزق الله من يشاء بغير حساب». (البقرة: ٢١٢) (أوجه: الأول: يعطيه أكثرَ ممّا يستحقّهُ. والثانى: يُعطيه ولا يأخذه منه. والثالث يُعطيه عطاءً لايمكن للبشر إحصاؤُه كقول الشاعر:

عطاياهُ يُحصى قبل إحصائها القطرُ.

والرابع: يُعطيه بلا مضايقة من قولهم حاستُهُ إذا ضايقتُهُ. ، الخامس: يُعطيه أكثر ممّا يحسبُهُ. والسادس: أن يُعطيَه بحَسَب ما يعرفُهُ من مصلحته لاعلى حَسَب حسابهم، وذلك نحو ما نَبَّهَ عليه بقوله تعالى «ولولا أن يكون الناسُ أُمّةً واحدةَ لجعلنا لمن يكفرُبالرحمن» الآية. والسابع: يُعطى المؤمنَ ولايُحاسبُهُ عليه، ووجه ذلك أن المؤمنَ لايأخُذُ من الدّنيا إلا قدر مايجبُ وكما يجبُ وفى وقت مايجب ولاينفق إلا كذلك، يحاسبُ نفسَه فلا يحاسبُهُ اللّه حساباً يضرُّهُ كما روي «مَن حاسبَ نفسه فى الدنيا لم يحاسبهُ اللّهُ يوم القيامة». والثامن: يُقابلُ اللّهُ المؤمنين في القيامة لابقدر استحقاقهم بل بأكثر منه كما قال عزّوجلّ: «من ذاالّذي يقرض اللّه قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرةً»).

٦ـ كثيراً ما يتطرق الراغب إلى ذكر أقسام الشيء الذي يتناوله بالبحث فعند ذكره للمتشابه في شبه ذكر (أنّ الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: مُحكم على الأطلاق، ومُتشابه على الأطلاق،

ومُحكم من وَجه ومتشابه من وجه. فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومُتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة، وذلك إمّا من جهة غرابته نحو الأبّ ويزفّون، وإما من جهة مشاركة في اللفظ كاليد والعين. والثاني يرجع إلى جملة الكلام المركّب، وذلك ثلاثة أضرب، ضرب لاختصار الكلام نحو «وإن خفتم ألا تُقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء». (النساء: ٣)، ضرب لبسط الكلام نحو «ليس كمثله شيء». (الشورى: ١١) لأنّه لو قيل ليسَ مثله شيء كان أظهر للسامع. وضرب لنظم الكلام، نحو «أنزل على عبده الكتابَ ولم يجعل له عوجاً قيّماً». (الكهف: ٢) تقديره: الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجاً. وقوله «ولولا رجال مؤمنون» إلى قوله: «لو تزيّلوا». (الفتح: ٢٥) والمتشابه من جهة المعنى أوصافُ الله تعالى وأوصاف يوم القيامة فإنّ تلك الصفات لاتُتَصوّرُ لنا إذ كان لايحصلُ في نفوسنا صورةُ مالم نحُسَّهُ أو لم يكن من جنس ما نحُسُّه. والمتشابهُ من جهة المعنى واللفظ جميعاً خمسة أضرب، الأول: من جهة الكميّة كالعموم والخصوص نحو «اقتُلوا المشركين». (التوبة: ٥) والثاني من جهة الكيفية كالوجوب والنّدب نحو «فانكحوا ماطاب لكم». (النساء: ٣) والثالث: من جهة الزّمان كالناسخ والمنسوخ نحو «واتقوا الله حقّ تقاته». (آل عمران: ١٠٢) والرابع: من جهة المكان والأمور التى نزلت فيها نحو: «وليس البرُّ بأن تأتُوا البيوتَ من ظُهُورها». (البقرة: ١٨٩) وقوله «إنّما النَّسيءُ زيادةٌ في الكفر». (التوبة: ٣٧) فإنّ مَن لايعرف عادتهم في الجاهليّة يتعذّرُ عليه معرفة تفسير هذه الآية. والخامس: من جهة الشروط التى بها يصحُّ الفعل أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح، هذه الجملة إذا تُصُوُّرت عُلم أنّ كلّ ماذكره المفسّرون فى تفسير المتشابه لايخرج عن هذه التقاسيم).

وسواء أكان الراغب موفقاً فى تقسيمه هذا أم لا، فإنّ ما يجلب النظر قدرة الراغب على هذا التقسيم وسعيه لتطبيق هذا.

وقد ذكر السيوطي تقسيم الراغب هذا في كتابه الاتقان في علوم القرآن ونسبه للراغب.[٣٢]

ويمكن مراجعة الكلمات: ضرّ، عبدّ،

غرض، عُنى، غير، هدى، هلك، هوان، وحد، شرك، ظلم، وغيرها لتوضيح هذا.

٧- يستعين الراغبُ بالحديث والشعر لبيان معاني المفردات القرآنية، فقلّما تخلو صفحة من صفحات الكتاب من شاهد شعري أو حديث وتلوح للقارئ أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حقّ أمير المؤمنين عليه السّلام: «أقضاكم علي» و«يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمّة» و«أنا مدينة العلم وعليّ بابها» وقول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السّلام «أنت أخي ووارثي...».

٨- كثيراً مايذكر الراغب المعنى المجازي للكلمة ويشير إليه، فهو يكثر من قول واستعير كذا لكذا، وكُنّي بهذا عن كذا، فزَفافُ العروس لبيت زوجها مستعار، لأنّ(زَفَّ الابل يَزِفُّ زَفّاً وزفيفاً وأزفّها سائقها وقُرئ «إليه يَزِفّون»[٣٥]. (الصافات: ٩٤) ي يُسرعون. ويَزِفّون[٣٦] اى يحملون أصحابهم على الزّفيف، وأصل الزَّفيف في هبوب الرّيح وسُرعة النعام التى تخلط الطيران بالمشي. وزَفزف النّعام أسرَعَ ومنه استُعيرَ زفّ العروس واستعارة مايقتضى السرعة لا لأجل مشيتها ولكن للذهاب بها على خفّة من السّرور).

واستعمال المسّ للنكاح والجنون كناية، لأنّ (المسّ كاللمس لكن اللّمسُ قد يقال لطلب الشيء، وإن لم يُوجد كما قال الشاعر:

وألمسه فلا أجده

والمسُّ يُقال فيما يكون معه إدراك بحاسّة اللّمس وكُنّي به عن النكاح، فقيل مَسَّها وماسّها، قال «وإن طلقتموهُنَّ من قبل أن تمسُّوهنَّ». (البقرة: ٢٣٧) والمسيس كناية عن النّكاح، وكنّى بالمسّ عن الجنون، قال«كالذي يتخبّطهُ الشيطانُ من المَسّ». (البقرة: ٢٧٥) والمَسُّ يقال فى كلّ ماينالُ الانسان من أذى...).

٩- وردت فى كتاب الراغب مواد لم يذكر لها شواهد قرآنية، أي أنّه ذكر بعض المواد التى وردت فى القرآن الكريم وفسّرها الراغب دون ذكر الآية أو النص القرآنى الذى يحوي هذه الكلمة، كما هو ديدنه فى كلّ مادّة. ولعلّه إنّما فعل ذلك لشهرة هذه الكلمات كما فى ثمود، جهنّم، جوع، مكّة، وفي بعضها ذكر بعضاً من الآية وإن لم يجعله بين قوسين ليدلّ على أنّه آية كما في «رمض» حيث قال: (شهر رمضان

. . .) و(رسّ: أصحاب الرسّ، قيل هو واو . . .) وفي(معن: ماء مَعين هو من قولهم . . .). ولعلّ عدم وجود مايدلّ على التنصيص راجع إلى عمل الناشر الذي لم يجعل هذه جزء آية . والكلمات التى لم يذكر لهاشواهد قرآنية هي :

١ـ أثّ: أثاث

النمل: ٨٠، مريم: ٧٤.

٢ـ أريك: الأريكة

الكهف: ٣١، يس: ٥٦، الانسان: ١٣، المطففين: ٢٣-٣٥.

٣ـ أسّ: أسّس

التوبة: ٩-١٠٨-١٠٨.

٤ـ أيك: الأيكة

الحجر: ٧٨، الشعراء: ١٧٦، ص: ١٣، ق: ١٤.

٥ـ أيم: الأيامى

النور: ٣٢.

٦ـ برص: الأبرص

آل عمران: ٤٩، المائدة: ١١٠.

٧ـ التيه: يتيهون

المائدة: ٢٦.

٨ـ ثمود:

الأعراف: ٧٣، التوبة: ٧٠، هود: ٦١-٦٨-٩٥، ابراهيم: ٩، الاسراء: ٥٩، الحج: ٤٢، الفرقان: ٣٨، الشعراء: ١٤١، النمل: ٤٥، العنكبوت: ٣٨، ص: ١٣، غافر: ٣١، فصلت: ١٣-١٧، ق: ١٢، الذاريات: ٤٣، النجم: ٥١، القمر: ٢٣، الحاقة: ٤-٥، البروج: ١٨، الفجر: ٩، الشمس: ١١.

٩ـ جَحم: جحيم

البقرة: ١١٩، المائدة: ١٠-٨٦، التوبة: ١١٣، الحج: ٥١، الشعراء: ٩١، الصافات: ٢٣-٥٥-٦٤-٦٨-٩٧-١٦٣، غافر: ٧، الدخان: ٤٧-٥٦، الطور: ١٨، الواقعة: ٩٤، الحديد: ١٩، الحاقة: ٣١، النازعات: ٣٦-٣٩، التكوير: ١٣، الانفطار: ١٤، المطففين: ١٦، التكاثر: ٦، العزمل: ١٢.

١٠ـ جهنم

وردت في٧٧ موضعاً من القرآن الكريم.

١١ـ جوع

طه: ١١٨، البقرة: ١٥٥، النحل: ١١٢، الغاشية: ٧، قريش: ٤.

١٢ـ حتم

مريم: ٧١.

١٣ـ حدق: حدائق

النمل: ٦، النبأ: ٣٢، عبس: ٣٠.

١٤ـ حصّ: حصحص

يوسف: ٥١.

١٥ـ حيض:

البقرة: ٢٢٢-٢٢٢، الطلاق: ٤-٤

١٦ـ خبء: الخبء

النمل: ٢٥.

١٧ـ خمط :

سبأ: ٣٤

١٨ـ خوى : خاوية

البقرة: ٢٥٩، الكهف: ٤٢، الحج: ٤٥،

النمل: ٥٢، الحاقة: ٧.

١٩ـ ذعن : مذعنين

النور: ٤٦.

٢٠ـ ذكا :

المائدة: ٣.

٢١ـ رسّ : أصحاب الرّس

الفرقان: ٣٨، ق: ١٢.

٢٢ـ رعد :

البقرة: ١٩، الرعد: ١٣.

٢٣ـ رمض : رمضان

البقرة: ١٨٥.

٢٤ـ سرط :

الفاتحة: ٦.

٢٥ـ سكب : «مسكوب»

الواقعة: ٣١.

٢٦ـ سهر : «السّاهرة»

النازعات: ١٤.

٢٧ـ سيب : «سائبة»

المائدة: ١٠٣.

٨٢ـ عزين :

المعارج: ٣٧.

٢٩ـ غبن :

التغابن: ٩.

٣٠ـ غثا : «غثاء»

المؤمنون: ٤١، الأعلى: ٥.

٣١ـ كمه : «الأكمه»

آل: ٤٩، المائدة: ١١٠.

٣٢ـ معن : «معين»

المؤمنون: ٥٠، الصّافات: ٤٥، الواقعة: ١٨،

الملك: ٣٠، ذكره في مادة عين.

٣٣ـ مكّة :

الفتح: ٢٤.

هذا بالاضافة إلى كلمتى «زعق» و«غرض» اللتين لم تردا في القرآن الكريم، وكذلك بعض الأعلام كـ «موسى» و«عيسى» وبعض الأدوات كـ «إذا» و«إذ» و«إلاّ» و«ألا» فإنّه لم يذكر لكلّ هذه شواهد قرآنيّة.

الهوامش

(١) كشف الظنون ٢: ١٧٧٣

(٢) الذريعة ٢٠: ١٢٨.

(٣) الأعلام ٢: ٢٧٩، وقد ذكر في الهامش أنّ تاريخ الوفاة هذا استقاه من كتاب روضات الجنّات، وعند مراجعتى للروضات في ترجمة الراغب لم أجد هذا التاريخ، وما ذكره عن تاريخ وفاة الراغب هو التاريخ

المنقول عن «تاريخ أخبار البشر» وهو ٥٦٥.

(٤) كشف الظنون١ : ٣٦.

(٥) سفينة البحار١ : ٥٢٩.

(٦) روضات الجنّات٣ : ٢٢٧.

(٧) الذريعة٣ :٢٨، ٢١ : ٣٦٤.

(٨) الكنى والألقاب٢ : ٢٦٩.

(٩) بغية الوعاة٢ : ٢٩٧.

(١٠) كشف الظنون١ : ٣٦.

(١١) كشف الظنون٢ : ١٧٧٣.

(١٢) الذريعة٢٠ : ١٢٨.

(١٣) الذريعة٢١ : ٣٦٤.

(١٤) الذريعة١ : ٣٧٤.

(١٥) الذريعة١٠ : ٢٨.

(١٦) لسان العرب، مادة نون.

(١٧) المفردات في غريب القرآن : ٦.

(١٨) معجم مفردات ألفاظ القرآن : ي.

(١٩) لسان العرب، مادة «سلس».

(٢٠) مقدمة كتاب المفردات في غريب القرآن : ي.

(٢١) و(٢٢) لم نذكر أرقام الآيات لكثرة ورود هذه الكلمات في القرآن الكريم.

(٢٣) و(٢٤) و(٢٥) لم نذكر أرقام الآيات لكثرة ورود هذه الكلمات في القرآن الكريم.

(٢٦) معاني القرآن للفراء٢ : ٢١٢، معاني القرآن وإعرابه٣ : ٤٦٠، مختصر في شواذ القراءات : ٩٢، المحتسب٢ : ٦٦، مجمع البيان٤ : ٦٣، إملاء مامنّ به الرحمن٢ : ١٣٧.

(٢٧) معاني القرآن للفراء٣ : ١٩٧، إعراب القرآن للنحاس٥ : ٥٧، مختصر في شواذ القراءات : ١٤٦، البحر المحيط٨ : ٣٦٣.

(٢٨) مختصر في شواذ القراءات : ٦٤، المحتسب١ : ٣٣٩، مجمع البيان٣ : ٢٢٨، إملاء مامنّ به الرحمن٢ : ٥٢.

(٢٩) إعراب القرآن للنحاس٢ : ٣٣٧، المحتسب١ : ٣٤٦، مجمع البيان٣ : ٢٥٠، إملاء مامنّ به الرّحمن٢ : ٥٦.

(٣٠) مختصر في شواذ القراءات : ١٠٠، إعراب القرآن للنحاس٣ : ١٣٠، إملاء مامنّ به الرّحمن٢ : ١٥٥.

(٣١) إعراب القرآن للنحاس٣ : ٥٦، مختصر في شواذ القراءات : ٨٩، المحتسب٢ : ٥٥، مجمع البيان٤ : ٢٥.

(٣٢) معاني القرآن للفراء٢ : ٣٧٥، تأويل مشكل القرآن : ٢٤، إعراب القرآن للنحاس٣ : ٣٩١، المحتسب٢ : ٢٦٠، (الأزفية) بالفاء.

(٣٣) إعراب القرآن للنحاس١ : ١٧٤، مجمع البيان١ : ٢٧، البيان في غريب إعراب القرآن١ : ٣٨.

(٣٤) الاتقان في علوم القرآن٣ :

(٣٥) هكذا ورد في كتاب «المفردات» ولا معنى له، لأنّ «يزفّون» هي القراءة المشهورة المدونة في المصاحف. والظاهر أنّه يريد «يزفون» بتخفيف الفاء وهي بمعنى «يزفّون» بالتشديد كما في إعراب القرآن للنحاس٣ : ٤٢٩.

(٣٦) الظاهر أنّها «يَزفّون» بضم الواو بمعنى يجمعون غيرهم على الزفيف كما في إعراب القرآن للنحاس٣ : ٤٢٩، المجمع البيان٧ : ٤٤٨.

القاضي عبدالجبّار وبلاغة القرآن

د. محمّد علوي مقدّم
تعريب: عبدالرحيم مبارك

من العلمـاء الذين امتلكوا حظّاً وافراً في الكتـابة، في مواضيـع العلوم القرآنية، والمسائل الكلاميّة، أبو الحسن عبدالجبّار الأسدآبادي[1] المتوفى سنة ٤١٥ هـ قاضي القضاة عند البويهيّين، وللأسف فانّ الكثير من آثاره لم يصل الى أيدينا، حيث امتدّت اليها يدالتلف والضياع، وبقيت بعض النسخ الخطيّة لآثاره حبيسةً في مكتبات اليمن.

ومن آثاره المهمّة التي وصلتنا:

١ ـ متشابه القرآن: الذي بقي بعيداً عن أنظار العلماء فترة طويلة، حتّى عثرت عليه أخيراً هيئة مرسلة من دار الكتب المصريه الى اليمن سنة ١٩٥٢م، وقد طُبع في القاهرة في مجلّدين مع تصحيح وتعليق الدكتور عدنان محمّد زرزور.[2]

٢ ـ تنزيه القرآن عن المطاعن: أورد البعض هذا الكتاب باسم (التنزيه) فقط[3]، وقد طُبع هذا الكتاب مرّةً في سنة ١٣٢٩هـ في مصر، وأخرى في طبعة مزدانة سنة ١٩٦٦م في بيروت.

٣ ـ المغني فى أبواب التوحيد والعدل: وهو أهمّ مؤلّفات القاضي عبدالجبّار، وقد بادرت وزارة الارشاد القومي المصرية لطبعه سنة ١٩٦٠م في عدّة مجلّدات، ثمّ طُبع المجلّد السادس عشر من الكتاب المذكور في مصر منفصلاً بإسم (إعجاز القرآن)، ويقع في ٤٣٨ صفحة، ويتضمّن بحثاً مستفيضاً عن نبوّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ومسألة إعجاز القرآن في احتوائه الحدّ الأعلى من البلاغة التي يقصر الآخرون عن مجاراتها والإتيان بمثلها.

وقد خصّص القاضي عبدالجبّار نصلاً

من كتابه (إعجاز القرآن) لبحث مسألة الفصاحة والحديث عن مقوّماتها وعناصرها[٤] مستعرضاً خلال ذلك نظرية شيخه واستاذه أبي هاشم الجبائي، في انّ جزالة وحُسن المعنى يُضفيان كلاهما صفة الفصاحة على الكلام، وينبغي للكلام الفصيح أن يكون مشتملاً على كلا الميزتين معاً، ثم أضاف القاضي عبدالجبّار انّ فصاحة الكلام في نظر أبي هاشم الجبائي لاتنحصر في نظم الكلام، فالنظم وحده لايمكن أن يكون علّة للفصاحة.

وفي الواقع فانّه ردّ بهذا البيان على نظريّة الجاحظ والآخرين الذين يعتقدون ان اعجاز القرآن يكمن في نظمه واسلوبه الخاصّ المتفرّد، إذ يقول انّ اللفظ والمعنى ـ فضلاً عن النظم ـ لهما تأثيرهما ودروهما في اكتساب صفة الفصاحة.

وبعبارة اخرى فقد أراد القاضي عبدالجبار القول إنّ نظرية أبي هاشم الجبائي تتلخّص في أنّ الفصاحة مرتبطة باللفظ والمعنى، فاذا كان اللفظ جزيلاً والمعنى جيداً حسناً فذلك الكلام فصيح، لكنّ القاضي عبدالجبار بنظره الدقيق لم يقبل نظريّة استاذه الجبائي على علاتها لذا نراه يقول في الفصل التالي[٥]:

إنّ أبا هاشم الجبائي لم يأخذ الصورة التركيبيّة للكلام بنظر الاعتبار، في حين انّ هذا الموضوع نفسه، من المسائل الأساسية للبلاغة، فالفصاحة ترتبط باللفظ والمعنى بنفس القدر الذي ترتبط فيه بتأليف المفردات وتركيبها بشكل خاص متميّز، وقد بيّن عبدالقاهر الجرجاني، بعد ذلك، في كتابه (دلائل الاعجاز) نظرية عبدالجبّار هذه.[٦]

انّ اللّفظ، في نظر عبدالجبّار، لايمتلك بمفرده أهمية كبرى، اذيُمكن أن يكون اللفظ نفسه في جملة ما أفصح منه في أخرى، كما انّ المعاني أيضاً لاتمتلك وحدها أهميّة زائدة، حيث نشاهد أحياناً أنّ خطيباً يذكر ببيانه معنىً معيّناً أفضل ممّا يفعله الخطيب الآخر.[٧] وتتلخّص نظرية القاضي عبدالجبّار حول الفصاحة في انّ كيفية التركيب هي الركن الأساسي للبلاغة والفصاحة، فهو يقول: «اعلم انّ الفصاحة لاتظهر في أفراد الكلام وانّما تظهر في الكلام بالضمّ على طريقة مخصوصة».[٨]

وقد ذكر عبدالقاهر الجرجاني هذا المطلب أيضاً، في فصل يبحث الفرق بين الحروف والكَلم المنظومة[٩] وأبان عنه بقوله[١٠]: «انّ علّة كون كلام» أفضل من كلام آخر هي في كيفيّة إيراده وطريقة أدائه.

وتكتسب كتب القاضي عبدالجبار

أهميّة خاصّة، لأنّها تدور غالباً حول المسائل القرآنية، حيث ضمّنها الكثير من المباحث البلاغية التي كانت مثاراً للجدل والمناظرة، مع ردّه على شبهات الطاعنين واشكالاتهم الّذين صوّر لهم فهمهم السقيم لآيات القرآن انّ هناك تناقضاً في الظاهر بينها.

ويعتقد القاضي عبدالجبّار انّ للكلام الفصيح درجات ومراتب مختلفة، إذ يمكن القول انّ كلاماً ما أعلى وأفضل من كلام آخر، من جهة فصاحته، وانّ كلاماً أوطأ وأدنى منه، ومن هنا كان التحدّي والمعارضة أمراً صحيحاً، فبالمعارضة يمكن اثبات انّ كلاماً ما أفضل من كلام آخر، وقد خصّص القاضي عبدالجبّار لذلك فصلاً في كتابة (إعجاز القرآن) لـ(بيان صحة التحدّي بكلام فصيح).[11]

انّ من المسلّم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه كان يقول إنّ هذا الكلام(القرآن) من عندالله عزّوجل ومختصّ به، وآية(... ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) سورة النساء: ٨٢ نفسها دليل على اختصاص القرآن بالله عزّوجلّ ونزوله من عنده، وكان يحصل أن ينتظر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويترقّب نزول آيات القرآن، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتحدّى بالقرآن[12] ويدعو الناس الى معارضته والإتيان بمثله حيث جعله دليل نبوّته، لكنّ أحداً عجز أن يأتي بنظيره لسموّ كلام القرآن وعلوّ رتبته.

ولقد خصّص القاضي عبدالجبار فصلاً لهذا الموضوع في كتابه)(إعجاز القرآن) وقال[13]: انّ القرآن معجز، ومعنى قولنا(القرآن معجز) أنّ الاتيان بنظير له في الفصاحة والبلاغة متعذّر على الآخرين، بل هو غير ممكن، وهذا العجز لاينحصر في الاتيان بكلام وحروف مثل القرآن، ولا في النظم والتأليف، بل انّه يتحقق بكلّ هذه الأشياء ومجموعها.

وأضاف القاضي عبدالجبار: انّ أحداً لم يستطيع أن يعارض القرآن ويأتي بكلام يماثله، ولو فعل ذلك أحد فانّ خبره كان سيصل الينا حتماً؛ وردّ القاضي عبدالجبّار على ادّعاء اميّة بن خلف الجمحي وقوله(لونشاءُ لقلنا مثل هذا) بأنّ الادّعاء المحض لاقيمة له ولايعدّ دليلاً على التمكنّ من المعارضة[14]، وكما يقول أبوهاشم الجبائي: لو انّ أحداً أورد نظيراً أو نظائر للآيات القرآنية لما خفي ذلك على الناس ولفشى ذلك ووصل الينا.[15]

وتحدّث القاضي عبدالجبار في(إعجاز القرآن) عن وجوه الإعجاز المختلفة في كتاب الله وعرض للآراء التي قيلت في هذا

الشأن[١٦] :

أ ـ بعض يعتقد أنّ القرآن معجز لأنّه في المرتبة العليا من الفصاحة الخارجة عن حدود الفصاحة المعهودة المتداولة لذا فهو معجز.

ب ـ وبعض على انّ القرآن معجز لأنّ له نظماً خاصاً خارجاً عن النظم المعهود المألوف.

ج ـ وبعض أخر على انّ القرآن معجز لأن الأفراد القادرين على معارضته قد (صرفت هممهم عن المعارضة).[١٧]

غير انّ القاضي عبدالجبّار لايؤيّد قانون (الصرفة) بدليل الآية : **﴿قُل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً﴾** سورة الاسراء: ٨٨.

لأنّ تعذّر معارضة القرآن إن كان بـ(صرف الهمم وسلب القوى والقدرات فلايكون هناك معنى ومفهوم للمظاهرة والمعاونة التي تحدّثت عنها الآية (. . . **ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً**)، لأنّ المظاهرة والمعاونة انّما تكون مع القدرة والتمكّن لابفقد القدرة وسلب التمكّن، في حين انّه يُستنبَط من مفهوم الآية انّهم اذا كانوا قادرين متمكّنين أيضاً فلن يمكنهم معارضة القرآن والاتيان بمثله.[١٨]

د ـ ويرى آخرون أنّ اعجاز القرآن ناشىء عن سموّ المعاني وعلوّ المضامين التي يحتويها القرآن الكريم وانسجام هذه المعاني مع العقل والفطرة.

هـ ـ فيما ذهب بعضهم الى انّ اعجاز القرآن يكمن في إخباره عن المغيّبات وحوادث المستقبل التي تحقّق وقوعها بعد نزول القرآن[١٩]، كما في الآيات التالية :

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليُظهره على الدين كلّه ولوكره المشركون﴾ سورة التوبة: ٣٣.

﴿لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنين . . .﴾ سورة الفتح: ٢٧ حيث صدقت الرؤيا ووقع ماكان أخبر به الوحي.

وكذا آية **﴿الم غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون في بضع سنين﴾** سورة الروم: ١ ـ ٤ التي تحقّق ما ورد فيها من الوعد وتبدّلت هزيمة الروم الكتابيين، أمام الفرس، في بدء الحرب، التي نشبت بين قوّتيهما العظميين يومذاك الى غلبة وانتصار في عاقبة الأمر.

وآية **﴿. . . وإذ يعدكم اللّه إحدى الطائفتين انّها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد اللّه أن يُحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾** سورة الأنفال: ٧

التي انتهت بهزيمة المشركين في معركة بدر.

وآية «وعدكم الله مغانم كثيرة فعجّل لكم هذه وكفّ أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً» سورة الفتح: ٢٠.

وآية «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار التي وقودها الناس والحجارة أُعدّت للكافرين» سورة البقرة: ٢٤ التي خاطبت فصحاء العرب وكانوا في الواقع عاجزين عن معارضة القرآن - كما تنبأ - فلم يتمكّنوا ان يأتوا بمثله ولو آية واحدة.[٢٠]

لقد كرّس القاضي عبدالجبار كلّ همّه في تأليفاته في الردّ على الشبهات الواهية للطاعنين والقائلين بتناقض آيات القرآن، وان يّثبت من هذا الطريق مسألة إعجاز القرآن.

وقد خصّص فصلاً من كتابه (إعجاز القرآن) تحت عنوان(فصل في الجواب عن مطاعن المخالفين في القرآن) ردّ فيه على إشكالهم القائل بأنّ في الآيات القرآنية تكراراً وتطويلاً يُخلّ بالفصاحة، ردّ بأن العادة جارية على بيان الموضوع الواحد في الموارد والأغراض المتباينة بألفاظ مختلفة، وليس هذا من معايب الكلام وانّما يعدّ التكرار معيباً ومخلاً بالفصاحة اذا جرى التكرار لمطلب بعينه في موضوع وغرض واحد، وبعبارة اخرى لو تكررّت الكلمة في جملة واحدة أو في عدّة جمل متقاربة دون مسوغ، امّا التكرار الوارد في القرآن الكريم فليس من هذا القبيل، فكلّ مورد نجد فيه تكراراً لكلمة أو آية نجد الى جانبه غرضاً خاصاً سيق هذا التكرار للتعبير عنه والإشارة اليه.

وكمثال على ذلك، فقد ردّ القاضي عبدالجبار على التشكيك بجدوى التكرار الوارد في سورة الرحمن للآية الكريمة «فبأيّ الآء ربكما تكذّبان» بأنّ تكرار هذه الآية ليس هو من نوع التكرار بلا فائدة بل كان لعدّ النعماء الالهية التي بُيّنت في سورة الرحمن، الواحدة تلو الاخرى، ولتذكير عباد الله، وتنبيههم بقدرة الله ولطفه بالعباد، وفي الواقع فانّ تكرار الآية المذكورة كان للتنبيه، على تعدّد المتعلّق، والاشارة الى نعم الله التي لاتُحصى؛ فانّ الخطاب للانس والجنّ، بعد ذكر كلّ نعمة، ولو انّه استعمل منفصلاً وكان بعبارة واحدة، لكن مورده ومتعلّقه مختلف، وهذا تماماً كما لو كنت تريد منع شخص عن قتل مسلم وظلمه ونهيه عن عمله القبيح فتقول:

«أتقتل فلاناً وأنت تعرف فضلَهُ؟»

«أتقتل فلاناً وأنت تعرف صلاحَهُ؟»

ولربّما يعترض البعض بأنّ هناك في سورة الرحمن آيات لاتتحدث عن النعم الالهية بل تتحدث عن العذاب والجزاء كما في الآيات ٤٣ — ٤٥ من السورة الآنفة الذكر:

«هذه جهنّم التي يكذّب بها المجرمون. يطوفون بينها وبين حميم آن. فبأيّ آلآء ربكما تكذّبان»

أو في الآيتين ٣٥ و٣٦ لنفس السورة:

«يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران. فبأي آلآء ربكما تكذّبان»

فيردّ القاضي عبدالجبار[٢٢]: صحيح أنّ جهنّم وعذابهما ليس من الآلاء والنعم الالهية، لكنّ وصفها وتحذير الناس من عذابها، لإبعادهم عن المعاصي والذنوب، وصرفهم عن الأعمال القبيحة، وتوجيههم للطاعات والعبادات والذي يستتبع توجّه الناس الى طاعة الله هو نفسه موهبة يمكن اعتبارها من النعم الالهية.

وكذا الحال في آية **«ويل يومئذ للمكذبين»** التي تكررت عدّة مرات في سورة المرسلات، حيث جاءت في موارد مختلفة، وفي مواضيع متباينة لا في مورد خاصّ واحد، فقد ذكرت آية **«وما أدراك ما يوم الفصل»** سورة المرسلات: ١٤، ثم أتي بآية **«ويل يومئذ للمكذّبين»** بعدها، ومن ثمّ كرّرت هذه الآية **«ويل يومئذ...»** بعد الآية ٤٤ لنفس السورة: **«انّا كذلك نجزي المحسنين»**.

وخلاصة الأمر فانّ تكرار الأية الآنفة الذكر لم يجيء في مورد واحد بل جاء في موارد مختلفة، لذا فهو لايعدّ تكراراً.

وعن شبهة الذين تساءلوا عن فائدة تكرار كلمة **«يسألونك»** في آية **«يسألونك عن الساعة ايّان مرسيها قل انّما علمها عند ربّي لايجلّيها لوقتها الاهو ثقلت في السماوات والارض لاتأتيكم الا بغتة يسألونك كأنّك حفيّ عنها قل انّما علمها عند الله ولكنّ أكثر الناس لايعلمون»** سورة الاعراف: ١٨٧.

قال القاضي عبدالجبار[٢٣]: انّهم سألوا أوّلاً عن وقت الساعة، فبين أن يحكم بأن علم ذلك عند ربّه تعالى وانّ الصلاح ان لايبيّن ذلك ليكون العبد الى الرجاء أقرب، وأراد بقوله ثانياً (**يسئلونك كأنك حفيّ عنها**) المسألة عن نفس الساعة فقد كان عالماً بها في الجملة فليس في ذلك تكرار.

وفي جواب الطاعنين الذين لم يعرفوا التفاوت اللغوي بين الكلمات وتصوّروا في استعمال كلمتين مترادفتين قريبتين في المعنى تكراراً، وقالوا انّ في آية **«ومن يكسب خطيئةً أو إثماً ثمّ يرم به بريئاً فقد**

حتمل بهتاناً وإثماً مبيناً» سورة النساء: ١١٢ ، نال القاضي عبدالجبار[٢٤]: انّ من المعاصي مايكون خطأ ومنها مايكون عمداً، فالأثم لايكون الا عمداً والخطيئة قد تقع وهو غير عالم بها، نحو أن يأكل ويعلم أنّه صائم وأن يأكل ولايعلم ذلک، لذا فلا تكرار فى الآية لتفاوت مفهوم كلمتي(الاثم) و(الخطيئة).

لقد خلت كتب القاضي عبدالجبار من البحث المستقل المحض، في المسائل والنكات البلاغية، وكان همّه كما أسلفنا الحديث عن ردّ الشبهات، فمثلاً قال البعض: إنّ في بعض آيات القرآن تطويلاً، والتطويل والاطالة ينافيان بلاغة القرآن، وذكروا مثالاً لذلک الآية ٢٤ من سورة النساء: «حُرِّمت عليكم امّهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعمّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وامّهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة...»

فردّ القاضي عبدالجبّار في جوابهم[٢٥]: لقد كانت الآية في مقام كان ينبغي فيه بيان المطلب بشكل واضح، وهذا يستلزم ذكر موارده بالتفصيل، وأصولاً فقد كان ايجاز ذلک متعذّراً، وكان الكلام في الواقع حسب مقتضى الحال، ومناسباً للموضوع، ولم يكن من الاطالة قط بل ان التطويل في هذا المورد أبلغ والايجاز كان سيخلّ بالمعنى.

ان الاطالة بدون نتيجة تكون حين يأتي المتكلّم بمطالب عديمة الجدوى في كلامه، فحين تريد ـ مثلاً ـ أن تبيّن انشغالک بشيء فيكفي ان تقول لمخاطبک: لديّ عمل، لكن ذكر جزئيات العمل، وبيان مسائله واحدة واحدة يعدّ في هذه الحالة، تطويلاً في غير محلّه.

وقد أجاب القاضي عبدالجبار[٢٦] على الذين تساءلوا في معرض الطعن والشبهة عن معنى ومفهوم التشبيه والتمثيل الذي ورد في آية:

«انّ اللّه لايستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها...» (سورة البقرة: ٢٦) بأن اللّه تعالى لمّا ضرب مثل الهتهم بالذباب «انّ الذين تدعون من دون اللّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لايستنقذوه منه...»(سورة الحج: ٧٢)، وضرب أيضاً مثلهم بالعنكبوت وضعف نسيجه «مثل الذين اتّخذوا من دون اللّه أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً...»(سورة العنكبوت: ٤١)، قال الكفّار طعناً في ذلک: كيف يضرب تعالى مثل الهتنا بهذه المحقّرات؟ فأنزل اللّه تعالى هذه الآية وأراد انّه انّما يضرب المثل بما هو أليق

بالقصّة وأصلح في التشبيه.

ونحن نعلم انّه كلّما زاد الارتباط بين المشبّه والمشبّه به كان التشبيه أجمل وقعاً في النفوس وأكثر تأثيراً، لأنّ المقصود من التشبيه تجسيد وتمثيل صفة شيء أو شخص ما ليدركه الذوق السليم بشكل أفضل، فتشبيه اعتدال قامة شخص وطولها واستقامتها بشجر السرو يعدّ مدحاً لكنّه ينقلب الى التقبيح والذمّ اذا شبّهناها بشجر الصنوبر.[٢٧]

وفي معرض الرد على شبهة الذين قالوا انّ القرآن الكريم شبّه مرّة عصا موسى بالثعبان المبين في آية ﴿**فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين**﴾(سورة الشعراء: ٣٢) وشبّهها بالجانّ مرّة اخرى في آية ﴿**وألق عصاك فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانّ ولّى مدبراً...**﴾(سورة النمل: ١٠)، وأن في ذلك تناقضاً؟ قال القاضي عبدالجبّار[٢٨]:

انّ المراد أنّها كالثعبان في العظم وكالجانّ[٢٩] في سرعة حركتها حيث خلقت من نار السموم، فلا تنافض.

وفي نظر القاضي عبدالجبار فانّ كلمات: تشبيه، تمثيل وتشبيه التمثيل هي واحدة لافرق بينها مطلقاً، فحين ردّ على شبهة الذين قالوا: كيف يمكن في آية ﴿... **وانّ الدار الآخرة لهي الحيوان...**﴾(سورة العنكبوت: ٦٤) ان نصف(الدار الآخرة) التي هي جماد بـ(الحيوان)[٣٠] والحياة؟

قال[٣١]: انّ الدار الآخرة هي عين الحياة، وهذا نفسه تشبيه، لأن دار الآخرة باعتبار نعيمها الأزلي قد شبّهت بالحياة الأزلية والعيش الخالد، لكنّ القاضي عبدالجبار عدّ ذلك من مقولة(المجاز) ولم يضع فارقاً بين المصطلحات البلاغية التي شاعت فيما بعد، فقال في ذيل البحث عن الآية[٣٢]: وجوابنا انّه تعالى بيّن بهذا المجاز مالايفهم بالحقيقة؛ إذ المراد انّ هذه الدار من حقّ الحياة فيها أن تدوم ولاتنقطع، ومن حقّها أن يدوم نعيمها بلابؤس.

فمع ان المسائل البلاغية والبحوث النقدية كان لها في القرن الرابع ازدهار خاص، لكن مصطلحات البلاغة لم تكتب ـ كما هي اليوم ـ حدودها وأبعادها الدقيقة، وقد استعملت في مؤلفات القاضي عبدالجبّار المصطلحات البيانية الواحدة بدل الأخرى، وكان الهدف هو اثبات اعجاز القرآن عن طريق ردّ الشبهات والطعون، فمثلاً أجاب الذين تساءلوا عن معنى(فبصرك اليوم حديد) في آية ﴿**لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**﴾.[٣٣](سورة ق: ٢٢)

بقوله[٣٤]: هذا الآية في الواقع تشبيه،

لان البصر شبّه بالحديد، فحين يرتفع المانع يصبح البصر في رؤيته نافذاً؛

وفي البحث عن الآيات ﴿اولئك هم الوارثون* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾. (سورة المؤمنون: ١٠ـ١١)

حيث تساءل الطاعنون عن معنى الآية ولماذا جرى التعبير بالارث بينما معنى الإرث لايصحّ منهم؟

أجاب القاضى عبدالجبّار[٣٥]: بأنّ في هذه الآية تشبيهاً بليغاً، لانّه شبّه وصولهم الى الفردوس من دون سبب[٣٦] يأتونه بوصول المرء للاملاك بالميراث عند الموت دون سبب ومشقّة.

انّ القاضي عبدالجبّار لم يبحث عن التشبيه بصراحة، ولكن يمكن من خلال بحوثه استنباط النكات والمطالب البلاغية، كما هي الحال في البحث عن الآية ﴿... وترى الناس سكارى وماهم بسكارى...﴾. (سورة الحج: ٢) التي قال بعضهم ان فيها تناقضاً، حيث أجاب القاضي عبدالجبّار[٣٧]: ان المراد انّهم قد بلغوا في التحيّر حدّ السُّكر وإن لم يكن هناك سكر، وهذا تشبيه ولو ان القاضي عبدالجبار لم يُشر اليه صراحة.

وفي البحث عن آية ﴿النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه امّهاتهم﴾(سورة الاحزاب: ٦)، حيث قالوا: كيف يصّح في أزواجه أن يكنّ أمّهاتهم؟ أجاب القاضي عبدالجبّار[٣٨]: ان المراد تأكيد تحريمهنّ على المؤمنين؛ يعني ان القرآن الكريم قد قال في الواقع: كما انّ النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو أب المؤمنين الروحي والمعنوي فنساؤه أيضاً بمنزلة امّهاتهم، ويقول القاضي عبدالجبار «فأكّد ذلك بأن شبّههن بالأمّهات» يعني: انّ القرآن قد أكّد تحريم الزواج بنساء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بتشبيههنّ بالأمّهات.

ويضيف القاضي عبدالجبار: وربّما حذف في التشبيه اللفظ (أداة التشبيه) ليكون (التشبيه) على وجه التحقيق، ولقد سمّى القاضي هنا هذا النوع من التشبيه الذي ندعوه اليوم بالتشبيه البليغ، سمّاه: (تشبيه على وجه التحقيق)، وهما واحد بلحاظ المعنى والمفهوم، لأن القصد هو المبالغة في التشبيه.[٣٩]

وفي باب آية ﴿اللّه وليّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات الى النور﴾(سورة البقرة: ٢٥٧)، حيث أورد الطاعنون شبهة أنّ اللّه قد أوجد الايمان لدى المؤمن، لان اللّه يخرج المؤمنين من الكفر بالايمان، فهو فعل اللّه أجاب القاضي في ردّهم[٤٠]: لقد كان استعمال الظلمة والنور في الكفر والايمان

مـجازاً، لأنّ النور في الواقع منبع الحيـاة ومنشأ النمو لجميع الأشياء، والظلمة رمز السكوت والموت، حيث جاء هذا التعبير بهذا المعنى كثيراً في القرآن الكريم كما في آية:

﴿... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ (سورة المائدة: ١٥)

وآية **﴿يهدي به الله من اتّبع رضوانه سُبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم﴾** (سورة المائدة: ١٦)

وقد عُبّر عن القرآن الكريم بالنور لأهميّته الكبيرة وتأثيراته العميقة في هداية البشر وتربيتهم، لأنه يهدي الناس ويسوقهم من ظلمات الشرك والجهالة والنفاق الى نور التوحيد والعلم والاتّحاد، ويوصلهم الى الصراط المستقيم الذي لا أمت فيه ولاعوج.

وعلى أي حال، فقد كان التعبير بالنور عن الايمان وبالظلام عن الكفر من مقولة(المجاز)،[٤١] وقد ورد هذا التعبير أيضاً في آية:

﴿الر * كتاب أنزلناه اليک لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربّهم...﴾ (سورة ابراهيم: ١)

فاخراج الناس من الظلمات الى النور يعني إخراجهم من ظلمة الجهل الى نور الظلم، ومن ظلمة الكفر الى نور الايمان، ومن ظلمة الظلم الى نور العدالة.

وفي جواب الذين قالوا في آية **﴿يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾** (سورة الرعد: ١٣)؛ وكيف يصحّ التسبيح من الرعد؟ قال القاضي عبدالجبار[٤٢]: إنّ المراد دلالة الرعد وتلك الأصوات الهائلة على قدرته وتنزيهه؛ فهذه الدلالة من مقولة الاستعارة ويجب الأ يحمل التسبيح فى هذه الآية على معناه الحقيقي بل يجب حمله على معناه المجازي،[٤٣] وقد حمل القاضي عبدالجبار كلّ التسبيحات التي تصدر من الجمادات على المجاز لاعلى الحقيقة.

وفي جواب الذين قالوا في قوله تعالى: **﴿يا أبت لاتعبد الشيطان إنّ الشيطان كان للرحمن عصيّاً﴾** (سورة مريم: ٤٤)، كيف جاز من ابراهيم عليه السّلام أن يقول ذلک ولم يكن أبوه ممّن يعبد الشيطان؟ قال القاضي عبدالجبار[٤٤]: ان المقصود من فعل(لاتعبد) بصيغة النهي في الآية المذكورة هو النهي عن الاتباع والاطاعة، وبعبارة اخرى فإن فعل (لاتعبد)، حسب قول القاضي عبدالجبار، قد استعمل في غير معناه الحقيقي، كما في آية:

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من

دون الله. . . ﴾ (سورة التوبة: ٣١) حيث جرى الاستعمال في المعنى المجازي لا في المعنى الحقيقي، وأضاف القاضي عبدالجبار في خاتمة بحثه حول هذه لآية: [٤٥] فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لم يتّخذوهم أرباباً بالعبادة ولكن أطاعوهم في التحليل والتحريم.

وفي البحث عن آية ﴿ينزّل الملائكة بالرّوح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا. . . ﴾ (سورة النحل: ٢)، حيث تساءل المشككون والطاعنون عن معنى إنزال الروح وكيف يكون الروح أمراً؟ فأجاب لقاضي عبدالجبّار [٤٦]: انّ المقصود من(الروح) في هذه الآية: الوحي والقرآن، وبتعبير القاضي عبدالجبار فقد «سمّي القرآن روحاً لأنه بمنزلة الروح الذي يحيا به أحدنا من حيث يحيا به الانسان في أمر دينه، وانّه يؤدي الى الحياة الدائمة، وفي الواقع فقد قيل للقرآن والشرع روحاً على سبيل التشبيه والاستعارة.

ولا شك أنّ كلمة الروح وردت في القرآن بمعان أخر، لكنها في وردت في هذه الآية ـ بعد أخذ القرائن الموجودة بنظر الاعتبار ـ بمعنى القرآن والوحي. [٤٧]

وخلال حديثه عن الايتين ﴿قال ربّ اشرح لي صدري* ويسّر لي أمري﴾ (سورة طه: ٢٥ ـ ٢٦)

يقول القاضي عبدالجبار [٤٨]: انّ المقصود من (شرح الصدر) في هذه الآية ليس معناه الحقيقي بل معناه المجازي، أي امتلاكه الصبر والتحمّل والثبات والاستقامة في المصاعب والشدائد، اذ بعث موسى عليه السّلام برسالة ومهمّة كبيرة، كانت احدى طلباته ليتمكّن من القيام بها، هي مسألة (شرح الصدر) وطبعاً بمعناه المجازي، و(شرح الصدر) هذا هو نفسه الذي عدّه الباري عزّوجلّ موهبة عظيمة من المواهب التي منّ بها على نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وذكرها في سورة الانشراح﴿ألم نشرح لک صدرك﴾.

ويعتقد القاضي عبدالجبار أن المعاني المجازية للكلمات تحوز أهمية كبيرة، وانّ كثيراً من الكلمات القرآنية كان النظر فيها الى المعنى المجازي؛

فقد قال[٤٩] في الردّ على الذين سألوا عن معنى كلمة(حرف) في قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ (سورة الحج: ١١)؛

في هذه الآية تشبيه لطيف للغاية، لأن المنافق يظهر العبادة ويبطن خلافها، فشبّه تعالى ظاهر أمره بحرف، لأنّ الحرف هو طرف الشيء والمرء يحتاج من العبادة أن

يظهر باطناً وظاهراً، فلمّا أظهر المنافق ذلك من أحد الوجهين وصفه تعالى بذلك.

انّ الاشخاص الذين يقفون على الحافّة والحرف سيكونون عرضة للتغيير والانزلاق بأدنى حركة؛ وقد أضاف القاضي عبدالجبار: [٥٠]وهذا الجنس من التشبيه يبلغ من الفصاحة ما لاتبلغه حقائق الكلام. ونلاحظ انّه بسبب عدم تشخّص المسائل البيانية في زمن القاضي عبدالجبار بالشكل الذي هي عليه اليوم، فقد استعمل القاضي كلمة (المجاز) بدل التشبيه والاستعارة التي تستعمل حالياً، فمثلاً في آية: **﴿وحرّمنا عليه المراضع من قبل...﴾** (سورة القصص: ١٢)، حيث لم يقبل موسى عليه السّلام أن ترضعه المرضعات، ربّما لانّه لم يكن يتقبّل طعم حليبهنّ، وربّما لأنه كان يحس بالخوف من منظرهنّ الذيّ كان غير مألوف لديه، قال القاضي عبدالجبار[٥١]:

المراد به الصرف والمنع لا التحريم في الحقيقة؛ فكلمة (حرام) في هذا المورد قد استعملت (مجازاً)، وأنهى القاضي كلامه بعبارة «فليس لأحد أن يطعن بذلك...»

لكن الآخرين قالوا: انّ (التحريم) في الآية المذكورة قد استعمل استعارةً، اذ في الواقع قد شبّه (الصرف) و (المنع) بالتحريم. كما ذكر أبوالسعود في ذيل الآية مورد البحث[٥٢]:

﴿وحرّمنا عليه المراضع...﴾ أي منعناه أن يرتضع من المرضعات، والمراضع: جمع مُرضع وهي المرأة التي ترضع، أو مَرضع وهو الرضاع أو موضعه أعني الثدي.

وكذا الأمر في آية **﴿... انّ الله حرّمهما على الكافرين﴾** (سورة الاعراف: ٥)، اي انّ كلمة (تحريم) في هذه الآية قد استعيرت للتحريم التكويني، اي ان وضع أهل النار بالشكل الذي لايتمكّنون فيه أن يفيدوا من نعم الجنّة، وكذا الحال في آية **﴿وحرام على قرية أهلكناها أنّهم لايرجعون﴾** (سورة الانبياء: ٩٥) حيث ان كلمة (حرام) في الآية تعني المنع وقد استعلمت استعارة.

وقد كتب الزمخشري يقول[٥٣]:

استعير الحرام للممتنع وجوده؛ اي ان الزمخشري اعتبر كلمة (حرّم) في آية (... **انّ الله حرّمها على الكافرين**) (استعارة) وكتب في تفسيرها: أي منعهما منهم وأبى أن يكونا لهم. وخلاصة الكلام ان القاضي عبدالجبار حمل مشتقّات كلمة (الحرام) في هذه الآيات على المعنى المجازي، واعتبرها الزمخشري من الاستعارة.

وفي جوابه عن الذين تساءلوا عن معنى (العذاب الأدنى) في آية: **﴿ولنُذيقنّهم من**

العـذاب الأدنى دون العـذاب الأكـبر لعلهّم يرجعون﴾ (سورة السجدة: ٢١)، قـال القـاضي عبدالجبار[٥٤]: وجـــوابـنـا انّ المراد (من العـذاب الأدنى) مـا عـجّله من الآلام لكي يصلحوا، فسمّاه عذاباً مجازاً، فالمقصود من العـذاب الأدنـى: المصـائب والآلام أو القحط والجفاف.

وقد كتب سيد قطب في الكلام حول الآية المذكورة[٥٥]:

لكنّ ظلال الرحمة تتراءى من وراء هذا العـذاب الأدنى، فـاللّه سبـحـانه وتعـالى لايحبّ أن يعـذّب عبـاده إذا لم يسـتحقّوا العـــذاب بـعلمـــهـم واذا لم يصـــرّوا على مـوجـبـات العـذاب، فـهـو يوعـدهم بأن يأخـــذهم بـالعـــذاب في الأرض (لعـلّهم يرجعـون) وتستـيقظ فطرتهم ويردّهم ألم العذاب الى الصواب.

وكـتب الطوسي في ذيل الآية سـابقـة الذكر[٥٦]:

أقـسم اللّه تعـالى في هـذه الآية ـ لأنّ اللام في قـولـه (ولنذيقنّهـم) هي التي يتـلقى بهـا القـسم وكـذلك النون الثـقيلة ـ بأنّه يذيق هؤلاء الفسّاق الذين تقدّم وصفهم العـذاب الأدنى بعض ما يستحقّونه. وقيل: «العذاب الأدنى هو الأصغر وهو عـذاب الدنيا بالقتل والسبي والقحط والفقر والمرض...»

وقـال الشيخ الطبرسي أيضاً[٥٧]: امّا العـذاب الأكـبـر فـهـو عـذاب جـهنّم في الآخـرة، وامّا العـذاب الأدنى في الدنيـا، فاختلف فيه فقيل انّه المصائب والمحن في الأنفس والأموال.

وهناك نكتة مهمة اخرى في الآية مورد البحث وهي: لماذا استُعملت كلمة (أدنى) مقـابل كلمـة (أكـبر) وكـان لازماً انّ كلمـة (أدنى) تقـابل كلمة (أبعـد)، أو ان تستـعمل كلمة (أصغر) مقابل كلمة (أكبر)؟

انّ عذاب الدنيا له خاصيّتان:

أ: انّه قليل وصغير.

ب: انّه قريب (أدنى).

وان مقـتـضى البـلاغـة في هذا المورد توجب أن لايبـحث في مسـألة قلّة العذاب وصغره، بل انّ من الأنسب ان يتـحدّث عن قـربة، حـيث يجيء بكلمـة (أدنى) لهـذا الغرض.

وعذاب الآخرة يمتلك أيضاً صفتين:

أ: إنّه بعيد.

ب: إنّه عظيم وكثير.

وفي هذا المورد فـالمنـاسب ان يبحث حول عظمه وكثرته (أكبر) وليس حول بعده (كونه أبعد).

وبالجـملـة فـقـد اختـار اللّه تـعـالى من العذابين الوصف الذي هو أصلح للتـخويف

من الوصفين الآخرين لحكمة بالغة.[58]

وفي البحث عن آية ﴿. . . ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (سورة المائدة: ٥) حيث قال الطاعنون: كيف يمكن قول (يكفر بالإيمان)، وانّما يكفر المرء بالله تعالى؟ أجاب القاضي عبدالجبار[59]: ان المراد جحد الإيمان، فإنّ من جحده فقد غطّاه، فشبّه ذلك بالكفر الذي هو التغطية، كما يُقال: يكفر بالسلاح؛ وقد قال القرآن في الواقع انّ من يعترض على حكم الله ـ الذي ذُكر في صدر الآية ـ وينكره فقد أضاع وأهدر أعماله، وقد شبّه جحد الشرائع والجهل بها في هذه الآية بالكفر والتغطية، وقد جيء باستعارة للمشبّه والمشبّه به في هذه الآية.

وفي الحديث عن آية ﴿ ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انّه من عبادنا المخلصين﴾ (سورة يوسف: ٢٤) حيث قال الطاعنون: إنّ هذه الآية تدل على جواز معاصي الأنبياء وأنّهم أيضاً يمكن أن يرتكبوا المعاصي لولا انّ ارادة الله تمنعهم وتحفظهم، قال القاضي عبدالجبار في جوابهم[60]: انّ نسبة كلمة (همّ) ليست مطلقة لكليهما، فهي مقيّدة في شأن يوسف حيث جاءت جملة (لولا أن رأى برهان ربّه) بعدها، في حين ان نسبة (همّ) اي القصد والتصميم الى زليخا مطلق بدون قيد أو شرط. وبعبارة أخرى فانّ (همّ) من جانب يوسف مشروطة ومقيّدة، أي مقيّدة بروح الإيمان و التقوى وتربية النفس ومقام العصمة، لكنها من جانب زليخا كانت مطلقة وغير مقيدة بشيء.

اي ان القاضي عبدالجبار يقول: انّ ﴿همّ﴾ في الآية قد استعملت في معناها المجازي (بالنسبة ليوسف) وليس في المعنى الحقيقي (اي العزم على مواقعة زليخا)، والمعنى المجازي الذي رمى اليه القاضي عبدالجبار ان نقول ﴿انّه اشتهى ما دعته اليه﴾، وجملة ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ نفسها قرينة على انّ الله قد نزّه يوسف عليه السّلام عن القبائح والتلوّث بها، وجملة ﴿انّه من عبادنا المخلصين﴾ قرينة أخرى على اجتباء يوسف، وعلاوة على كلّ هذا فقد جاء في الآية السادسة من نفس السورة مايفيد اجتباء الله تعالى ليوسف: ﴿كذلك يجتبيك ربك﴾. (سورة يوسف: ٦).

وقد ذكر الفخر الرازي أيضاً واحداً من الوجوه المختلفة الموجودة في الآية فقال:[61]

إنّ تفسير «همّ» بمعنى الشهوة والميل كثير في اللّغة، كأن يقول أحد في ما لايشتهيه: ما يهمّني هذا، وفي ما يشتهيه: هذا أهمّ الأشياء اليّ. وقد سمّى القرآن الكريم رغبة يوسف وشهوته «همّ»، وعلى هذا فان معنى الآية هو ولقد اشتهته واشتهاها لو لا أن رأى برهان ربّه.

وهناك أقوال أخرى في باب «برهان الخالق»

الهوامش:

(١) عبدالجبار أحمد بن خليل بن عبدالله، المعروف بالقاضي عبدالجبار، عدّه البعض همدانياً، وقال البعض انّه من أهل الريّ، وعدّه آخرون منسوباً لأسد آباد ـ قرب همدان ـ وأسد بن ذي السرو الحميري هو الذي بنى(عبّادان).

للتوسّع تراجع المصادر التالية:

أ: السمعاني، الأنساب، ١: ٢١١، طبع حيدرآباد دكن، الهند.

ب: خيرالدين الزركلي، الأعلام، ط٣، بيروت ٤: ٤٧.

ج: السبكي، طبقات الشافعية ٣: ٢١٩.

د: ياقوت، معجم البلدان، طبع مصر، ١: ٢٥٥.

عدّوا عبدالجبار منسوباً للريّ لأنه نشأ وكبر هناك، ثم درس وارتفع في تلك المدينة الى مراتب عالية.

وكانت الريّ في القرن الرابع الهجرى مدينة كبيرة عظيمة وفيرة المحاصيل، وقد فتحها المسلمون في عصر خلافة عمر بن الخطاب سنة ٢٢ هـ، وقد نمت هذه المدينة تدريجياً وتقدّمت بشكل اكتسبت في القرن الرابع الهجري مركزيّة وأهمية غطّت على دار الخلافة بغداد، (في تلك الفترة التي دامت حوالي مئة سنة اكتسبت أهمية كبيرة بحيث عُدّت المدن الرئيسية التي تقع في أطرافها مثل قم، آوه، ساوة، زنجان وقزوين كلّها من توابع مدينة الري.

يراجع للتوسّع في المطلب:

أ: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع ليدن ١٩٠٩م ص ٣٨٥.

ب: الاصطخري، المسالك والممالك، طبع وزارة الثقافة والارشاد ص١١٩ وقد نقل ياقوت الحموي عن الأهمية الثقافية لمدينة الري في الجزء السادس من معجم الأدباء ص٢٥٩ (الطبعة الثالثة، دارالفكر ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) عن أبي الحسن البيهقي قوله انّ فهرست دارالكتب لمدينة الري قد نظّم في عشر مجلّدات، وعند قدوم السلطان محمود الى الري قيل له: انّ هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع، فاستخرج منها كلّ ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه.

وقد عدّ كثير من المؤرخين وأهل التراجم القاضي عبدالجبار همدانياً وقالوا انّ همدان كانت تعيش نهضة علمية وكان الكثير من العلماء والمحدثين أيضاً من تلك الديار، وقد فتحت هذه المدينة سنة٣٣ أو٣٤ هجرية من قبل المغيرة بن شعبة ودخل أهلها في الاسلام.

لقد شغل القاضي عبدالجبار منصب قاضي القضاة مدّة طويلة في دولة آل بويه ووزارة الصاحب بن عبّاد، وكان واحداً من مشاغله المهمة نصب وتعيين القضاة للمدن المختلفة، وكان القضاة يقصدونه في مسائل القضاء بدلاً من قصدهم حاكم الولاية، لذا اشتهر في كتب التراجم والطبقات بـ(القاضي عبدالجبار).

للتوسّع يراجع المصادر الثانية:

أ: السمعاني، الأنساب طبع حيدرآباد الهند ص ٥٩٢.

ب: ياقوت، معجم البلدان، طبع مصر ج٤ ص٩٨١.

وقد تحدّث الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ في المجلد الحادي عشر من تاريخ بغداد ص ١١٣ـ١١٥ عن القاضي عبدالجبار وعدّه من أسدآباد، وذكر أنّه ولي القضاء بالري وأرّخ لوفاته بدء سنة٤١٥ .

وقد كتب بعض اهل التراجم المتأخرين مثل عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ج٥ ص٧٨ انّ سنة ولادة القاضي عبدالجبار ٣٥٩ هجرية، ولكن نظراً لانّ القاضي عبدالجبار كان من المعمّرين وكانت سنة وفاته معلومة (٤١٥ أو٤١٦ هجرية) حيث عمّر أكثر من تسعين سنة، فمن الأجدر أن نقول انّ ولادته كانت في العشرة الثالثة من القرن الرابع الهجري.

(٢) راجع كتاب: القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمداني، متشابه القرآن، تحقيق الدكتور عدنان زرزور، في مجلدين، القاهرة، دارالتراث ١٣٨٦هـ و١٩٦٦م ص٦٢ المقدّمة.

(٣) راجع كتاب : دكتور عبدالفتاح لاشين، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار وأثره في الدراسات البلاغية، دارالفكر العربي، مطبعة دارالقرآن، بدون تاريخ، ص٧٠.

(٤) انظر: القاضي ابوالحسن عبدالجبار الأسدآبادي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، الجزء السادس عشر، إعجاز القرآن، الطبعة الأولى، شعبان ١٣٨٠هـ ـ دسيمبر ١٩٦٠م مطبعة دارالكتب : ١٩٧ .

(٥) انظر: القاضي عبدالجبار، إعجاز القرآن : ١٩٩ .

(٦) انظر: الامام عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز في علم المعاني، تحقيق وتعليق السيّد محمّد رشيد رضا، مكتبة القاهرة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١م ص٣٥ وما بعدها.

(٧) انظر: القاضي عبدالجبار، إعجاز القرآن: ١٩٩ .

(٨) انظر: القاضي عبدالجبار، إعجاز القرآن : ١٩٩ .

(٩) انظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني : ٤٠ـ٤٢ .

(١٠) انظر: دلائل الإعجاز : ٤٤ .

(١١) انظر: القاضي عبدالجبار، إعجاز القرآن : ٢١٤ـ٢٢٥ .

(١٢) انّ بعض اليهود أنكروا مسألة التحدي حسب قول القاضي عبدالجبار، للتوسّع في هذا المجال يراجع المصدر السابق : ٢٤٣ و٢٤٤ .

(١٣) انظر: المصدر السابق : ٢٤٩ـ٢٦٤ .

(١٤) للتوسع في ذلك يراجع المصدر السابق : ٢٥٠ـ٢٦٣ .

(١٥) انظر: المصدر السابق: ٢٧٣ .

(١٦) انظر: المصدر السابق: ٣١٨ .

(١٧) وهذا مايدعى بـ(قانون الصرفة).

(١٨) انظر: المصدر السابق : ٣٢٣ .

(١٩) للتوسع في مجال(اعجاز القرآن) تراجع المصادر التالية:

أ: اعجاز القرآن للباقلاني، طبع مصر من: ٣٣ـ٤٧ لقد اعتبر الباقلاني (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) بلاغة القرآن واحداً من وجوه إعجاز القرآن، وقال في هذا الشأن: «انّه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة الى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه» راجع كتاب: إعجاز القرآن، للباقلاني: ٣٥ .

وقد تأثر الباقلاني، في هذا المورد بالخصوص، بالجاحظ البصري (المتوفىّ سنة ٢٥٥هـ) قال انّ إعجاز القرآن في نظمه واسلوبه المحيّر هو في مباينته لطريقه كلام العرب الخاصة، شعراً ونثراً. ونصّ كلام الجاحظ في كتاب (البيان والتبيين) الجزء الاول: ٣٨٣، طبع عبدالسلام محمّد هارون كالتالي:

«وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفّى على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البراهين

وتأليفه من أكبر الحُجج».

وخلاصة القول انّ الباقلاني يعتقد انّ القرآن مباين لأساليب كلام العرب والمنظوم والمنثور، وانّ البلاغة موجودة في جميع آياته بلا استثناء خلافاً لكلام باقي الفصحاء الذي تتفاوت فصاحته في مورد عن آخر.

ب: وكذلك للتوسّع في وجوه إعجاز القرآن يمكن مراجعة كتاب (الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، طبع مصر، تحقيق محمّد أبوالفضل ابراهيم ۴ من : ۳ـ۱۷.

وقد تحدث السيوطي في هذا الفصل عن الأقوال المختلفة في باب وجوه أعجاز القرآن مثل الاعتقاد بالـ(صرفة) وهي عقيدة كلّ من أبي اسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام (المتوفى سنة۲۲۰هـ) أحد كبار المعتزلة، وشيخ الجاحظ.

وقد نقل السيوطي كذلك بشكل مفصل رأي أبي بكر الباقلاني والامام الفخر الرازي والزملكاني وابن عطيّة وحازم القرطاجني والسكّاكي وابن شراقة، والزركشي في(البرهان)، والرمّاني في رسالة(النكت في إعجاز القرآن) والقاضي عياض في كتاب(الشفاء)، وكذا آراء باقي العلماء في باب إعجاز القرآن.

ج: وقد سبق أبوالحسن علي بن عيسى الرّماني (المتوفى سنه۳۸۶هـ) في رسالة(النكت في إعجاز القرآن) التي طبعت في دارالمعارف المصرية بتحقيق وتعليق محمّد خلف الله والدكتور محمّد زغلول سلام ضمن(ثلاث مسائل في إعجاز القرآن)، سبق الى القول: ان للبلاغة ثلاث درجات، أعلاها المعجزة وهي مختصّة بالقرآن، ونصّ كلام الرّماني هكذا:

«انّما البلاغة إيصال المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ فأعلاها طبقةً في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصّة، وأعلى

طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم...»

(۲۰) للتوسّع براجع: إعجاز القرآن للقاضي عبدالجبار: ۳۳۲ـ۳۳۳.

(۲۱) راجع كتاب اعجاز القرآن: ۳۹۸.

(۲۲) راجع المصدر السابق: ۳۹۹.

(۲۳) انظر: أبوالحسن عبدالجبار بن أحمد، تنزيه القرآن عن المطاعن، طبع بيروت: ۱۵۴

(۲۴) المصدر السابق: ۱۰۵.

(۲۵) انظر: إعجاز القرآن: ۴۰۱.

(۲۶) انظر: تنزيه القرآن عن المطاعن: ۱۸ـ۱۹.

(۲۷) للتوسّع في هذا المجال يراجع: الاستاذ جليل همائي (صناعات أدبي وفنون بلاغت) بالفارسية، نشر طوس، الطبعة الثانية سنه ۱۹۸۲: ۲۲۸.

(۲۸) انظر: تنزيه القرآن عن المطاعن: ۲۹۷.

(۲۹) يعتقد بعض المفسّرين انّ كلمة (جانّ) من (جنّ) بمعنى الموجود غير المرئي، لأن الثعابين الصغيرة النحيفة (=جانّ) تتحرك غالباً بصورة خفيّة بين الحشائش ومسارب الأرض.

يراجع للتوسّع في الموضوع: هوامش تفسير نمونة(بالفارسية) اشراف الاستاذ المحقّق ناصر مكارم الشيرازي، طبع دارالكتب الاسلامية ۱۵ : ۴۰۸.

(۳۰) حيَوان على وزن ضَرَبان، باعتقاد مجموعة من اللّغويين ان معناه الحياة، ولها معنى المصدر.

(۳۱) انظر: تنزيه القرآن عن المطاعن: ۳۱۷.

(۳۲) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(۳۳) يراجع للتوسّع: الزمخشري، الكشاف طبع بيروت ۵: ۷، و: أبوالسعود، ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم الموسوم بتفسير أبي السعود، تحقيق محمّد عبداللطيف، طبع مصر، ۸ : ۱۳۰.

(۳۴) انظر: تنزيه القرآن عن المطاعن: ۳۹۸.

(۳۵) المصدر السابق: ۲۷۷.

(٣٦) وبالطبع فانّ الوصول للجنّة يستلزم تزكية النفس ومجاهدتها، وهذا يستلزم مشقّة كبيرة، لكنّ الأجر والثواب الخالد في الوصول للجنّة عظيم وكبير لدرجة تبدو معها هذه المشاقّ ضئيلة لدرجة انّه يبدو انّ الانسان قد حصل على الثواب والجزاء بلاتعب ومشقّة.

(٣٧) انظر: تنزيه القرآن عن المطاعن: ٢٦٩.

(٣٨) المصدر السابق: ٣٣٣.

(٣٩) المصدر السابق: ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٤٠) انظر: متشابه القرآن ١ : ١٣٣.

(٤١) المصدر السابق ٢: ٤١٣.

(٤٢) انظر تنزيه القرآن عن المطاعن: ٢٠١.

(٤٣) المفسّرون مختلفون في معنى تسبيح الأشياء، يراجع تفسير مجمع البيان وغيره في ذيل آيات التسبيح.

(٤٤) انظر تنزيه القرآن عن المطاعن: ٢٤٨.

(٤٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤٦) المصدر السابق: ٢١٧.

(٤٧) كتب السيّد الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٣٦هـ في ١ : ١١ كتاب غرر الفوائد ودرر القلائد المعروف بـ(أمالي المرتضى)، طبع مصر، في ذيل آية ٨٥ سورة الاسراء، أي آية «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً»: انّ هناك آراء وعقائد كثيرة حول(الروح) احداها أنّها(القرآن)، واذا ما أخذنا بهذا القول فسيكون الجواب مناسباً جداً، يعني انّهم سألوا عن القرآن فأجاب النبيّ الأكرم صلّى اللّه عليه وآله وسلّم انّ الروح(يعني القرآن) من أمر ربّي، اي من اللّه ولكنّ يُستنبط من القرائن الموجودة انّ السائلين قد سألوا عن حقيقة الروح الآدمية، أي التي تميّز الانسان عن الحيوان، والتي كانت السبب في تكريم الانسان وتشريفه على سائر المخلوقات، وهي التي تنبع جميع قوانا ونشاطاتنا منها، وهي البناء الذي يباين ويغاير بناء المادّة.

(٤٨) انظر متشابه القرآن ٢ : ٦٤٩.

(٤٩) انظر تنزيه القرآن عن المطاعن: ٢٧٠.

(٥٠) المصدر السابق: ٢٧١.

(٥١) انظر تنزيه القرآن عن المطاعن: ٣٠٨.

(٥٢) يراجع: أبوالسعود محمّد بن محمّد العمادي (المتوفى سنة ٩٥١هـ)، تفسير أبي السعود المسمّى (إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم، داراحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ٧ : ٥.

(٥٣) يراجع كتاب: الزمخشري، الكشّاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل، بيروت، ٢ : ٥٨٣.

(٥٤) انظر تنزيه القرآن عن المطاعن: ٣٣٠.

(٥٥) يراجع كتاب: سيّد قطب، في ظلال القرآن، داراحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة (١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م) ٦ : ٥٢٠.

(٥٦) يراجع كتاب: الشيخ الطوسي، تفسير التبيان، تصحيح وتحقيق أحمد حبيب قصير، مكتبة الأمين، النجف ١٩٦٨م ـ ١٣٨٨هـ، المجلد الثامن: ٢٧٦.

(٥٧) يراجع كتاب: الشيخ أبوعلي الفضل بن الحسن الطبري، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح الحاج سيّد هاشم رسولي المحلاتي، داراحياء التراث العربي، بيروت ١٣٧٩هـ، الجزء السابع: ٣٣٢.

(٥٨) يراجع كتاب: الامام الفخر الرازي، التفسير الكبير، الطبعة الثانية، أوفست طهران، الجزء الخامس والعشرون: ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٥٩) انظر تنزيه القرآن عن المطاعن: ١١١.

(٦٠) انظر متشابه القرآن ١ : ٢٩١.

(٦١) يراجع كتاب: التفسير الكبير، الجزء الثامن عشر: ١١٨.

المشروع الابراهيمي في القرآن الكريم(١)

السيِّد عبد الأمير علي خان

تمهيداً لادراك مغزى ولاية أهل البيت عليهم السّلام، واستحضار خلفيتها تاريخياً، قبل ان يخلقوا، يجدربنا ان نشير الى انهم قمة المشروع الالهي المقدس في هذه الأرض، مشروع الهداية والقيادة الربّانية للبشرية، فهم مصداق لقمّة المشروع الابراهيمي (المشروع الالهي في آل ابراهيم عليهم السّلام).

والقرآن الكريم يعطي صورة واضحة عن هذا المشروع الرباني المقدس الّذي يمثل المرحلة الثالثة والأخيرة من المشروع الالهي للخلافة في الأرض، حيث تمثل المرحلة الاولى من خلق آدم عليه السّلام الى دور نوح عليه السّلام، والثانية من نوح عليه السّلام الى ابراهيم عليه السّلام، حيث تبدأ الثالثة وتستمر الى يوم القيامة، وتشمل أربعة ادوار رساليةرئيسية لأربعة من اولي العزم وهم: ابراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم السّلام، ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾. (الحديد: ٢٦)

﴿وتلك حجّتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنّ ربّك حكيم عليم* ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين* وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين* ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم﴾. (الانعام: ٨٣-٨٧)

ومن يتدبر قصة نوح عليه السّلام كما وردت في القرآن الكريم يدرك انه كان يمثل مرحلة جديدة بالخلافة في الأرض تكون

وارثة لمرحلة آدم عليه السّلام .

والقرآن الكريم يعطي تصوراً واضحاً لهذه المراحل الثلاث في سياق عرضه لتاريخ البشرية وتاريخ مسيرة الانبياء في كثير من مقاطع القرآن الكريم ويجمع ذلك في الآية التالية :

﴿اولئك الّذين انعم اللّه عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا﴾. (مريم: ٥٨)

وبالجمع بين هذه الآية والآية ٢٦ من سورة الحديد السابق ذكرها وملاحظة كون ابراهيم عليه السّلام من ذريّة نوح عليه السّلام يتضح ان المشروع الالهي يتشكل من ذريّة نوح ثمّ ومن ذرية ابراهيم عليهماالسّلام ومن ملاحظة ورود اسم لوط عليه السّلام ضمن ذكر ذرية ابراهيم عليه السّلام يتضح ان القرآن الكريم يوسع معنى الذريّة احياناً لتشمل القريب الملائم.[1]

المشروع الابراهيمي المقدس يتألف من ثلاثة فصول هامة، اولها الفصل التأسيسي وهو الّذي يمتد من ولادة ابراهيم عليه السّلام الى وفاته، ويشاركه فيه ولداه اسماعيل واسحاق وأمّاهما هاجر وسارة، ثم بعد وفاته استمّر اسماعيل وذريته في فصل واسحاق وذريته في فصل آخر، ولكن يكون دور اسحاق وذريته في قيادة البشرية اكبر لمرحلة طويلة ثم ينفرد فصل اسماعيل عليه السّلام بالمهمّة الى يوم القيامة.[2]

والقرآن الكريم تارة يذكر الدور الابراهيمي مجملاً دون بيان كما في الآية ٢٦ من سورة الحديد والآية ٥٨ من سورة مريم السابقتين. وكما في قوله تعالى: **﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه آجره في الدنيا وإنّه في الآخرة لمن الصالحين﴾**. (العنكبوت: ٢٧)

وقوله تعالى: **﴿ام يحسدون النّاس على ما آتاهم اللّه من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾**. (النساء: ٥٤)

وتارة يبرز الدور الاسحاقي مع الإشارة الى الدور الاسماعيلي كما في قوله تعالى:

﴿فلمّا اعتزلهم ومايعبدون من دون اللّه وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليّا﴾. (مريم: ٥٠)

وتارة تجده يركز على الدور الاسحاقي فقط:

﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الآخسرين* ونجّيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين* ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين* وجعلناهم أئمة

يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعلَ الخيرات وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾. (الانبياء: ٧٠-٧٣)

وتارة تجده يذكر الشقين معاً بوضوح:

﴿انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيمَ واسماعيلَ واسحاقَ ويعقوبَ والاسباط وعيسى وايّوبَ ويونسَ وهارونَ وسليمانَ وآتينا داود زبورا* ورسلاً قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم اللّه موسى تكليما﴾. (النساء: ١٦٣-١٦٤)

وتارة اخرى تجد القرآن الكريم يذكر الشق الاسماعيلي منفرداً:

﴿واذ بوّأنا لابراهيم مكان البيت ان لاتشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود* واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كلّ فج عميق﴾. (الحج: ٢٦-٢٧)

وتارة نجد القرآن الكريم يركز على الشق الاسماعيلي مع الاشارة الى الشق الاسحاقي:

﴿واذ قال ابراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ ان نعبد الأصنام* ربّ إنّهنّ أضللن كثيراً من النّاس فمن تبعني فانّه منّي ومن عصاني فإنك غفور رّحيم* ربّنا إنّي اسكنت من ذرّيتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربّنا ليقيموا الصّلوة فاجعل أفئدة من النّاس تهوى إليهم وارزقهم من الثّمرات لعلّهم يشكرون* ربّنا إنك تعلم مانخفي وما نعلن ومايخفى على اللّه من شيء في الأرض ولافي السّماء* الحمدللّه الّذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق إنّ ربّي لسميع الدّعاء* ربّ اجعلني مقيم الصّلوة ومن ذرّيّتي ربّنا وتقبّل دعاء* ربّنا اغفرلي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾. (ابراهيم: ٣٥-٤١)

وفي كل سياق اشارة لها أبعاد ودلالات على جانب من المشروع وعلى علاقة الجانب به ستتجلّى أكثر فيما يأتي من احاديث بعونه تعالى.

ومن الواضح ان المشروع بشقيه كان واضحاً لابراهيم عليه السّلام وان تقسيمه ذريته (التي انحصرت في اسماعيل واسحاق) بيني ذين المكانين المقدسين ماهو الا تأسيس للمشروع او قل تأسيس للمشروعين معاً.

ومن الواضح له ايضاً معاً لم كل من الدورين كما يتضح اكثر ان شاء اللّه تعالى.

ولاشك ان كلاً من اسماعيل واسحاق كان يدرك دوره ولما كان الدور الاسحاقي ينحصر في يعقوب وذريته اصبح التركيز على يعقوب مع ابراهيم واسحاق كما اتضح

من الآيات المذكورة وكما في مثل قوله تعالى :

﴿واذكر عبدَنا ابراهيمَ واسحاقَ ويعقوب أولي الايدي والابصار * إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وانّهم عندنا لمن المصطفينَ الأخيار﴾ . (ص: ٤٥-٤٦)

بينما نجد القرآن الكريم حينما يتحدث فيما بذل من جهد ورعاية للمشروع الإبراهيمي هذا يؤكد على دور يعقوب[٣] بالنسبة للشق الثاني أكثر من اسحاق :

﴿ووصى بها ابراهيمُ بنيه ويعقوب يا بنيّ ان اللّه اصطفى لكم الدينَ فلاتموتُنّ إلاّ وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداءَ إذ حضرَ يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ . (البقرة: ١٣٢-١٣٣)

نجده ايضاً يقتصر على ذكر ابراهيم لأنه الممهد الأوّل للمشروع لاشطريه .

﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انني براء مما تعبدون * الاّ الّذى فطرني فانه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلّهم يرجعون﴾ . (الزخرف: ٢٦-٢٨)

امّا الشق الاسماعيلي فتجد تأكيداً على اسماعيل في التمهيد ثمّ ينتقل رأساً الى آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لأنّهم هم بيت القصيد في هذا الشق المقدس، ومما يلفت أن شق اسماعيل عليه السّلام لم يكلف بمهمة لخدمة الدور اليعقوبي، بينما نجد العكس من ذلك إذ نجد الشق اليعقوبي مكرس لخدمة الدور المحمدي كما سيتضح ان شاء اللّه تعالى .

مراحل المشروع الابراهيمي وادواره :

ومن القرآن الكريم يتضح ان المشروع الابراهيمي ككل مر باربعة مراحل كمايلي :

١ـ من مولد ابراهيم عليه السّلام الى هجرته .

٢ـ من هجرة ابراهيم عليه السّلام حتى وفاته .

٣ـ من وفاة ابراهيم حتى المبعث النبوي الشريف .

٤ـ من المبعث النبوي الى يوم القيامة .

والمرحلة الاولى خاصة بإبراهيم وحده. امّا المرحلة الثانية فان العنصر الرئيسي المشترك فيها هو دور ابراهيم عليه السّلام وهاجر وابنها اسماعيل شريكيه في الشق الاسماعيلي من جهة، ومن جهة اخرى يكون لوط وسارة وابنها اسحاق وابنه يعقوب شركاه في الشق الاسرائيلي .

امّا المرحلة الثالثة فيفترق فيها آل ابراهيم

الى فرقتي عمل فرقة بني اسرائيل وفرقة بني اسماعيل ولكل منها مهمة ودور، حيث ان مهمة هداية البشرية العامة وقيادتها عهدت الى بني اسرائيل يضاف اليها دور التمهيد للدور المحمدي الوريث والتبشير به، بينما مهمة بني اسماعيل الاستقامة على ملة ابراهيم وما في ذلك من دور هداية محدود وكل ذلك يوظف مباشرة في التمهيد للدور المحمدي.

اما المرحلة الثالثة فتكون الهداية العامة وقيادة البشرية للشق المحمدي وتكون مهمة بني اسرائيل خدمة هذا الشق وهذا الدور فهو الوارث وهو الغاية للمشروع الإبراهيمي المقدس.

ابراهيم عليه السّلام من مولده حتى هجرته:

ولد ابراهيم عليه السّلام في ارض بابل وهو من ذرية نوح عليه السّلام وقد تربى في بيت عمه آزر فهو ابوه بالتربيه والتبني، والقرآن الكريم واضح الدلالة على هذه الحقيقة فان ابراهيم استغفر لأبيه آزر لموعدة وعدها اياه ولمّا تبيّن له انّه عدو منه تبرأ منه، ولايجوز لنا تصور رجوعه بعد ذلك وترحّمه عليه، فلابد ان الّذي استغفر له ابراهيم الخليل بعد الهجرة لم يكن هو الذي تبيّن له انّه عدولله

وقد اكد ابراهيم هذا المعنى بتعبيره في الترحم كما يحكيه القرآن الكريم عنه بعد ان اسكن هاجر وابنها اسماعيل في وادي مكة حيث يقول في آخر فصل قرآني كريم:

﴿ربي اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربّنا وتقبل دعاء* ربّنا اغفرلي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾. (ابراهيم: ٤٠-٤١)

وابراهيم قبل الهجرة يبدأ دعوته بين قومه وفق السنة الالهية في بعث الانبياء وكانت فترة حافلة، ويظهر انها استمرت سنين طويلة عاش فيها ابراهيم عليه السّلام كثيراً، كما يظهر جلياً من القرآن الكريم:

﴿واذ قال ابراهيم لأبيه آزر اتتخذ اصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾. (الانعام: ٧٤)

﴿واذكر في الكتاب ابراهيم إنّه كان صدّيقاً نبيّاً* اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولايغنى عنك شيئاً* يا أبت إنّى قد جاءَنى من العلم مالم يأتك فاتّبعنى اهدك صراطاً سويّاً* يا أبت لاتعبد الشّيطان إنّ الشيطان كان للرّحمن عصيّاً* يا أبت إنّى أخاف أن يمسك عذاب من الرّحمن فتكون للشيطان وليّاً* قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليّاً* قال سلام عليك

سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيّا* وأعتزلكم وماتدعون من دون اللّه وادعوا ربّي عسى ألاّ أكون بدعاء ربّي شقيّا﴾. (مريم: ٤١-٤٨)

﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين* إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التّماثيل الّتي أنتم لها عاكفون﴾. (الانبياء: ٥١-٥٢)

﴿واتل عليه نبأ ابراهيم* اذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون﴾ الى قوله: ﴿ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصّالحين* واجعل لي لسان صدق في الآخرين* واجعلني من ورثة جنّة النّعيم* واغفر لأبي إنّه كان من الضّالين﴾. (الشعراء: ٦٩-٨٦)

﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إيّاه فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ للّه تبرّأ منه إنّ ابراهيم لأوّاه حليم﴾. (التوبة: ١١٤)

﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انني براء مما تعبدون* الاّ الّذي فطرني فانه سيهدين﴾. (الزخرف: ٢٦-٢٧)

وقصة تحطيم ابراهيم عليه السّلام لأصنام قومه معروفة وقد اكد عليها القرآن الكريم بما يظهر اهميتها في هذه المرحلة من مشروعه، ويظهر أن عدداً قليلاً من قومه قد استجاب له:

﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والّذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برآء منكم وممّا تعبدون من دون اللّه كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتّى تؤمنوا باللّه وحده إلاّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من اللّه من شيء ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير* ربّنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفرلنا ربّنا إنك أنت العزيز الحكيم* لقد كان لكم فيه أسوة حسنة لمن كان يرجوا اللّه واليوم والآخر ومن يتولّ فإنّ اللّه هو الغني الحميد﴾. (الممتحنة: ٤-٦)

وهذه الآيات صريحة بأن المباينة والعزلة حصلت بين ابراهيم واتباعه وبين قومهم، ويظهر أنه عليه السّلام وبعد ان تبيّن له عدم قدرته على منازلتهم وبسط سيادة دين اللّه عليهم قرر الهجرة الى بلاد اخرى تكون اكثر ملائمة لدعوته ولتأسيس المشروع الرباني العظيم.

﴿وابراهيم إذ قال لقومه اعبدوا اللّه واتّقوه ذلكم خيرلكم إن كنتم تعلمون* إنّما تعبدون من دون اللّه أوثانا وتخلقون إفكاً إنّ الّذين تعبدون من دون اللّه لايملكون لكم رزقاً فابتغوا عنداللّه الرّزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾، الى قوله تعالى: ﴿فآمن له لوط وقال إنّي مهاجر إلى ربّي إنّه هو العزيز الحكيم﴾. (١٦-٢٧)

هجرة ابراهيم عليه السّلام:

يظهر من الاخبار ان ابراهيم عليه السّلام هاجر بعد ان تزوج ابنة عمه سارة وكانت هجرته الى ارض مصر ولكنه هاجر منها مرة اخرى راجعاً الى فلسطين بعد ان انضمت الى موكبه وبيته هاجر ام اسماعيل.

«وارادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين* ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين». (الانبياء: ٧٠-٧١)

وفي فلسطين استمر ابراهيم في دعوته وقد جعل الله سبحانه لوطاً عليه السّلام نبياً تابعاً لابراهيم عليه السّلام.

«ولوطاً اذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة، ماسبقكم بها من أحد من العالمين»، الى قوله تعالى: «قال ربّ انصرني على القوم المفسدين* ولمّا جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنّا مهلكوا أهل هذه القرية إنّ أهلها كانوا ظالمين* قال إنّ فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجّينّه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين». (العنكبوت: ٢٨-٣٢)

وقد ذكر القرآن الكريم قصة لوط في مواضع عديدة وتكرر التأكيد على ان الملائكة بدأوا بإبراهيم عليه السّلام واحاطوه علماً بمهمتهم وهي انزال العذاب على قوم لوط، وانه جادلهم في ذلك واخيراً سلم لأمر الله وذلك لان ابراهيم هو الرّسول العام ورسالة لوط تابعة الى رسالته فهو كالوكيل عنده فلم يشأ الله سبحانه ان ينزل العذاب على لوط ويأمره بالهجرة الى ابراهيم دون ان يكون ابراهيم على علم بتفاصيل الحدث وخلفياته، وقد تقدمت الشارة الى اعتبار لوط ملحقاً بذرية ابراهيم وان كان ابن اخيه لا ابنه فهو من آل ابراهيم ومن أهل بيته.

ويتضح من القرآن الكريم ان ابراهيم بلغ من العمر عتياً ولم يرزق ولداً بعد، وقد دعا ربّه ان يرزقه ذرية صالحة فبشر باستجابة دعوته مرّتين، المرة الاولى بمولد اسماعيل عليه السّلام والمرة الثانية، بمولد اسحاق عليه السّلام.

«وإنّ من شيعته لإبراهيم* إذ جاء ربّه بقلب سليم* اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون»، الى قوله تعالى: «فارادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين* وقال اني ذاهب الى ربّي سيهدين* ربّ هب لي من الصّالحين* فبشرناه بغلام حليم* فلمّا بلغ معه السّعي قال يا بني إنّي ارى في المنام أنّي اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاءالله من الصابرين»، الى قوله تعالى: «وفديناه بذبح عظيم»، ثم الى قوله تعالى: «إنه من عبادنا المؤمنين»، وبعد ذلك يقول: «وبشرناه باسحاق نبياً من

الصالحين* وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾. (الصافات: ٨٣-١١٣)

وممّا يشير الى ان اسماعيل اكبر من اسحاق ذكر اسماعيل قبل اسحاق في الآيات التي تذكرهما كما بني ابراهيم عليه السّلام، (انظر، البقرة ١٢٥، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠ - آل عمران: ٨٤ - النساء: ١٦٣ - ابراهيم: ٣٩).

ومنها قوله تعالى عن لسان ابراهيم عليه السّلام:

«الحمدلله الّذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق انّ ربّي لسميع الدعاء». (ابراهيم: ٣٩)

وولادة اسماعيل لم تكن معجزة ولم يفاجأ بها ابراهيم ولاهاجر ولاسارة وقد ثبت ان سارة هي العاقر وقد اصبحت عجوزاً، واصبح ابراهيم شيخاً كبيراً فكانت البشارة باسحاق معجزة وامراً عجيباً وكانت مناسبة اجتماع الملائكة بإبراهيم عليه السّلام بحضور سارة رضي الله عنها للتداول بأمر قوم لوط وامر لوط وأهله مناسبة للبشارة بالكرامة المعجزة.[٤]

«ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام» في الاشارة الى ان نسبته الى اسرائيل وهو يعقوب بن اسحاق اكثر من نسبته الى اسحاق مباشرة، ولذلك تجد ان القرآن الكريم فيما يريد نسبة هذا الشق الى ابراهيم عليه السّلام يذكر اسحاق، بينما نجده حينما يريد ان يتحدث في الشق مفصلاً يركز على يعقوب عليه السّلام.

﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنيّ إنّ اللّه اصطفى لكم الدّين فلاتموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون* أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ألهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾. (البقرة: ١٣٢-١٣٣)

ويقول عن لسان يوسف عليه السّلام.

﴿انّي تركت ملّة قوم لايؤمنون باللّه وهم بالآخرة هم كافرون* واتّبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ماكان لنا أن نشرك باللّه من شيء﴾. (يوسف: ٣٨)

وعن لسان يعقوب عليه السّلام في حديثه لابنه يوسف:

﴿وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إنّ ربّك عليم حكيم﴾. (يوسف: ٦)

﴿اولئك الّذين انعم اللّه عليهم من النبيين من ذرّيّة آدم وممّن حملنا مع نوح ومن ذرّيّة

إبراهيم وإسرائيل وممّن هدينا واجتبينا﴾. (مريم: ٥٨)

ففي هذه الآية اشارة الى ان الشق الاسحاقي ينحصر في ذرية اسرائيل.

ثمّ انّ الآيات التي تتحدث عن النبوة من بعد إبراهيم وإسحاق ضمن هذا الشق من المشروع وفي الفترة التي تنتهي ببيعة النبي الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم انما تنحصر في بني اسرائيل وحديث القرآن كله في هذا الشق يقتصر على ذكر بني اسرائيل.

﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على العالمين**﴾. (الجاثية: ١٦)

وهكذا ينبغي ان نفهم كل الآيات التي تذكر فضل الله على بني اسرائيل وتفضيلهم، فانها إنّما تقصد هذا الشق من المشروع الابراهيمي وهو ﴿**أن جاء بعجل حنيذ* فلمّا رأى ايديهم لاتصل إليه نكرهم واوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنّا ارسلنا الى قوم لوط* وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب* قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنّ هذا لشيء عجيب* قالوا اتعجبين من امرالله رحمت الله وبركاته عليكم اهل البيت إنّه حميد مجيد* فلمّا ذهب عن إبراهيم الرّوع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط* إنّ ابراهيم لحليم اوّاه منيب**﴾. (هود: ٦٩-٧٥)

وهكذا اصبح آل ابراهيم امام مرحلة جديدة تتوزع فيها الادوار، فدور رئيسي لابراهيم ودور الى لوط يسكت عنه القرآن الكريم، ودور لسارة واسحاق يسكت عنه القرآن الكريم ايضاً، ودور لهاجر واسماعيل يذكره القرآن بلهجة حارة ونكهة خاصة ويصور جانباً هاماً منه.

دور ابراهيم عليه السّلام:

ومن الواضح ان دور ابراهيم عليه السّلام بعد حادثة قوم لوط والبشارة باسحاق وقبل ان يبوأ له مكان البيت ويؤمر بنقل هاجر واسماعيل اليه كان يتمثل في استمراره بالدعوة ومهام الرسالة ورعايته آله واعدادهم للادوار المستقبلية العظيمة.

وبعد ان امر بنقل هاجر واسماعيل الى وادي مكة عند البيت المحرم اصبح أهله فريقي عمل، فريق في ارض فلسطين وفريق في مكة، وهو يشرف على الفريقين ويواصل مهمته في الدعوة والرسالة، وسوف تتضح هذه المعاني فيما يأتي من كلام عن كلّ من الشقين المقدسين، ولنبدأ بالشق الاسرائيلي ثم نتلوه بالحديث في الدور الابراهيمي الاسماعيلي للشق

المحـمـدي أو للمـشـروع المحـمـدي المقدس.

الشق الاسـرائيلي (أو المشـروع الاسرائيلي)

وهو أحد شقي المشروع الابراهيـمي العظيم الذي اعده الله سبحانه لهداية وقيادة البشرية من عهد ابراهيم عليه السّلام الى يوم القيـامـة. وينتسب الى ابراهيم بواسطة اسحـاق عليهما السّلام وقد يذكر معهما اسماعيل ايضاً ولكن القرآن الكريم واضح في الاشارة الى ان نسبته الى اسرائيل وهو يعقوب بن اسحاق اكثر من نسبته الى اسحـاق مباشرة ولذلك تجد ان القرآن الكريم حينما يريد نسبة هذا الشق الى ابراهيم عليه السلام يذكر اسحاق، بينما نجده حينما يريد ان يتحدث في الشق مفصلا يركز على يعقوب عليه السلام.

﴿ووصى ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا نموتن لبنيه مـا تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهک واله آبائک ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحد أو نحن له مسلمون﴾ (البقرة: ١٢٣ - ١٣٣).

ويقول عن لسان يوسف عليه السلام:

﴿اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كـافـرون واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء...﴾ (يوسف: ٦).

وعن لسان يعقوب عليه السلام في حديثه لابنه يوسف:

﴿وكذلک يجتبيک ربک ويعلمک من تأويل الاحاديث ويتم نعمته عليک وعلى آل يعقوب كما اتمها على ابويک من قبل ابراهيم واسحاق ان ربک عليم حكيم﴾ (يوسف: ٦).

﴿اولئک الذين انعم الله عليهم من البنين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح(٥) ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا﴾ (مريم: ٥٨).

ففي هذه الآية اشارة الى ان الشق الاسحاقي ينحصر في ذرية اسرائيل ثم ان الآيات التي تتحدث عن النبوة من بعد ابراهيم واسحاق ضمن هذا الشق من المشروع وفي الفترة التي تنتهي بمبعث النبي الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم انما تنحصر في بني اسرائيل وحديث القرآن كله في هذا الشق يقتصر على ذكر بني اسرائيل

﴿ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾ (الجاثية: ١٦).

وهكذا ينبغي ان نفهم كل الآيات التي تذكر فضل الله على بني اسرائيل وتفضيلهم

فـانهـا انما تـقـصـد هذا الشق من المشـروع الابراهيـمي وهو كمـا بينا محـدود في الفتـرة المذكـورة (اي بيـن وفـاة يعـقـوب ومـولد الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم).

ولايخفى ان الفضل والتفضيل لايشمل الكفار والعصاة والفسقة من بني اسرائيل وان الأنبـيـاء والرسل بعض بني اسرائيل وليس كلّهم ولكن ذلك يشكل نعمة كبيرة على كل بني اسـرائيل تسـتـوجب منهم الشكر وتضاعف مسؤوليتهم امام الله وامام التاريخ وامام البشرية.

﴿يا بني اسـرائيل اذكـروا نعـمـتي الّتي انعـمت عليكم وأنّي فـضّلتكم على العالمين﴾. (البقرة: ٤٧) وكذلك آية ١٢٢.

﴿اذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبيـاء وجـعلكم ملوكـاً وآتاكـم مـالم يؤت احـداً من العالمين﴾. (المائدة: ٢٠)

ان هـذه الآيـات انما تـقـرر تكـليـف بني اسرائيل ضمن المشروع الابراهيمي في هذا الدور كـمـا ذكـرنا، والقـرآن الكريم صريح في ان الفضل والتفضل الذي سيكون للشق الاسماعيلي (او للمشروع المحمدي) يكون اكبـر مما ذكـر لبني اسـرائيل، وقـد اتضح ذلك من سيـاق القـرآن الكـريم في المقطع القـرآني الذي استـعـرض قصة بناء البيت ودعـاء ابراهيم واسمـاعيل عليهما السّلام واوضح الله ذلك لموسى عليه السّلام كما في قوله تعالى:

﴿واختـار موسى قـومه سـبعيـن رجلاً لميقـاتنا فلمّا اخـذتهم الرّجفـة قـال ربّ لو شئت اهلكتـهـم من قـبل وإياي اتهلكنا بما فعل السّفهاء منّا ان هي إلاّ فتنتك تضلّ بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت وليّنا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الغافرين* واكتب لنا في هذه الدّنيا حسنة وفي الآخرة إنّا هدنا إليك قـال عـذابي أصيب به من أشاء ورحـمـتي وسـعت كلّ شيء فسأكتبـها للّذين يتّقون ويؤتون الزّكـوة والّذين هم بآياتنا يـؤمنون* الّذين يتّبـعـون الرّسـول النّبي الأمّيّ الّذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل يأمـرهم بالمعـروف وينهـاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهـم والأغلال الّتي كـانت عليـهم فـالّذين ءامنوا به وعـزّروه ونصـروه واتّبـعـوا النّور الّذي أنزل مـعـه أولئك هم المفلحون﴾. (الاعراف: ١٥٥-١٥٧)

ان هذه الآيات صريحة في تفضيل امة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم على بني اسرائيل وذلك ببيانها ان ما طلبه موسى من رحمة لقومه لم يستجب، وإنّما جعلت الرحمة المعنية بأتباع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم

الّذين يتقون ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله ويتبعون النور الذي انزل معه. واكثر من هذا فان القرآن صريح بذم بني اسرائيل بصورة عامة لمواقفهم المخزية مع انبيائهم ومدحه لهم اقل بكثير من ذمه لهم، لان مواقفهم الذميمة اكثر من مواقفهم الحميدة رغم كثرة الانبياء والرّسل الذين بعثوا فيهم.

وقد صرّح ان انبياء بني اسرائيل أنفسهم لعنوا الّذين كفروا من بني اسرائيل. وزاد القرآن في هذا اللعن وايده بلهجة شديدة:

«لعن الّذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون». (المائدة: ٧٨-٧٩) وكذلك اقرأ الآيات التي بعدها.

وبما ان بني اسرائيل اصبحوا بعد مبعث النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم مجردين عن الميزة التي كانت ترشح عليهم الفضل بانتقال النبوة والامامة الى الشق الابراهيمي الآخر، واصبحت عليهم مهمة اضافية وهي مهمة التصديق بالرسول مباشرة وقبل غيرهم والدعوة اليه ورفع الشبهات عن الدعوة الاسلامية، ولكنهم ارتدوا ونكثوا وكفروا فانّهم اصبحوا ملعونين ومذمومين، ولم يبق لهم من ذلك الفضل الّذي كان لسلفهم في ذلك الدور فلافخر لهم ولاكرامة، كما سيتضح اكثر بعونه تعالى.

مراحل المشروع الاسرائيلي:

من القصص القرآني ومن الأخبار يمكننا القول ان مسيرة بني يعقوب مرت بثلاثة ادوار رئيسيه، يمثل الأوّل منها الفترة من وفاة ابراهيم الى ميلاد موسى عليه السّلام والثاني الى عهد ميلاد المسيح والثالث هو الأخير.

١ـ المرحلة الأولى:

رأينا ان القرآن الكريم يركز على دور ابراهيم عليه السّلام في التأسيس وعلى دور اسحاق عليه السّلام في انتساب المسيرة وعلى يعقوب عليه السّلام في رعاية المشروع بجدية.

وبعد هذا نجد القرآن الكريم يسلط الاضواء على دور يوسف عليه السّلام وكيفيّة انتقال يعقوب وبنيه الى مصر والتمكين ليوسف ولهدى ابيه يعقوب من مستوى الحكم، ولايخفى ان الرّسالة كانت ليعقوب عليه السّلام، وابناؤه تابعون له فيها ويوسف كان افضلهم وخص بالنبوة وبميراث الحكمة من آبائه، وبعد يعقوب اصبح يوسف هو صاحب الرّسالة حسب ما ذكر

القرآن الكريم عن لسان مؤمن آل فرعون :

﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات فمازلتم في شكّ ممّا جاءكم حتّى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضلّ الله من هو مسرف مرتاب﴾ . (غافر : ٣٤)

وبعد تسليط الضوء على دور يوسف عليه السّلام وذكر بعض الأنبياء بشكل مقتضب يبرز القرآن الكريم مظلومية بني اسرائيل في آخر هذا الدور، حيث اصبحوا اقلية مستضعفة مضطهدة بعد ان كانت عزيزة تقوم بدور القيادة والهداية .

﴿إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح ابناءهم ويستحيي نساءهم إنّه كان من المفسدين﴾ . (القصص : ٤)

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين* قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا قال عسى ربكم ان يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ . (الأعراف : ١٢٨ـ١٢٩)

﴿ولقد نجيّنا بنى اسرائيل من العذاب المهين* من فرعون إنّه كان عالياً من المسرفين﴾ . (الدخان : ٣٠ـ٣١)

﴿واذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبّحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم﴾ . (البقرة : ٤٩)

٢ـ المرحلة الثانية :

وهذه المرحلة تبتدئ بمولد موسى عليه السّلام ويكون محور الهداية والقيادة فيها آل عمران الاول وهو والد موسى عليه السّلام . ويذكرهم القرآن الكريم بآل موسى وآل هارون .

يظهر من سياق القرآن الكريم ان بني اسرائيل كانوا على دين ابيهم يعقوب في الجملة، وكانوا يشكلون امة متميزة، وقصة انتصارموسى عليه السّلام لذلك الرجل الذي من شيعته تدل على هذا المعنى :

﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه فاستغاثه الّذي من شيعته على الّذي من عدوّه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنّه عدوّ مضلّ مبين﴾ . (القصص : ١٥)

فان الآية، والآية الّتي تحكي الحادثة الثانية في اليوم الثاني صريحتان بانه لموسى عليه السّلام شيعة وله اعداء، وكان عمل موسى على اساس فرض الولاية بينه وبين شيعته ولكنه لم يرد قتل الرجل نهائياً، فلمّا رأى ان وكزته قضت عليه لعن الشيطان

الرجيم الّذي حاك هذه الحادثة ليوقع موسى في ورطة . . وطلب من اللّه سبحانه أن يستر له هذه الفعلة ويجعل له مخرجا من تبعتها الجزائية فكان ذلک بامره بالهجرة .

وقصة هجرته وعودته الى مصر رسولاً داعياً فرعون وما دار بينه وبين فرعون معروفة ، والّذي يهمنا فيها أكثر في هذا البحث ان موسى عليه السّلام جابه فرعون بدعوتين ، احداهما دعوة فرعون نفسه للايمان ، والثانية الطلب منه أن يطلق سراح بني اسرائيل مع موسى عليه السّلام ، وكان لكلّ من الدعوتين أبعادهما واهدافها ، فلو ان فرعون استجاب شخصياً وآمن واتبع موسى عليه السّلام لكان قد وفر على الدعوة الاسلامية وقتاً وجهداً وازال عقبات كاداء ولدخل موسى الحياة من اوسع الأبواب ، ولكان بنو اسرائيل امام مهمتهم في ظل قيادة موسى في ظروف مناسبة للغاية . ولذلک قدم موسى عليه السّلام هذه الدعوة على الدعوة الثانية لأنّها تغني عنها ، اما عندما امتنع فرعون وكفر ، فقد كان على موسى ان يتحوّل الى الدعوة الثانية ، وهي الطلب من فرعون تسريح بني اسرائيل مع موسى عليه السّلام ليكونوا مادة الانطلاقة الى غيرهم .

﴿هل أتاك حديث موسى* إذ ناداه ربّه بالواد المقدّس طوى* اذهب إلى فرعون إنّه طغى* فقل هل لک إلى أن تزكّى* وأهديک إلى ربک فتخشى* فأراه الآية الكبرى* فكذب وعصى﴾ . (النازعات : ١٥ـ٢١)

﴿إنّا ارسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ . (المزمل : ١٥)

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين* إلى فرعون وهامان وقارون فقال ساحر كذّاب﴾ . (غافر : ٢٤)

﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولاتنيا في ذكري* اذهبا إلى فرعون إنّه طغى* فقولا له قولاً ليّنا لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾ . (طه : ٤٢ـ٤٤)

﴿فأتياه فقولا إنّا رسولا ربک فارسل معنا بني اسرائيل ولاتعذبهم قد جئناك بآية من ربک والسّلام على من اتبع الهدى﴾ . (طه : ٤٧)

﴿فأتيا فرعون فقولا إنّا رسول ربّ العالمين* أن ارسل معنا بني اسرائيل﴾ . (الشعراء : ١٦ـ١٧)

﴿ولمّا وقع عليهم الرّجز قالوا يا موسى ادع لنا ربک بما عهد عندك لئن كشفت عنّا الرّجز لنؤمننّ لک ولنرسلنّ معک بني اسرائيل* فلمّا كشفنا عنهم الرّجز إلى اجل هم بالغوه إذاهم ينكثون﴾ . (الاعراف : ١٣٤ـ١٣٥)

وكان الطريق لكلّ من الدعوتين واحداً وهو اظهار العجز واقامة البرهان على صدق الدعوة ، والاستجابة امّا ان تكون كاملة

وايمان واتباع الهدى والتسليم لموسى ولدور بني اسرائيل في الدعوة، وامّا ان تكون ناقصة وتقتصر على تسريح بني اسرائيل مع الرّسول، والجزاء على كل من درجتي الاستجابة يكون بحسبها، فالجزاء على الايمان والاتباع يكون في الدنيا والآخرة، وامّا الجزاء على العفو عن بني اسرائيل فيكون بالعفو عن عذاب آل فرعون في الدّنيا وامهالهم وتمتعهم فيماهم فيه من وضع دنيوي.

ولمّا أبى فرعون واستكبر رغم ما دحضته الحجة واسقط ما فيمايده من كيد، امر موسى بالهجرة بجميع بني اسرائيل.

ويتضح جلياً ان فرعون دمغ بالحجة وضعف امام موسى ودعوته بالقدر الذي جعله غيرقادر على قتله وقتل هارون.. ولكنه فكر في فرض الاقامة الجيرية عليهما وعلى بني اسرائيل.

وقصة الهجرة معروفة وأغرق فرعون وجنوده، ومدح اللّه سبحانه بني اسرائيل على صبرهم على الاذى وعلى الهجرة، ومنحهم النصر على فرعون وجنوده ولكنه ذمهم ايضاً على مواطن الفشل، ومنها عبادة العجل وتواطؤهم على معصية هارون وتجاوز ولايته عليهم بصفته وزير وخليفة موسى عليهم في سفره، ومنها فشلهم في عدم الاستجابة للجهاد ومعصيتهم موسى وعدم دخولهم المدينة بحجة ان فيها قوماً جبارين، وفعوقبوا بالتيه المعروف. ومنها فشلهم في معصيتهم لأمر موسى في دخول الباب وقولهم حطة ورفع الجبل فوقهم، وكذلك في مواطن الوهن والخلل وقلة الاندفاع في الطاعة كما في قصة ذبح البقرة..

وهكذا فان القرآن الكريم يعطي صورة واضحة لفشل بني اسرائيل في المهمة رغم ايمانهم باللّه وبرسالة موسى وهارون عليهما السّلام، ولذلك بقوا في تيه ولم يتقدّموا خطوة اخرى في حمل الدعوة ولم تتوسع دعوة موسى في زمانه ولم يتوسع سلطان الاسلام.

وبعد موسى اختلف بنواسرائيل ووقعت حروب بينهم كما هو معروف ومنها محاربة زوجة موسى لوصيه وقائد المسيرة من بعده يوشع.

النفحة الربانيّة وملك آل داود:

بعد موسى وبعد أن ضربت الذلة على بني اسرائيل بسبب فشلهم في حمل الدعوة وفي الانقياد والتسليم للانبياء والأئمة حدثت حركة صحوة بين صفوف الوجهاء، والمتنفذين منهم وتوجهوا الى نبيهم آنذاك

يعرضون عليه استعدادهم للجهاد وانّهم بحاجة الى قيادة ميدانية :

﴿الم تر إلى الملاء من بني اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قالوا ومالنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلمّا كتب عليهم القتال تولّوا إلاّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾ . (البقرة: ٢٤٦)

وبعد أن استوثق منهم النبي واقام عليهم الحجة وقطع كلّ عذر وابان لهم ان الجهاد يتطلب منهم الاستعداد النفسي لتحمل كلّ تبعاته وان الأمر ليس بالهين، وحمل السلاح ودخول مرحلة الكفاح المسلح يقطع خط الرجعة، ومع كلّ ذلك بقوا على موقفهم واصرارهم على اعلان الثورة والمضي فيها الى نهاية الطاف، بلغهم بحكم الله سبحانه وتنصيبه طالوت اماماً عليهم، وكان موقفهم من هذا التنصبب فاشلاً حيث جادلوا نبيهم واعترضوا على امرالله سبحانه، ولم تنفتح نفوسهم عليه ولم تنشرح صدورهم ولم يذعنوا لأمرالله الا على مضض.

﴿وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ . (البقرة: ٢٤٧)

ثم بين لهم النبي علامة بدء الثورة وعلامة التنصيب الالهي لطالوت وذلك حسب الطريقة التي جعلها لبني اسرائيل من بعد موسى، بأنه تأتي الملائكة تحمل التابوت وفيه بقية أثرية من تراث آل موسى وآل هارون عليهما السّلام.

﴿وقال لهم نبيّهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التّابوت فيه سكينة من ربكم وبقيّة ممّاترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ . (البقرة: ٢٤٨)

وقد ورد في الاخبار عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ ميراث الكتب والسلاح عند اهل البيت كالتابوت عند بني اسرائيل، فمن يعطيه الامام السابق الكتب والسلاح فهو الامام من بعده.

ولمّا قام طالوت عليه السّلام منه بالامر سار سيرة أنبياء وأئمة بهدي من الله وبصيرة وحكمة لا على الموازين الوضعية المتعارفة عند القادة السياسيين والعسكريين غير المنصبين من الله والمعصومين بتسديده، وذلك انّه بعد ان جمع الجيش وسار بهم نحو العدو بين لهم انّهم سيعبرون نهراً وعليهم أن لايشربوا منه، ومن يشرب

منه يعاقب بالتسريح من الجيش ويحرم من شرف الجهاد المقدس ويخرج من ولاية الامام، وان من يصبر على العطش ولم يشرب من ذلك النهر. يدخل في ولاية الامام ويفوز بعزّ الانتماء الى الجيش الاسلامي المجاهد واستثنى الغرفة الواحدة باليد فانها مسموح بها، وهنا فشل بنواسرائيل مرة اخرة وشرب اكثرهم من ذلك النهر ورجعوا خاسئين وبقي طالوت مع القلة المؤمنة الموالية وعبروا النهر.

﴿فلمّا فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنّه مني إلاّ من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم . .﴾. (البقرة: ٢٤٩)

وحتى الموالون الّذين عبروا النهر مع طالوت عليه السّلام اصابهم الفشل واظهروا قلقهم وتخوفهم، ولم تكن درجة ولائهم عالية بالدرجة التي يحصل معها الاطمئنان الذي ينبغي ان يكون عند الموالي الذي يقاتل تحت راية الامام المنصب حين قبل الله تعالى كما كان حال القلة المؤمنة:

﴿فلمّا جاوزه هو والّذين آمنوا معه، قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الّذين يظنّون أنّهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾. (البقرة: ٢٤٩)

وهكذا التقى الجيشان وانتصر المسلمون على الكافرين بصبر وتوكّل الامام والفئة المؤمنة وتوكلهم على الله سبحانه وكالنصر على يد امام الهدى المرشح للامامة العامة داود النبي عليه السّلام وقد كان ذلك من علامات امامته:

﴿ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربّنا افرغ علينا صبراً وثبّت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين* فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه ممّايشاء . .﴾. (البقرة: ٢٥٠ـ٢٥١)

وهكذا بدأت دولة آل داود عليهم السّلام وقد جعلها الله سبحانه آية من مظاهر حكمته وقدرته ومثلاً لما خص به اولياءه الصالحين من فضل ومن قدرات.

﴿. . وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحن والطّير وكنّا فاعلين* وعلّمناه صنعة لَبوس لكم لتُحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون* ولسليمانَ الرّيح عاصفةً تجرى بأمره إلى الأرض الّتي باركنا فيها وكنّا بكلّ شيء عالمين* ومن الشّياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنّا لهم حافظين﴾. (الانبياء: ٧٩ـ٨٢)

﴿وورث سليمان داود وقال يا أيّها النّاس علّمنا منطق الطّير وأوتينا من كلّ شيء إنّ هذا لهو الفضل المبين* وحشر لسليمان

جنوده من الجنّ والإنس والطّير فهم يوزعون* حتّى إذا أتوا على واد النّمل قالت نملة يا أيّها النّمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون* فتبسّم ضاحكاً من قولها وقال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك الّتى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك في عبادك الصّالحين». (النمل: ١٦ـ١٩)

«قال يا أيّها الملأ أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين* قال عفريت من الجنّ أنا آتيک به قبل أن تقوم من مقامک وإنّى عليه لقوىّ أمين* قال الّذي عنده علم من الكتاب أنا آتيک به قبل أن يرتدّ إليک طرفک فلمّا رآه مستقرّاً عنده قال هذا من فضل ربّى ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ ربّي غنيّ كريم». (النمل: ٣٨ـ٤٠)

وكذلک انظر سورة سبأ وسورة ص.

٣ـ المرحلة الثالثة:

وهي المرحلة التي ولد فيها المسيح عليه السّلام ويمكن ان نسميها (دور آل عمران الثاني) وهو والد مريم عليها السّلام.

وفي هذه المرحلة جعلت مريم آية وضربت مثلاً للذرية الصالحة، وبها اسس دليل وبرهان على ان الذرية يمكن أن تجعل عن طريق الانثى دون الذكر، حيث جعلت ذرية عمران من ابنته مريم، وجعل عيسى صفوة الذرية النبوية الوارثة مع انّه ينتسب الى اسرائيل والى ابراهيم من امه فقط.

«إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّي نذرت لک ما في بطني محرّراً فتقبّل منّي إنک أنت السّميع العليم* فلمّا وضعتها قالت ربّ إنّي وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذّكر كالانثى وإنّي سمّيتها مريم وإنّي أعيذها بک وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم* فتقبّلها ربّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفّلها زكريّا كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لک هذا قالت هو من عندالله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب». (آل عمران: ٣٥ـ٣٧)

وكذلک انظر سورة التحريم: ١٢، وسورة مريم.

ومن سياق القرآن الكريم وحديث الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في عيسى ويحيى، يتضح ان الكيان المقدس الّذي يطلق عليه آل عمران في هذه المرحلة يشمل عمران ومريم وعيسى وزكريا ويحيى، ولم تكن أم يحيى وأم مريم قاصرتين عن شرف العضوية فيه.

وزكريا كان متزوجاً خالة مريم وقد عمّر ولم ينجب، وكانت امرأته عاقراً فلما رأى

كرامات مريم تحفز للدعاء ليرزق آية ذات كرامات مشابهة ليرثه ويرث من آل يعقوب من ميراث النبوة.

«هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لي من لدنك ذريّة طيّبة إنّك سميع الدّعاء* فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب أنّ اللّه يبشّرك بيحيى مصدّقاً بكلمة من اللّه وسيداً وحصوراً ونبيّاً من الصّالحين». (آل عمران: ٣٨ـ٣٩)

وكذلك انظر سورة مريم الآيات: ١ـ١٥ وكذلك الانبياء: ٩٠.

وميلاد يحيى في أيّام ميلاد المسيح عليه السّلام، وكان كلّ منهما آية ولكن دور عيسى اوسع ووراثته لآل يعقوب آشمل، وهو صاحب الرّسالة العالمية فهو من اولي العزم.

وفي هذه المرحلة سجل بنواسرائيل اسوء فشل لهم منذ ان كلّفوا بالقيام بالدور الطليعي في الاستجابة لأنبياء اللّه سبحانه.

فقد اختلف بنو اسرائيل في هذا الدور اختلافاً شنيعاً واتوا الأمور الفظيعة فقتلوا الانبياء وفارقوا الدين بكلّ وقاحة وصلافة، حتى انّهم قتلوا زكريّا ويحيى، واقدموا على قتل عيسى عليه السّلام فرفعه اللّه سبحانه وشبه لهم فقتلوا الشبيه على انّه هو المسيح وآذوا اللّه في مريم المقدسة..

والواقع أنّ بني اسرائيل اسرفوا وفرّطوا في النعمة التي انعم اللّه عليهم منذ عهد موسى عليه السّلام كما ذكرنا، ولكن في الدور الاخير اخذوا يقتلون الانبياء، والاخبار في هذا الباب تثير الدهشه والعجب، وما فعلوه بزكريا ويحيى وعيسى يلقي ضوء على الحقيقة، ويبدو أن اسرافهم تفاقم منذ عهد آل داود وقد رأينا كيف خالفوا مبدأ الولاية في اعتراضهم على اللّه سبحانه وعلى نبيّهم في قضية تنصيب طالوت اماماً لهم في الجهاد.

«لعن الّذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». (المائدة: ٧٨)

حيث يبدو أن تفريط بني اسرائيل منذ دور آل داود وصل حداً حمل داود عليه السّلام الى اعلان لعنهم والبراءة منهم وهذا لم يحدث من موسى عليه السّلام رغم ما آتوا من مخالفات فظيعة، ففي ذلك اشارة الى ان ما آتوا من فظائع منذ عهد داود افظع ممّا آتوا في عهد موسى.

وممّا ظهر على اوضاعهم من انحراف هو تفريطهم في الولاية الاسلامية.

«ترى كثيراً منهم يتولّون الّذين كفروا لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط اللّه عليهم وفي العذاب هم خالدون* ولوكانوا

يؤمنون بالله والنّبي وما أنزل إليه ما اتّخذوهم اولياء ولكنّ كثيراً منهم فاسقون﴾. (المائدة: ٧٩ـ٨٠)

والقرآن الكريم يعطي صوراً مما كان يقترف بنو اسرائيل واول الفظائع التي يؤاخذهم عليها قتلهم أنبياءهم ووصفهم الله بصفات النقص:

﴿لقد سمع الله قول الّذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق* ذلك بما قدّمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلاّم للعبيد* الّذين قالوا إنّ الله عهد إلينا ألاّ نؤمن لرسول حتّى يأتينا بقربان تأكله النّار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيّنات وبالّذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾. (آل عمران: ١٨١ـ١٨٣)

﴿ضربت عليم الذّلة أين ماثقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من النّاس وبآءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. (آل عمران: ١١٢)

ومن الملفت للنظر أنّ تلكم الفضائع كانت تصدر من بني اسرائيل مع انّهم يدعون الدين، بل انهم كانوا يقدمون عليها باسم الدين ويضفون عليها آراء سياسية ذات علاقة بالدين، اي انّهم لم يبرأوا من دين موسى ولادين ابراهيم واسرائيل بصراحة، وانما هم يخالفون الولاية وينصبون لأهلها العداء ويقتلون الانبياء وابناء الانبياء.

وموقفهم مع عيسى عليه السّلام كان منعطفاً نحو العدّ التنازلي في منحنى استبدالهم بغيرهم حتى اصبح اتباعه من غيرهم، وأصبحوا فرقاً اشتاتاً مبعثرين في الآفاق.

الهوامش:

(١) لان لوطا عليه السّلام ابن اخيه، وليس من سلسلة اولاده، ولكنه قريب في نسبة وملائم لحمل الذرية الصالحة ومن سنخ ابراهيم، ذريته لانه نبي.

(٢) ما عدا ما يكون من دور لعيسى عليه السّلام مع المهدي المنتظر عليه السّلام.

(٣) وهو اسرائيل واليه كانت نسبة بني اسرائيل لذلك صح لنا ان نطلق علي الشق الاسحاقي بالشق الاسرائيلى كما يصح لنا ان نطلق علي الشق الاسماعيلي بالشق المحمدي.

(٤) او ان المناسبة مجيء الملائكة ابراهيم بالبشارة المعجزة مناسبة لاخباره في مهمة اخري يختلف وقعها عليه ولكن نتيجتها لها علاقة بالمشروع الابراهيمي الكبير، وهي مهمة اهلاك قوم لوط وهجرة لوط الى ابراهيم.

(٥) يظهر ان المقصود في عبارة (ممن حملنا مع نوح) احد ابنائه لان القرآن الكريم في سورة الحديد آية ٢٦ يشير الي ان النبوة جعلت في ذرية نوح وابراهيم عليهما السّلام.

من ملامح رؤية المستشرقين للقرآن

الاستاذ عبدالجبار الرفاعي

الاستشراق اختراع أوروبي، يتصرف بخامات شرقية، ويتحرك بأدوات غربيّة[1] لخدمة المصالح الاوربية، وتعزيز هيمنة الغرب على الشرق، وتأكيد تفوقه وسيادته، وهو التعبير الواضح للمركزية الغربية، القائمة على نفي الآخر وليس الاستشراق ـ كما يحلو للبعض أن يقول ـ خطاب علمي ومعرفي موضوعي عن الشرق، أنجزه الباحثون الغربيون، الّذين تخصصوا بدراسة المجتمعات الشرقية وتراثها، وظلوا أوفياء لتخصصهم طوال حياتهم، حيث حرصوا على تصنيف الكتب، والتنقيب عن الآثار الشرقية، واصدار الدوريات، وعقد المؤتمرات والندوات، والترحال بين البلدان الشرقية، وتأسيس مراكز البحوث، والمعاهد الدراسيّة، لأجل ذلك.

ويمكن ان نعرف مدى سعة وكثافة انتاج الاستشراق، اذا لاحظنا انه نُشر في الغرب أكثر من (٦٠) ألف كتاب، في قرن ونصف «١٨٠٠ـ١٩٥٠» مما يعنى بالشرق العربي وحده، هذا فضلاً عن (٤١٤٧٠) مقالة وبحث، نُشرت حول الاسلام في الدوريات الغربية، منذ مطلع القرن الحالي. في حوالي ستين عاماً (١٩٠٦ـ١٩٦٥)، كما وثق ذلك (جي. دي. بيرسن J.D.Pearson) مدير مكتبة كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، في كتابة: index islamicus الذي نشره في لندن عام ١٩٥٨، ثمّ أتبعه بملحقين نُشرا عام ١٩٦٢ و١٩٦٧.

وان كنا لانعدم استثناءً لهذا الكلام في المستشرقين ـ وهم الأقل ـ الّذين تغلبوا على

سلطة المنهج الاستشراقي في الحديث عن الشرق.

إشارة إلى ميلاد الاستشراق

ذهب بعض الباحثين إلى ان الاستشراق نشأ في القرن التاسع(الميلادي) في الأندلس، حيث تمثل في إقبال المستعربين من الاوربيين على دراسة العربية وجمع المعلومات عن المسلمين، ثمّ ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية.

واستدل على ذلك بوجود مدونات اسبانية محملة بتأثيرات عربية واضحة في مضمونها، ممّا يثبت أن مؤلفيها أخذوا مادتهم التاريخية، وقواعدهم الحسابية، من مصادر عربية، ومن تلك المدونات(مخطوطات مختلفة وجدت في ـ اوبيط ـOviedo، وهي محفوظة في مكتبة الاسكوريال وقد احتفظ لنا القديس أولوجيوس القرطبي المتوفى سنة ٨٥٩ م، ونقلت إلى أوبيط عام ٨٨٤ م.

كما نجد الطريقة ذاتها في(المخطوطة المتنبئة Cronica Albeldenso) التي كتبها مؤلف مجهول عام ٨٨٣ م، وفي(مخطوطة البلدة Crsnicd Al-beldenso)، التي كتبها الراهب فيجيلا Vigila، وأتمها عام ٩٧٦ م.[٢]

فيما ذهب آخرون إلى ان بداية الدراسات العربية الاسلامية في أوروبا، ترجع إلى القرن الثاني عشر، ففي عام١١٤٣ م تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب(بيتروس فينيرا بيليس) رئيس دير كلوني، وكان ذلك على أرض إسبانية، وفي تلك الفترة كذلك وضع أول قاموس عربي لاتيني.[٣]

إلا انه من المؤكد ان بعض الرهبان من البلدان الأوروبية قصدوا الاندلس، في إبّان عظمتها ومجدها، ودرسوا في مدارسها، وترجموا القرآن، وبعض الكتب العلمية إلى لغاتهم، ودرسوا على علماء مسلمين مختلف العلوم، وخاصة الفلسفة والطب والرياضيات، ومن أوائل هؤلاء الّذين وصلتنا أسماؤهم الراهب الفرنسي(جربرت)، الّذي أصبح فيما بعد بابا لكنيسة روما عام ٩٩٩ م، و(بطرس المحترم ١٠٩٢ ـ ١١٥٦ م)، و(جيراري كريمون ١١١٤ـ ١١٨٧ م)، وبعد ان عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد الّتي تعنى بالدراسات العربية أمثال مدرسة(بادوي العربية)، وأخذت الأديرة، والمدارس الغربية، تدّرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية، واستمرت

الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب، وتعتبرها المراجع الأصلية للدارسة قرابة ستة قرون.[٤]

بيد ان حركة الاستشراق لم تكتمل لحظة ميلادها، وانما تدرجت في نموها وتطورها عبر مراحل، حتى ان الدراسات والتوجّهات الأكثر أهمية وفعالية، لم تبدأ إلا مع القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وأما ماسبق ذلك فكان تمهيداً جاداً[٥]، وإرهاصات أولى لانبثاق هذه الحركة التي ترعرعت عدة قرون، منقبة في التراث والانتاج الحضاري الشرقي عن تلك المرآة التي اصطنعتها وأرادت ان ترى الشرق من خلالها.

من ملامح المعرفة الاستشراقية

لم تولد المعرفة الاستشراقية في مناخ محايد، وانما تشكلت في ظل الصراع الحضاري الّذي نشأ بين الشرق الاسلامي من جهة، والغرب النصراني من جهة أخرى، وماجسدته الحروب الصليبية الّتي تواصلت حوالي مائتي عام، من تعبير دموي عنيف عن هذا الصراع.

وممّا يؤكد هذه الحقيقة ان اللاهوت الغربي، كان يجسّد القاعدة العلمية والتنظيرية لكل ثقافات، وديانات الغير(... فلقد كان أساتذة اللغات الشرقية، العبرية وأخواتها، واليونانية، كانوا برمتهم من رجال اللاهوت، أو انهم انطلقوا منهم، ـ وان ـ هذه التبعية للاهوت لم تمكن الاستشراق في القرنين السابع والثامن عشر من التوصل إلى نتائج علمية ذات قيمة مستقلة إلا لماماً)[٦] حسب شهادة بروكلمان.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد أضحت الأساطير المترجمة إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى عن الشرق، أهم مصدر للتعرف على الشرق، والاستعداد لقصده والترحال فيه، كما نلاحظ ذلك في قصص(ألف ليلة وليلة) التي ترجمت إلى أغلب لغات أوروبا منذ زمن مبكر، وكانت من أكثر المؤلفات العربية انتشاراً، وأوسعها دراسة وترجمة، وكان المستشرق الفرنسي(أنطوان جالان Galland Antoine ١٦٤٦ ـ ١٧١٥)، من أوائل الّذين ترجموا هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية، ونشره في(١٢) مجلداً مابين(١٧٠٤ ـ ١٧٠٨)[٧]، وقد أُعيد طبع هذه الترجمة آكثر من سبعين مرة، هذا فضلاً عن عدد كبير من الترجمات الأخرى الّتي قال عنها أحد الباحثين:

(ولن يكون بامكاننا أن نأتي بلائحة

كاملة أو شبه كاملة ـ لترجماتها ـ لأن ذلك يستوعب مجلدات بكاملها، وحسبنا هنا ان نشير إلى أهم ما نُقل منها إلى أهم اللغات الأوروبية، مع العلم ان الترجمة الواحدة أعيد طبعها مرات كثيرة تصل إلى الثمانين». [8]

وربما لانعدو الحقيقة إذا قلنا بأن كتاب (ألف ليلة وليلة) يعتبر ـ في نظر الغربيين آنذاك ـ أهم كتاب يصف المجتمعات الشرقية، ويعكس حقيقة علاقاتها، ويحدد طبيعة ثقافاتها؛ ولذا جعل الافتتان بهذه القصص العديد من الأوروبيين يخلطون بين الشرق الحقيقي، وشرق هذه القصص، فالليدي (ماري مونتاغو Mary Montagu) مثلاً، اعتقدت أن القصص هي وصف دقيق للمجتمع الشرقي الّذي لامست أطرافه، بصفتها زوجة لسفير بريطاني، وكتبت بسذاجة مفرطة:

«ان هذه القصص كتبها مؤلف محلي، ولذلك فهي تصور عادات الناس هنا تصويراً حقيقياً».

وبذلك تداخل الخيال والواقع عند القاري الغربي، حتى توهم أنهما شيء واحد، أما «غوبينو Gobineau» الفرنسي، الّذي بدأ سفره وهو تحت تأثير الأفكار نفسها، فقد كتب: كلّما خطونا خطوة في آسيا، ازداد اقتناعنا ان كتاب ألف ليلة وليلة، هو الأكثر دقة وصحة، وكمالاً، من سائر الكتب الّتي وصفت أقطار هذا الجزء من العالم». [9]

تلك هي خلفية العقل الغربي، ومصادر تلقي معرفته عن الشرق، الّتي تكون طبقاً لها وعيه عن هذا الجزء من العالم، وبذلك عندما عمل الغرب على توثيق الشرق «النقيض، ذلك العدو»، فانه ـ كما أشار ادوارد سعيد ـ انتهى إلى توثيق نفسه، ومع ان قصص الرحلات في انكلترا الفكتورية عكست خصوصية كلّ فرد من اولئك الرحالة، إلاّ انها كانت بشكل رئيسي تكراراً لأفكار موروثة. [10]

واستمر الباحث الغربي يكرر ذاته في وعي الشرق، منذ ان بدأت طلائع الدراسات العربيه الاسلامية هناك، ومنذ الطلائع الأولى للرحالة الغربيين إلى بلاد الشرق، فلم تبرح وعيه آناماً تلك الصورة، الّتي ابتنى اطارها على أساس تزييف اللاهوت الغربي لديانات وثقافات الغير، ومابثته الأساطير ـ ألف ليلة وليلة وغيرها ـ من أفكار خيالية عن تلك البلاد وانسانها، فعندما كان الغربيون يذهبون إلى الشرق كانت تلك «أي الصورة المشوهة للشرق» هي الصورة الّتي يبحثون عنها، فيتقفون

مايرونه بعناية، ويتجاهلون كلّ مالاينجسم مع الصورة الّتي كونونها سابقاً ـ حسب تعبير مكسيم رودنسون ـ.[11]

وبتعبير آخر:

ان المعرفة الاستشراقية التي أفرزها العقل الغربى، لم تعد معرفة علمية موضوعية ـ كما يحلو للبعض ان يقول ـ، وانّما صارت سلطة استطاع الغرب من خلالها ان يكرس حالة التبعية له في ديارنا، حتى في حقل الدراسات والأبحاث الّتي ما انفكت تتحرك في ضوء المتطلبات الغربية، وأضحى عدد كبير من الباحثين من أبناء هذه الديار في أسر هذه السلطة المعرفية، كما وصف ذلك المفكر المسلم مالک بن نبي في قوله:

«إن الأعمال الادبية لهؤلاء المستشرقين، قد بلغت في الواقع درجة من الإشعاع لانكاد نتصورها، وحسبنا دليلاً على ذلک أن يضم مجمع اللغة العربية في مصر بين أعضائه عالماً فرنسياً، وربما أمكننا أن ندرک ذلک إذا لاحظنا ان عدد رسالات الدكتوراه، وطبيعة هذه الرسالات الّتي يقدمها الطلبة السوريون والمصريون كلّ عام إلى جامعة باريس وحدها، وفي هذه الرسالات كلها يصرون ـ وهم أساتذة الثقافة العربية في الغد وباعثو نهضة الاسلام ـ يصرون كما أوجبوا على أنفسهم، على ترديد الأفكار الّتي زكاها أساتذتهم الغربيون، وعن هذا الطريق أوغل الاستشراق في الحياة العقلية في البلاد الاسلامية، محدداً بذلک اتجاهها التاريخي إلى درجة كبيرة».[12]

من الجهود الاستشراقية حول القرآن

يعود اهتمام الغربيين بالقرآن الكريم ترجمة، وطبعاً، ودراسة إلى البواكير الأولى لتعرفهم على معارف المسلمين، حيث أشرنا فيما سبق إلى ان بعض الرهبان الأوروبيين قصدوا الأندلس، ودرسوا في مدارسها، وترجموا القرآن، وبعض الكتب العلمية إلى لغاتهم.

بيد ان أول وأقدم ترجمة كاملة ـ معروفة ـ للقرآن، هي تلک الّتي دعا اليها ورعاها «بطرس المحترم» رئيس دير كلوني وتولاها بطرس الطليطليى، وهرمن الدماشي، وروبرت كينت، بمعاونة عربي مسلم يدعى «محمّد» ولايعرف له لقب ولاكنية ولا أي اسم أخر، وتمت هذه الترجمة في ۱۱٤۳، وطبعت في بازل «سويسره» عام ١٥٤٣.[13]

واحتمل بعض الباحثين ان «محمّداً»

هذا، الّذي ذكر اسمه في هامش أحدى النسخ الخمسه لهذه الترجمة، هو شخصية وهمية، حيث دأب القوم على وصف بعض الكتب بأن مؤلفها مسلم ارتد إلى المسيحية، لاعطاء الكتاب توثيقاً أكبر، وهي حيلة طالما استعملوها، وخصوصاً عند ترجمة القرآن الكريم. فكثيراً ماكانوا يدّعون ان الترجمة عن النص العربي في الوقت الّذي لايعرف فيه المترجم اللغة العربية. [14]

أما أول طبعة للقرآن في نصه العربي، فهي تلك الّتي تمت في البندقية في وقت غير محدد بالدقة، ولكن المرجّح هو ان تاريخها هو سنة ١٥٣٠ تقريباً، لكن جميع النسخ الّتي طبعت أحرقت، وكانت طبعة كاملة لكل القرآن، ولم يعثر لها على أثر حتى الآن، وأقدم من ذكرها هو «إرپنيوس» في كتابه «مباديء اللغة العربية، ليدن ١٦٢٠». [15]

أما أول طبعة للنص الكامل للقرآن وبحروف عربية، وانتشرت ولايزال توجد منها نسخ في بعض مكتبات أوروبا، فهي تلك الّتي قام بها الكاهن الألماني «ابراهام هنكلمان Abraham Hinckel-mann ١٩٥٢ ـ ١٦٩٥»، في مدينة هامبورج بألمانيا، في مطبعة Schltzio Achilleriana، في سنة ١٦٩٤، وتقع في ٥٦٠ ص. [16]

وفيما يخص فهارس القرآن، فقد وضع المستشرق الألماني غوستاف فلوجل(١٨٠٢ـ١٨٧٠)، فهرساً أبجدياً لكلمات القرآن الكريم، مع ذكر رقم السورة ورقم الآية الّتي ترد فيها، وأسماه«نجوم الفرقان في أطراف القرآن، وطبع في ليپتسك عام ١٨٤٢، وأُعيد طبعة فيها عام ١٨٩٨. [17]

وهذا الكتاب هو الّذي اعتمده محمّد فؤاد عبدالباقي وجعله أساس معجمه«المعجم المفهرس لألفاظ القرآن» كما أخبرنا هو بذلك بقوله:

(وإذ كان خير ماأُلف وأكثره استيعاباً في هذا الفن، دون منازع ولامعارض، هو كتاب«نجوم الفرقان في أطراف القرآن» لمؤلفة المستشرق فلوجل الالماني، الّذي طبع لأول مرة عام ١٨٤٢ ميلادية، فقد اعتضدت به وجعلته أساساً لمعجمى، ولما أجمعت العزم على ذلك راجعت معجم فلوجل مادة مادة على معاجم اللغة وتفاسير الائمة اللغويين، وناقشت مواده، حتى أرجعت كل مادة إلى بابها، . . .). [18]

هذه نماذج من الأعمال الّتي نهض بها المستشرقون فيما يتعلق بالقرآن الكريم،

وقد تتابعت أعمالهم حول القرآن في حقول متعددة، حيث تجاوزت ترجمات القرآن والأعمال حوله عدة آلاف، ترجم فيها إلى أكثر من مائة لغة، فضلاً عن الدراسات والابحاث الّتي لم تزل تصدر بزخم كثيف في السنوات الأخيرة،

وممّا ينبغي الاشارة إليه ان الاستشراق الألماني قام بتأسيس «معهد ميونيخ للأبحاث القرآنية» في جامعة ميونيخ، وهو معهد خاص بالدراسات القرآنية، وفريد من نوعه في العالم آنذاك، إذ كان يضم :

١ـ أهم مايوجد من المراجع المطبوعة، وخاصة العربية التي تتناول تفسير القرآن الكريم، والعلوم القرآنية، والقراءات.

٢ـ صوراً عن المخطوطات الّتي تتناول هذا الموضوع، من جميع المكتبات في العالم.

٣ـ صوراً عن النسخ المخطوطة من القرآن الكريم. من مختلف العصور، من القرن الأول للهجرة حتى القرن الرابع عشر.

٤ـ علبة خاصة لكل آية، يوضع فيها تفسير تلك الآية كما جاء به المفسرون، منذ عصر الصحابة حتى اليوم، والتفاسير مرتبة حسب الأقدمية.

وكان يشرف على هذا المعهد المستشرق برجستريسر(١٨٨٦ـ١٩٣٣)، ثمّ خلفه المستشرق بريتسل(١٨٩٣ـ١٩٤١).

وقد بذلت جهود كبيرة وانفقت أموال طائلة في تحضير هذا المعهد، ولكن دمرته الغارات الجوية على مدينة ميونيخ أثناء الحرب العالمية الثانية.[(١٩)]

* * *

ان توثيق الجهد الاستشراقي في حقل الدراسات القرآنية، يحتاج إلى كلام طويل تضيق عن استيعابه مجلدات عديدة، لأن انتاج المستشرقين تواصل عدةقرون في هذا الحقل، وقد لانعدو الحقيقة إذا قلنا بأن ترجمات القرآن، وعلومه، كالقراءات والمصاحف... وغيرها، استأثرت باهتمام طائفة كبيرة من عظماء المستشرقين، ولم تزل هذه الدراسات موضع اهتمام الباحثين الغربين حتى اليوم.

تقويم المنهج الاستشراقي في الدراسات القرآنية

ألمحنا سلفاً إلى مصدري الإلهام الأساسين للرؤية الاستشراقية، حين حاولنا ان نتأمل في نحو تشكيل المعرفة الاستشراقية، وكيف ان اللاهوت النصراني

الذي تراكم فيه الحقد، واختزن الروح العدوانية الثأرية تجاه الشرق وانسانه المسلم، كان هذا اللاهوت الرافد الأول لتشكيل رؤوية الغرب إزاء الشرق، ثمّ ألهمت الأساطير المترجمة عن الشرق الانسان الغربي، صوراً خيالية أخرى عن ذلك العالم.

من هنا توحدت هذه الرؤوية أزاء الشرق، وان اختلفت بالنسبة لأشياء أخرى، ولم يتمكن انتاج المستشرقين ان يخترق جدار المرآة الّتي يرى الشرق بواسطتها، إلا استثناءً، ولذلك لم يطرأ تحول أساسي في منهج البحث لديهم بالرغم من تغير الأزمان، واختلاف البلدان الّتي ينتسبون اليها.

في ضوء ذلك لايصح ان نقر التقسيم الّذي ذهب إليه بعض الدارسين، بتصنيف الاستشراق إلى مدارس، بحيث نسمي بعضه استشراقاً انجليزياً، وبعضه الآخر فرنسياً، أو ألمانياً، أو هولندياً، صحيح أن الدارسين يسمون بأسماء البلدان التي ينتمون اليها، غير أن النتيجة الّتي توصلنا إليها ـ كما يقول عمر لطفي العالم ـ باستعراض طرق البحث والتفكير والمحصلات، تنفي صحة هذا التقسيم، واذا كان لابد من وجود اختلاف، فليس مرده إلى الجغرافية، بل إلى التناوب في تسيير عجلة الاستشراق، وبعبارة أخرى، فانه ما ان وقفت مدرسة المستشرق دي ساسيه في باريس عن العطاء، حتى استأنفته مدرسة تيودور نولدكه في شتراسبورج، أو مدرسة هورجرونيه في هولندا[٢٠]، أما الموضوعات فتوشك ان تكون متطابقة مكملة، فاذا عرفنا أن الاتصال عبر المؤتمرات السنوية والدوريات المنتظمة لم ينقطع أبداً، جازلنا القول:

إن سُحنة الاستشراق واحدة، لاسيما في وسائلها وغاياتها المتجهة نحو القرآن الكريم.[٢١]

ومن المناسب هنا ان نشير إلى شبهتين تكررت إثارتهما بأساليب مختلفة، من قبل المستشرقين أزاء النبي الأمين صلّى الله عليه وآله وسلّم والقرآن الكريم، ومن يراجع آثارهم يجد صياغات متنوعة لهاتين الشبهتين، فقد تُذكر الشبهة في مؤلف أحد المستشرقين الأوائل بنحو ما، ثمّ يلتقطها الآخر الّذي يأتي بعده، فيعيد انتاجها ويحاول إثارتها بكيفية جديدة، وكذلك يفعل الثالث المتأخر عنهما، بيد أن محور تلك الشبهة هو هو، وان تنوعت أساليب التعبير عنها.

وتتلخص الشبهة الأولى في القول:

ان للبيئة الفضل في إفراز روح وفكر الرسالة الاسلامية، كما صرح بذلك أحد المستشرق بقوله:

(يخيل إليّ أنه من العبث فهم محمّد بعيداً عن زمنه وبيئته)(٢٢) ومن الغريب ان يتجاهل هذا الزعم، ان الاسلام كان ثورة حقيقية على الجاهلية، وان الاسلام عبر عن مشروع حضاري يتناقض مع الديانات الوثنية الّتي كانت سائده فى عصر البعثة، وبالذات في الجزيرة العربية ـ مهبط الرسالة الاسلامية ـ ولذلك دخل الاسلام مرحلة الصراع مع الوثنية السائدة آنذاك في مكة المكرمة، هذا الصراع الّذي اشتد بعد سنوات قليلة من عمر الرسالة حتى اضطر المسلمون معه إلى اللجوء إلى أرض أخرى جديدة، لتكون قاعدة ومنطلقاً للدعوة الجديدة، ومع ذلك لم تتخلَ الوثنية عن عدوانها وكيدها لهذه الدعوة الوليدة، إلى ان بلغ الصراع ذروته في المعارك الضارية الّتي خاضها المسلمون مع الوثنيين، واستمرت طيلة فترة حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم، ولم تتوقف بعد وفاته.

ان هذا الصراع الدموي الّذي تواصل لسنوات عديدة، بين الاسلام والوثنية، هو الدليل الأكيد على ان الاسلام هو النقيض الطبيعي للبيئة الوثنية المعروفة، وليس من الصحيح ان يولد النقيض من رحم نقيضه، بمعنى انه لايمكن ان نفهم، بأن البيئة العقائدية الوثنية يمكن ان تثمر عقيدة توحيديه خالصة، هذه العقيدة الّتي عبرت عن نفي تام للوثنية.

أليس هذا القول أشبه بمن يدعي بأن مصدر النور هو الظلام؟!

قال تعالى: «قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين يهدي به اللّهُ مَن اتّبع رضوانه سُبُلَ السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بأذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم».

اما الشبهة الثانية فتتلخص في حرص المستشرقين على تصيد النظائر والمتشابهات بين القرآن والكتب الأخرى، واتخاذها ذريعة للقول بتلقي الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وسلّم مادة القرآن الكريم من تلك الكتب، كما نلاحظ ذلك في الكثير من مؤلفات المستشرقين حول القصص القرآني، فقد نوه المستشرق الألماني(اهينز شبيار) في كتابه الصادر عام ١٩٣١ م تحت عنوان«القصص التوراتي في القرآن»، نوه في مقدمة هذا الكتاب بما سمّاه أعمالاً أصولية ومرتكزات علمية على مدار السنوات المائة الأخيرة ـ وهي مؤلفات المستشرقين: شبرنجر، موير، جريم،

نولدكه، بوهل، شفالي ـ وعلل شبييار حكمه هذا بأن أصحاب هذه الأعمال خصصوا النصيب الأوفر من تلك الدراسات للحديث عن شخصية الرسول، كما قال:

(إن هذه الدراسات دلت صراحة على التصورات غير العربية التي «اقتبسها» الرسول من غيره، سواء في مواجهاته التشريعية أو السياسية، وذلك في ضوء الدراسات النقدية التي وضع أسسها المستشرق المعروف إجناس جولدتسيهر من خلال دراسته للسير).[٢٣]

ان هذه القرآءة الارجاعية لما تضمنه القرآن الكريم، ومحاولة اكتشاف الأصول في موروث كتابي أخر، هي أحد أبرز ملامح الرؤية التقليدية للاستشراق في تعاملة مع التراث الاسلامي، بل التراث الشرقي عامة، فمثلاً الفلسفة الاسلامية تغدو فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية ـ بحسب زعم المستشرق الفرنسي ارنست رينان ـ والتشريع الاسلامي هو القانون الروماني، و... الخ.

لقد كانت هذه القراءة مظهراً لتجلي الوعي الاستشراقي، الذي ولد في أحضان اللاهوت الكنسي، والذي عمد إلى تبني خطاب تضليلي في الحديث عن القرآن الكريم والتراث الاسلامي، لأنه مما لاشك فيه ان تاريخ الانسانية تاريخ مشترك، والمنعطفات الكبرى في هذا التاريخ شملت كل أفراد النوع الانساني آنذاك، حيث كانت الأرض هي المسرح الطبيعي لتلك الحوادث، كحادث الطوفان الّذي عمّ الأرض في عصر النبي نوح عليه السّلام.

من هنا تكرر ذكر الطوفان مثلاً، في الكتب القديمة، بل في الألواح الطينية الّتي عُثر عليها في آثار الأمم القديمة كالسومريين وغيرهم.

فلماذا أضحى ذكر هذا الحادث في القرآن اقتباساً من التوراة؟!

أليست هذه محاولة متعمدة لطمس حقيقة الوحي الالهي بالقرآن؟!

ونضيف على ذلك انه لو حاولنا ان نقارن بين القصص القرآني وغيره، فسنلاحظ تميز القصص القرآني بشكل واضح وتفرده عن ما جاء في «الكتاب المقدس»، كما دلّل على ذلك العلامة المحقق مالك بن نبي في دارسته المقارنة حول «قصة يوسف» في القرآن والكتاب المقدس، فاكتشف بأن (مجرد التأمل السريع يمكن أن يكشف لنا عن عناصر خاصة تميز كلتيهما على حده، فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني،

نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات الّتي تحرك المشهد القرآني، فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن، فهو نبي أكثر منه أباً، وتبرز هذه الصفة خصوصاً في طريقته في التعبير عن يأسه عند ما علم باختفاء يوسف، كما تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه.

وامرأة العزيز نفسها تتحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الألم، وأرغمتها طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها، وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية محلقة، سواء مع صاحبيه، أم مع السجان، فهو يتحدث بوصفه نبياً يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها... والرواية الكتابية تكشف أيضاً عن أخطاء تاريخية تثبت صفة«الوضع التاريخي» للفقرة التي نناقشها، فمثلاً فقرة«لأن المصريين لايجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين»، يمكننا التأكد بأنها من وضع النساخ الميالين إلى أن يذكروا فترة المحن الّتي أصابت بني اسرائيل في مصر، وهي بعد زمن يوسف.

وفي رواية التوراة استخدم أخوة يوسف في سفرهم«حميراً» بدلاً من«العير» في رواية القرآن، على حين أن استخدام الحمير لايمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل، بعد ما صاروا حضريين، إذ الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة، لكي يجيء من فلسطين، وفضلاً عن ذلک فان ذرية ابراهيم ويوسف كانوا يعيشون في حالة الرعاة الرحل، رعاة المواشي والأغنام...).(٢٤)

هكذا بدالنا الموقف الاستشراقي المتحيز من القرآن الكريم، هذا الموقف الّذي يكاد ان يكون موقفاً عاماً من النادر ان نجد من أفلت منه من أولئک الباحثين، فهذا شيخ المستشرقين«تيودور نولدكه ١٨٣٦ - ١٩٣٠» مؤلف أحد أهم الكتب في تاريخ الاستشرق حول القرآن، وهو كتابه«تاريخ القرآن»، والّذي وصفه الدكتور ميشال جحا بقوله: «.. لقد رفع نولدكه لواء الاستشراق الألماني فترة تزيد على نصف قرن، هذا، وتبقى كلمة أخيرة في إنصاف هذا العالم الجليل، هي انه حاول في كل ماكتب أن يكون مثال العالم المتجرد العقلاني، فلم يتجنَ في أبحاثه على الاسلام، ولم يحاول أن يدّعي معرفة أشياء لم يكن يعرفها، ولهذا جاءت آراؤه واضحة جليةً، وخاضعة لصفة التجرد، بعيدة عن الهوى والتضليل».(٢٥)

فهل كان متجرداً عقلانياً حين وصف النبي الأمين صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بأنه :

«صائغ غير موهوب لسور قرآنية مشوشة الاسلوب»؟![26]

أم انه هو الأخر ضحية الوعي الغربي المنكوس حول الاسلام والقرآن، الّذي انبث في ذلک الرکام الهائل من الأبحاث الّتي أنجزها الباحثون الغربيون حول الاسلام...؟!

الهوامش

(١) العالم، عمر لطفي. المستشرقون والقرآن. مالطا: مركز دراسات العالم الاسلامي، ص٢٧.

(٢) العرفان مج٧٤: ع٧، ٨(٩ـ١٠/ ١٩٨٦م) ص٥٦، عن فيرنيه، جون في: تراث الاسلام، ٣: ١٦٩.

(٣) جحا، د.ميشال. الدراسات العربية والاسلامية في أوروبا. بيروت: معهد الانماء العربي، طه ١، ١٩٨٢، ص ١٨.

(٤) ن. م: ١٨.

(٥) العالم، عمر لطفي. المستشرقون والقرآن: ٢٨.

(٦) ن. م: ٢٩عن: Brockelmann, mor-genlaendishe, S S 3

(٧) جحا، ميشال. المصدر سابق: ٢٢.

(٨) حمادة، د. محمّد ماهر. رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٩٢م، ٢:٢٠١١.

(٩) قباني، رنا. أساطير أوروبا عن الشرق. ترجمة: صباح قباني. دمشق: دارطلاس، ١٩٨٨م، ص٥٦.

(١٠) ن. م: ٢٦.

(١١) رودنسون، مكسيم. تراث الاسلام، ١: ٨٠.

(١٢) بن نبي، مالک. الظاهرة القرآنية. ترجمة: عبدالصبور شاهين. بيروت: دارالفكر، ص٥٤، ٥٥.

(١٣) بدوي، د. عبدالرحمن. موسوعة المستشرقين. بيروت: دارالعلم للملايين، ط١، ١٩٨٤م، ص٣٠٦

(١٤) المعايرجي، د. حسن. «المحرّفون للكلم: الترجمات اللاتينية الأولى للقرآن الكريم وتأثيرها على الترجمات باللغات الأوروبية». مجلة المسلم المعاصر ع٤٨(١٤٠٧هـ) ص٧١.

(١٥) بدوي، د. عبدالرحمن. مصدر سابق. ص٣٠٢.

(١٦) ن. م، ص٣٠٣.

(١٧) ن. م، ص٣٠٦.

(١٨) عبدالباقي، محمّد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. الصفحة(هـ).

(١٩) جحا، ميشال. مصدر سابق: ٢٥٩.

(٢٠) كان دي ساسيه المستشرق الفرنسي اللغوي على رأس المدرسة الفرنسية في باريس، بينما كان نولدكه في مدينة شتراسبورج على رأس المدرسة الألمانية، وطبع حركة الاستشراق سبعين سنة بشخصه، وكان المستشرق هو رجرونيه في مدينة لايدن بهولندا كذلک بالنسبة للاستشراق الهولندي.

(٢١) العالم. عمر لطفي. المستشرقون والقرآن: ٢٦.

(٢٢) ن. م: ٧٤.

(٢٣) ن. م: ٨٥و١١٨.

(٢٤) بن نبي، مالک. مصدر سابق. ص٣٠٤ـ٣٠٦.

(٢٥) جحا، د. ميشال. مصدر سابق: ١٩٩.

(٢٦) العالم، عمر لطفي. مصدر سابق: ١٥٢.

آليات التأثير الجماهيري
في القرآن الكريم

السيّد محيي الدّين المشعل

من الوسائل المهمّة التي تساهم وبشكل أساسي وكبير، في انجاح المشروع الحضاري، وسيلة تسخير أفراد المجمتع، والاستفادة من طاقاتهم المختلفة في وعي ذلك المشروع.

وهذه الوسيلة لكي تستخدم استخداماً صحيحاً او منطقياً لابد لمن أراد ان يستفيد منها أن يتعرف أولاً على آليات التأثير الجماهيري، والاجتماعي ليتمكن من الدخول الى نفوس الأفراد، والتغلغل فيها، ومن ثم صياغتها بالطريقة الصحيحة التي يدعو إليها مشروعه الحضاري الّذي يؤمن به.

وأكبر أطروحة حضارية طرحتها السماء هي أطروحة الاسلام، الدّين الّذي ختمت به الشرائع السماوية، وأريد من خلاله أن يتكامل الفرد والمجتمع ويسيران الى اللّه تعالى في خط الرضا.

والاسلام في طرحه الحضاري هذا يعدّ القرآن الكريم أبرز المصادر التي يتأسس عليها هذا المشروع ويبتني، ويتكامل.

وإذا ماتدبرنا في آيات القرآن الكريم، من خلال نزوله التدريجي ليساير واقع الأمة، فإننا نجده قد استخدم آليات التأثير الجماهيري استخداماً صحيحاً وسخّرها في خدمة مشروعه الحضاري الّذي يريد للانسان من خلاله ان يكون الخليفة للّه في هذه الأرض ملاحظاً مواصفات خاصة في مقام استخدام هذه الآليات.

ونحن قبل أنه نتحدث عن الآليات التي استخدمها القرآن الكريم نحاول أن نسلط الضوء على معنى هذه الآليات التي يمكن

من خلالها التأثير على الجماهير ومن ثم تسخيرها في سبيل خدمة المشروع الحضاري الاسلامي.

فالآليات عبارة عن الوسائل والأساليب التي يمكن من خلالها الانتقال من الواقع النظري للأطروحة الحضارية الى واقعها العملي الّذي تكون نتيجته تحقيق الأهداف المرسومة سلفاً لهذا المشروع.

وبعبارة أخرى -ونحن نتحدث عن آليات التأثير الجماهيري في القرآن- هي العوامل والأدوات والمناهج الّتي استخدمها القرآن الكريم في سبيل هداية الأفراد والمجتمعات وايصالها إلى كمالاتها الكامنة فيها من خلال فطرتها السليمة لإيجاد حالة من الانسجام والتفاعل بين الفرد والمجتمع من جهة، وبينه وبين الطبيعة من جهة أخرى على اساس نظام كامل متناسق.

فحيث كان القرآن كتاباً موضوعه الانسان، الفرد والمجتمع، فقد استخدم وسائل كثيرة في مقام هدايته سوف ينصب البحث حول آليات التأثير الجماهيري منها أهم آليات التأثير الاجتماعي في القرآن الكريم.

أولاً ـ القصة القرآنية :

لما كان القرآن الكريم يتمثل في الخطاب والبيان الالهي فقد استخدم القصة كأداة تربوية غير مباشرة لإحداث حالة من الترشيد الاجتماعي على مستوى الوعي والسلوك، ففي الوقت الّذي تمثل القصة القرآنية سرد تأريخ لأمم سلفت وبيان ثقافة لحضارات اندثرت. وسبكاً فنياً في صياغة الاحداث والأدوار والشخوص في الواقعة فإنها في الوقت ذاته ناظرة كلّ النظر الى تقويم الفكر الاجتماعي، والسلوك الأممي.

فالقرآن الكريم عند ما يحدثنا عن قصة يوسف عليه السّلام فإنه يريد ترشيد سلوك الآباء تجاه أبنائهم لإحداث حالة من التوازن العاطفي في الاسرة التي هي الأساس في بناء المجتمع كمفردة من مفردات القصة.

كما يريد أن يوحي لنا بأنه العفة والتحصن ليسا أمرين مثاليين عند ما تكون وسائل الإغراء والتمييع متوفرة كلّ التوفر بل هما حالتان واقعيتان لايحتاجان الى شيء أكثر من الالتفات إلى رقابة اللّه الّتي لايعزب عنها صغيرة ولاكبيرة في الأرض، ولافي السماء.

وهاتان مفردتان في هذه القصة من شأنها تقويم السلوك الاجتماعي للأفراد بشكل عفوي عند ما يعيش أحداث هذه القصة، وقيم الخير والجمال التي ترشد إليها وتتحدث عنها.

وهكذا في قصة أصحاب الفيل الّتي تقوّم الفكر تجاه الأحداث والقضايا الخارجية من خلال أن القوة للّه جميعاً، وأنّه مهما بلغت قوى الآدميين فإنها هباء منثور في مقابل تلك القوة المطلقة اللامتناهية.

ولست أريد أن اتحدث عن القصة وتأثيرها سيكولوجياً وتربوياً في هذا البحث إذ ليس هنا محله، وإنّما أردت الاشارة إلى دور هذه الآلية، وفاعليتها في تحقيق أهداف الطرح الحضاري من خلال تأثر الأفراد في المجتمع فكراً وسلوكاً وانتقالهم من حالة لاخرى أرقى منها على مستوى النظرية والتطبيق.

ثانياً ـ الخطابات الجماهيرية:

استخدم القرآن الكريم خطابات يا أيّها النّاس، ويا أيّها الّذين آمنوا، ويا أيّها الانسان... في مواضع كثيرة تشير إلى تساوي النّاس في الخلق، وتفاضلهم على أساس التقوى وتنبيههم إلى القضايا المصيرية وغيرها، ممّا يكشف عن تعامل القرآن الكريم مع الجمهور، من خلال هذه الآلية التي تدعو المجتمع بتمامه ولاتقتصر على فئة دون أخرى، كما هي المسألة لدى الدعوات العنصرية أو العرقية أو القومية، لأن القرآن لايريد تغيير ساحة دون ساحة أو أمة دون أخرى بل يريد للمجتمعات كلّها أن ترقى من وضعها التي هي عليه الى وضع افضل.

ولعل القرآن عند مايخاطب الّذين آمنوا بالخصوص فلأنهم يمثلون النخبة والطليعة في الأمة الّتي يمكنها أن تحمل الرسالة إلى بقية المجتمعات وترشدهم الى الطريق المستقيم، فهؤلاء لاشك أنّهم بحاجة إلى اعداد خاص من قبل المشرع حتى يكونوا هم الوسيلة في إتمام الطرح وانجاحه.

ولاينافي هذا الاهتمام بالنخبة الصفة الجماهيرية التي يتصف بها الخطاب القرآني لأنّه وسيلة إلى تحقيق الأهداف الاجتماعية العامة.

ثالثاً ـ معالجة مشاكل المجتمع :

وهذه الآلية من أهم الآليات في مقام التأثير الجماهيري حيث ان الطبيعة الانسانية مجبولة على الميل لمن يعالج مشكلاتها والقبول منه، فعند ما يراد تغذية مجتمع ما بفكرة معينة فإن أنجح الطرق وأنجعها في ذلك محاولة رفع مشاكل ذلك المجتمع على اختلافها وتباينها، ومن ثمّ طرح تلك الفكرة، أو طرح الفكرة متزامنةً مع رفع الحاجات ومعالجة المشاكل وعند ما نراجع الآيات الكريمة من خلال تاريخ نزول القرآن فإننا نجدها تعالج مشاكل النّاس الاقتصادية منها، والسياسية، والنفسية، والتربوية والمالية، وكلّ المشاكل الأخرى.

فالقرآن في نزوله المنجم عبر ثلاثة وعشرين عاماً كان يلاحق المشاكل التي تحول دون تقدم الاسلام والمسلمين على كلّ المستويات، ويقدم العلاج الناجع لها ممّا يقوى موقعه في نفوس معتنقيه ويزيد تمسكهم به، ويرغب الآخرين في تبنّيه واعتناقه.

لذلك نحن نجد القرآن الكريم يثير المشكلة الفكرية لدى النّاس عند ما كانت تعبد الأصنام ليشعرها بأنها تعيش في أزمة اخضاع العقل للخرافات والأساطير الأمر الّذي يشعر به الكثير من النّاس، بل ربّما حتى سدنة الاصنام انفسهم إلاّ أن المسألة تحتاج الى إثارة مقرونة بطرح بديل متكامل، لتستثير العقل وتنشطه، وتجيب على كلّ اشكالياته، وتساؤلاته.

فيثير القرآن الكريم هذه المشكلة ثم يعالجها علاجاً متكاملاً يشعر المجتمع من خلاله بماهيته ومصداقيته الأمر الّذى يوثق العلاقة، ويشيدها بين المشروع الاسلامي والمجتمع.

وهكذا في بقية المشاكل الأخرى من أحوال شخصية، ومدنية، وجنائية فإنه إمّا أن يثير المشكلة ليقدّم الحل لها، واما أن تكون المشكلة أمراً واقعاً ينتظر حلاً فتأتي السماء لتقدم الحلّ الكامل لها.

رابعاً ـ القيم الحضارية :

لابد للمشروع الّذي يريد أن يغير المجتمع أن يكون متوفراً على قيم حضارية يمكن من خلالها حل المشكلة الاجتماعية التي مافتئ المصلحون والمربون يبحثون عن حلّها خلال الحقب التاريخية المختلفة، ومازالوا كذلك.

الا أن المشكلة تكمن في غياب القيم الحضارية عن النظرية احياناً أو عن التطبيق أحياناً أخرى أو عنهما معاً.

وإذا ما تدبرنا في القرآن الكريم فاننا نجده مليئاً بهذه القيم أعني القيم الحضارية، كاحترام العقل، والدعوة للتفكير، وتشجيع العلم، والدعوة للخير والجمال، والتأكيد على العدالة والمساواة، والحث على نشر الحبّ والسلام، وحفظ الحقوق، والدعوة الى النظم، وفسح المجال للحريّات المختلفة، وغيرها من القيم الاخلاقية والاجتماعية، والتربوية الّتي تعد عاملاً مهماً في البناء الحضاري، وفي هذا المجال الكثير من الآيات إلا ان البحث فيها، وبيان كيفية الاستفادة منها قد يخرج بنا عن الموضوع، لذلك نرجئه الى محل أخر للبحث فيه باسهاب، إنما نريد ان نشير إلى ان القيم الحضارية التي أثارها القرآن في طرحه المتكامل لاتوجد في أى طرح سواه لأنها من تشريع خالق الانسان الّذي هو أعلم بطبيعته وماتحتاجه للوصول إلى كمالها.

وعلى كلّ حال فهذه الآلية هي من أهم الآليات وأخطرها في مقام التأثير الجماهيري لأنها تمثل الأسس النظرية للمشروع الحضاري الّذي لايمكن لأي جمهور يحترم شخصيته أن يقبله من دون أسس متينة وأصيلة.

خامساً ـ المثل القرآني:

وهو من آليات التأثير الجماهيري في الخطاب الإلهي إذ أن القرآن الكريم كثيراً ما يستخدم المثل لتوصيل الفكرة أوتقريبها للجمهور ويؤكد على أن هذه الأمثال التي يضر بها إنما يضربها لكافة الناس، وعلى النّاس ان يتدبروا فيها ليرقى فهمهم للقضايا، ويرتفع مستواهم العلمي؛ لأن من خصائص المثل القرآني أن الّذي يفهمه يكون من العالمين كما في قوله تعالى:

﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس، ومايعقلها الا العالمون﴾. (العنكبوت:٤٣)

ثم إننا اذا مالاحظنا المثل من جهة اخرى فإننا نراه من الوسائل التربوية المهمة في فهم الفكرة وإيصالها للغير مما تجعل الجمهور أكثر تفاعلاً مع الفكرة وأكثر انسجاماً معها. الأمر الّذي يسهل علينا التعامل مع الجمهور وسرعة النفاذ إليه، والتأثير عليه، وصياغته بالطريقة الّتي تمكنه من حمل رسالة السّماء في طريق

المشروع الاسلامي.

سادساً- الثواب والعقاب:

وهي آلية لابد منها لانجاح المشروع الحضاري لأن النفس الانسانية مجبولة على أن ترتدع عما تردع عنه إذا كان في الاقدام عليه عقوبة أكيدة، وأن تمتثل لما تؤمر به إذا كان في الامتثال به ثواب أكيد. وبدون هاتين الآليتين ربّما لايمتثل الانسان ولايرتدع، وان حصلت لديه القناعة الأكيدة بضرر فعل أو نفع آخر، وان وجد مثل هذا الشيء فهو لدى النزر القليل جداً من العقلاء، اما غالبية الناس في المجتمعات المختلفة فلاينزجرون الا مع الترغيب والترهيب وحيث اننا نتحدث عن آليات التأثير الجماهيري فحديثنا عن الآليات التي تؤثر على المجتمع بشكل عام.

لذلك فإننا إذا لاحظنا آيات الكتاب العزيز فإننا نجدها كثيراً ما تركز على مسألة الوعد والوعيد فتعد المؤمن الصالح بالثواب الأبدي الخالد، كما أنها تعد الكافر الطالح بالعقاب الأبدي الخالد.

وهذه الآلية بالإضافة إلى كونها مؤثرة اجتماعياً وجماهيرياً في مسألة انجاح المشروع الاسلامي، فهي أيضاً عامل مهم في احداث حالة من التوازن النفسي والسلوكي لدى الأفراد، وهو ماعبرت عنه بعض الروايات بالوسطية بين الخوف والرجاء الّتي هي من المواصفات المهمة في الانسان المؤمن الّذي يعيش حالة من السواء السلوكي.

على كل حال من شأن هذه الآلية أن تحدث حالة من الأمن الاجتماعي في المجتمع ينطلق من الرقابة الداخلية الذاتية لدى الأفراد، كما من شأنها تحريك الأفراد للقيام بمسئولياتهم، وأدوارهم الاجتماعية، من خلال الشعور بأهمية تحسين العاقبة بالشكل الّذى تحقق رضا اللّه تعالى الّذي نتيجته الثواب الخالد. وبهذا يتم تأمين جانب كبير من انجاح المشروع الاسلامي في المجتمع.

أقسام آليات التأثير:

هذا الآليات الّتي ذكرناها تمثل مجموعة من آليات التأثير الجماهيري لاجميعها، ويمكننا أن نقسمها الى ثلاثة أقسام.

(١) آليات في الخطاب:

وهي المتمثلة في: القصة ـ المثل ـ الخطاب الجماهيري ـ الثواب والعقاب.

(٢) آليات في النظرية:

وهي المتمثلة في القيم الحضارية بما تشمله من قيم اخلاقية، وقانونية، واجتماعية وغيرها.

(٣) آليات في الواقع:

وهي الّتي تتمثل في حل مشاكل المجتمع وعلاجها.

مواصفات آليات التأثير:

أهم المواصفات الّتي تتصفّ بها آليات التأثير الجماهيري في القرآن الكريم ما يلي:

(١) السهولة:

تمتاز هذه الآليات الّتي ذكرت بالبساطة والسهولة، فهي تخاطب الجماهيربلغة واضحة لاتحتاج الى شيء أكثر من التوجه الى أدوات اللغة العربية والقدرة على فهم نصوصها من خلال معرفة الأساليب العربية الفصيحة.

(٢) المعاصرة:

ويتضح هذا الأمر من خلال النزول التدريجى للقرآن، حيث كانت الآيات الكريمة تلاحق كل مستجد من مستجدات الحياة لتتعامل معه على أساس العقلانية، والواقعية لتضع له الخطوط العريضة والرئيسية، وتحل اشكالياته المختلفة، وتسير به الى شاطيء الأمان لذلک فان القرآن أراد للمجتمع ان يتكامل بشكل طبيعى جداً من خلال سياسة التدرج التي لم تكن لتطرح النظرية بكل أبعادها فجأه، ولم تكن تتأخر فى طرح الفكرة في غير وقتها بل كانت تنتظر كل فرصة تسنح لتطرح بعداً من أبعاد النظرية لتستغلها وتتعامل مع الواقع من خلالها لتؤثر فيه التأثير المناسب لما تتطلبه مقتضيات المرحلة الزمانية والمكانية.

ولعل ظاهره النسخ في بعض الأحكام الشرعية التي كانت موجودة في عصر النزول أصدق شاهد على مسألة المعاصرة القرآنية للواقع، حيث ان النسخ عبارة عن انتهاء أمد الحكم الذي شرع ليناسب مرحلة رمانية معينة، ويشبع حاجاتها، ومتطلباتها وبمجرد ان تنتهي هذه المرحلة، وتأتي مرحلة أخرى فاننا نرى ان الحكم يتغير بتغيرها ليناسب المرحلة الجديدة.

ثم إن القرآن الكريم بالاضافة الى اتصافه بالمعاصره في عصر النص فانه

متصف بهذا كذلك في كل زمان ومكان لكونه الكتاب الذي جاء لهداية البشرية جميعاً، ولما يمتاز به من كونه من عند خالق البشر الذي هو أعلم بما يناسبهم ويصلحهم في كل زمان ومكان، فما جاء فيه من القوانين والسنن الاجتماعية، والتاريخية التي تتحكم في حركة الحياة نراها وجداناً في كل أمة وفي كل مجتمع مهما كان يدّعي لنفسه من التقدم والتطور والحداثة، لأنها قوانين وسنن ثابتة لاتتغير.

فالآليات التي استخدمها القرآن الكريم في مقام التأثير الاجتماعي تتميز بهذه الصفة المهمة التي لها الأثر الكبير في نجاح المشروع الاسلامي.

(٣) الشمولية والموضوعية:

تمتاز آليات التأثير الاجتماعي التي استخدمها القرآن الكريم بميزتين أخريين، وهما الشمولية، والموضوعية، فعند ما يستخدم القرآن الكريم عملية معالجة مشاكل الناس فانه يحاول ان يعالج المشاكل كلها ومن جميع جهاتها، ويطرح حلاً شاملاً كاملاً لها، كما أنه لايعيش المثالية في طريقته لحل المشاكل بل يتعامل معها تعاملاً موضوعياً وواقعياً بغية تحقيق أهدافه التي يصبو اليها في تحقيق عملية التغيير في الأمة ورفع مستواها الفكري والسلوكي.

وهكذا في طرحه للقيم الحضارية، وهكذا في بقية الآليات يحاول ان يكون ما يطرحه يمتاز بهذه المواصفات الأساسية التي تنجح الأطروحة، وتحققها في الواقع العملي.

هذه بعض الآليات التي استخدمها القرآن الكريم يمكن ان يستفاد منها في مقام حمل رسالة الاسلام الى المجتمعات والتأثير فيها.

* * *

الدعاء
في القرآن والسنة

اسلام الكاظمي



الدعاء لغة: السؤال والطلب والاستغاثة والفزع الى المدعو.

والدعاء عبادة بل افضل العبادات ومخّها، وليس شيء افضل عنده سبحانه وتعالى من دعائه والطلب ممّا عنده (عزّوجل). وما احد ابغض اليه ممن يستكبر عن عبادته فلايسأل ماعنده. عن الامام الباقر عليه السلام قال: (انّ الله عزّوجلّ يقول: «**ان الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين**» قال: هو الدعاء، وافضل العبادة الدعاء).[1] وعن سدير قال: قلت لأبي جعفر(عليه السّلام) اي العبادة افضل؟ فقال: (ما من شيء افضل عندالله عزّوجلّ من ان يسأل ويطلب مما عنده، وما احد ابغض الى الله عزّوجلّ ممن يستكبر عن عبادته ولايسأل ماعنده).[2]

والدعاء أحب الاعمال الى الله (عزّوجلّ)، وسلاح الانبياءصلى الله عليه وآله وسلّم وترس المؤمنين، وهو أنفذ من السنان، ومفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح، به تدر الارزاق، ويرد القضاء والبلاء الّذي أبرم ابراماً، وفيه الشفاء من كلّ داء.

الداعي وادب الدعاء

من ادب الدعاء ان يكون الداعي خاشعاً خاضعاً، كما ورد في قوله تعالى: «ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لايحب المعتدين».[3] وان يكون متذللاً خائفاً من عقابه طامعاً في رحمته: «ولاتفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين».[4] «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً».[5]

ومن ادب الدعاء ان لايرفع الداعي

صوته بالدعاء، بل يدعوه سراً وخفية، ولايعجل فيدعوبالشر يحسبه دعاء بالخير: «ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا». (٦) فيتمنى الموت مثلاً لاقل حادثة كما يتمنى طول البقاء ساعة اليسر والهناء.. ومن الآداب عدم اليأس من الاجابة وان يواظب ويلح فيه على اللّه تعالى.

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ان اللّه يحب الملحين في الدعاء). وان يكون مستحضر المشاعر، مخلصاً أشد الاخلاص فيه، متوجهاً اليه تعالى بجميع احاسيسه، روحه وعقله وقلبه وجميع جوارحه. مستعجلاً الكلم الطيب: «فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انّهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين». (٧) «.. اليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه..». (٨)

هذه باقة من الآيات وردت في القرآن الكريم تحدد مسار المسلم حينما يتوجه الى اللّه تعالى في دعائه. وهناك نماذج من ادعية النبي صلى الله عليه واله وسلم والائمة عليهما السّلام منها هذا الدعاء عن الامام زين العابدين عليه السّلام: (.. وسألتك مسألة الحقير الذليل البائس الفقير الخائف المستجير، مع ذلك خيفة وتضرعاً وتعوذاً وتلوذاً، لامستطيلاً بتكبر المتكبرين ولامتعالياً بدالّة المطيعين..). (٩)

الاخلاص في الدعاء

لاستجابة الدعاء شروط منها:

(١) ان يكون خالصاً لايشوبه شرك ولارياء، قال تعالى: «فادعوا اللّه مخلصين له الدّين ولوكره الكافرون». (١٠) «هو الحي لااله إلاّ هو فادعوه مخلصين له الدّين الحمدللّه ربّ العالمين». (١١)

(٢) ان يستجيب الداعي للّه تعالى، يعمل بأوامره ويؤمن به وباجابته: «واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون». (١٢)

(٣) ان لايكون آيساً عند عدم الاستجابة للدعاء، فلعلّ مصلحة الداعي في ذلك. عن الامام علي بن الحسين (عليهما السّلام) يقول في دعائه: (.. ولعلّ الذي ابطأعني هو خيرلي، لعلمك بعاقبة الأمور..).

وهناك امكنة وازمنة هي مظان الاجابة؛ كالمساجد: «قل امر ربّي بالقسط واقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد وادعوه مخلصين له الدّين..». (١٣) وعند الكعبة المشرفة،

وقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقبور أهل بيته عليهما السّلام، وبالخصوص عند رأس الحسين عليه السّلام وتحت قبته، وعند قبر الوالدين، وقبور الصالحين، وبعد كلّ صلاة واذان، وعند زوال وغروب شمس يوم الجمعة، وساعات هبوب الرياح، ونزول المطر.

له دعوة الحق

كما ان الاستعانة والتوكل والنذر من مختصات الربوبية، كذلك الدعاء. فليس احد غيرالله تعالى -مهما كان عظيماً أو حقيراً، كبيراً او صغيراً، ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً- اهلاً لأن يُدعى من دون الله جلّ ثناؤه، وليس باستطاعته كشف الضر عنا ولاتحويلا.

فهذا رسول الله سيّد الأنبياء والمرسلين وخيرالخلق أجمعين، يأمره ربّه ان يقول للنّاس: **«قل اني لا املك لكم ضراً ولارشداً»**. [14] وها هو(صلى الله عليه وآله وسلم) يخاطب اعزالخلق ابنته الطاهرة البتول عليها السّلام قائلاً: (يا فاطمة بنت محمّد اعملي فاني لا املك لك من الله شيئاً).

لقد أمر سبحانه ان ندعوه وحده ووضع لذلك صيغاً لايجوز تخطيها ولا الانحراف عنها. واذا نظرنا الى القرآن الكريم نجد آيات كثيرة تحمل المسلم ان يسلك السبيل المستقيم في دعائه، وان لاينصرف فيه الى غيره جلّت قدرته، فان في ذلک شططاً وسراباً يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً. وهذه الآيات تشير الى هذا المعنى:

هنالک دعا زكريا ربّه قال **«ربّ هب لي من لدنک ذرية طيّبة انک سميع الدعاء»**. [15]

«انّ الّذين تدعون من دون اللّه عباد امثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين». [16] **«والّذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون»**. [17] **«له دعوة الحق والّذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشيء..»**. [18]

«قل ادعوا الّذين زعمتم من دونه فلايملكون كشف الضر عنكم ولاتحويلا». [19] **«أمّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع اللّه قليلاً ماتذكّرون»**. [20] **«.. ذلكم اللّه ربكم له الملک والّذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير»**. [21] **«ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولوسمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولاينبئک مثل خبير»**. [22]

«ومن أضل ممّن يدعوا من دون اللّه من لايستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون». [23]

فبهداهم اقتده

ان جـمـيع الخلق؛ ملائكة وأنبـيـاء وأولياء وصالحين. يتـوجهون في دعـائهم الى اللّه سـبحـانه، يريدون بذلك وجـهـه ويرجون رحمته ويخـافـون عـقـابه. لأنّهم يعلـمـون ان دعـاء غـيـر اللّه هو الخـيـبـة والخسـران، وهو الشـقـاء والـهـلاك، وهو الفرط والشطط، وهو الغفلة واتباع الهوى، وبالتالي فهو الشرك والعياذ باللّه.

وهنـا نورد بعض مـاورد من ادعـيـة الانبيـاء صلوات اللّه عليـهم أجـمـعـين في القـرآن الكـريم لنتـأسى بـهم، وليكونـوا لنا قدوة ونكون لهم اولياء:

﴿فدعـا ربّه اني مـغلوب فـانتـصر﴾. (٢٤)

﴿قل إنّما ادعو ربي ولا أشرك به أحداً﴾. (٢٥)

﴿واعـتـزلكم وماتدعـون من دون اللّه وادعو ربي عسى ان لا أكون بدعاء ربي شقيا﴾. (٢٦)

﴿وأصبرنفسک مع الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحـيـاة الدنيـا، ولاتطع من اغـفـلنا قلبـه عن ذكـرنـا واتّبع هـواه وكـان امـره فرُطا﴾. (٢٧) وسيـأتي مزيد من ادعيتهم صلوات اللّه عليهم.

لاتدعوا غيراللّه

آيات كريمـات كثيـرات تلك التي تنهى عن دعـاء غيـراللّه، وتجعل الدعـاء من دونه دعـاء بـالبـاطل وهو على حد الكفـر باللّه، وتهـدد وتنذر بالعـذاب الاليم والدخـول في النار داخـرين صـاغـرين اذلاء. . ذلك لانّ الدعاء -كـمامرّ- عبادة، وكما ورد عن زين العـابدين عليـه السّلام في دعــــائه -وداع شـهـررمضـان- قـال: (. . فـسميت دعـاءك عبـادة، وتركـه استـكبـاراً، وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين. .) . . ولما كان الدعـاء عـبـادة، فـالعـبـادة لاتـكون إلاّ للّه وحده، فمن دعـا غيراللّه فقد عبده، اذا كان الداعي قاصداً بدعائه المخلوقين معتقداً بأنّ لهم تأثيـراً بهـذا الكون ونسبة الحـوادث الى غيراللّه تعالى بالاستقلال؛ من خلق أو رزق أو مـرض أو شـفـاء أو مـوت أو حـيـاة أو غيرذلک. وأمّا ان كان عقد قلبه على خلاف ظاهرها وكان مراده طلب الرزق والشفاء من اللّه ببركة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاعتقاده انّه ارسل رحــمــة للعــالمين، وأذن اللّه له بالشـفـاعـة، وهكـذا عند ذكـر الائمـة عليهمـا السّلام فليـس ذلک بكـفــر، وان كـان ظـاهر الالفاظ كـفراً لانه لم يرد ظـاهرها ولم يعتـقد به فكإنهـا نقلت عن معـانيها عـرفاً الى مـعان توافق الاعتقادات الصحيحة. ويجب ترك هذه الالفاظ وان لم يُرد بها ظاهرها. (٢٨)

من تلك الآيات قوله تعالى:

﴿ومن يدع مع الله الهاً آخر لابرهان له به فــانما حســابه عند ربّه انه لايفلح الكافرون﴾.[29] **﴿فلاتدع مع الله الهاً آخر فتكون من المعذبين﴾**.[30] **﴿ذلك بان الله هوالحق وان مايدعون من دونه هوالباطل وانّ الله هو العلي الكبير﴾**.[31]

عن الامام الصادق عليه السّلام قال:

(ان الله تعالى يقول: وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لاقطعن أمل كلّ مؤمل من النّاس في غيري باليأس، ولاكسونه ثوب المذلة عند النّاس، ولأُنَحِيَّنَهُ من قربي ولابعدنّه من وصلي. ايأمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي؟! ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلّقة، وبابي مفتوح لمن دعاني؟! فمن ذا الذي امّلني لنوائبه فقطعته دونها. ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟. جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي، وملأت سماواتي ممن لايملّ من تسبيحي وامرتهم ان لايغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي! الم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي انّه لايملك كشفها احد غيري الاّ من بعد اذني؟ فما لي اراه لاهياً عني؟! اعطيته بجودي مالم يسألني ثم انتزعته عنه فلم يسألني رده وسأل غيري! افتراني ابدأ بالعطاء قبل المسألة ثم أسأل فلا اجيب سائلي؟! أبخيل انا فيبخلني عبدي؟ او ليس الجود والكرم لي؟ أوليس العفو والرحمة بيدي؟ او لست انا محل الامال فمن يقطعها دوني؟ افلايخشى المؤمّلون ان يؤمّلوا غيري؟ فلو ان أهل سماواتي وأهل ارضي املّوا جميعاً، ثمّ اعطيت كلّ واحد منهم ما امّل الجميع ماانتقص من ملكي عضو ذرة، وكيف ينقص ملك انا قيّمه؟! فيابؤساً للقانطين من رحمتي ويابؤساً لمن عصاني ولم يراقبني!!).[32]

لاتكونوا من هؤلاء

ومن الناس من اذا اصابتهم مصيبة او لحقهم ضرّ دعوا الله ليكشف عنهم مابهم وينجيهم مماهم فيه من ضرّ وشدة، فاذاما كشف عنهم ذلك الضرّ وانجاهم من تلك الشدائد وخولّهم نعمته اذاهم يبغون في الأرض بغير الحق، ويمرون وكأنّهم لم يدعوه الى ضرّ مسهم، وبعضهم قد تصل به الصلافة والوقاحة الى الشرك فيعزو الرحمة التي اصابته الى الأنداد دون الله بالاستقلال. ولافرق ان تكون هذه الانداد اصناماً، أو غيرها تعالى مخبراً عن هؤلاء:

﴿واذا مس الانسان الضرّ دعانا لجنبه او قاعداً أو قائماً فلمّا كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن

لم يدعنا الى ضرّ مسه كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ . [٣٣] ﴿واذا مس النّاس ضرّ دعوا ربّهم منيبين اليه ثم اذا اذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربّهم يشركون﴾ . [٣٤] ﴿واذا مس الانسان ضرّ دعا ربّه منيباً اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو اليه من قبل وجعل للّه انداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً انّك من أصحاب النّار﴾ . [٣٥]

الدعاء في القرآن الكريم :

في القرآن الكريم ادعية مختلفة المطالب تذكر نماذج منها لتكون للمؤمنين المثل الاعلى فيدعونه بها، فانها الكلم الطيّب الذي يصعد اليه، والمختاره من بين الادعية، ولانها ادعية المخلصين من عباد اللّه، فهي عالية المعاني، موجزة الالفاظ، سهلة الحفظ، فصيحة العبارة، بليغة الدلالة، هي كلمات اللّه وآياته، وفيها اسماؤه الحسنى، والدعوات الفضلى، فادعوه بها :

١ـ في طلب الهداية والثبات على الدّين :

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ . [٣٦] ﴿ربّنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب﴾ . [٣٧] ﴿ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ . [٣٨]

٢ـ في طلب الرحمة والمغفرة :

﴿ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً﴾ . [٣٩] ﴿وقل ربّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ . [٤٠] ﴿ربّنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا ربّنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا ربّنا ولاتحمّلنا مالاطاقة لنا به واعف عنا واغفرلنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ . [٤١]

٣ـ في الدعاء للابوين والابناء والأخوان والمؤمنين والمؤمنات :

﴿ربّنا اغفرلي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ . [٤٢] ﴿ . . وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا﴾ . [٤٣] ﴿ربّ اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربّنا وتقبّل دعاء﴾ . [٤٤]

﴿ . . ربّنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما﴾ . [٤٥] ﴿قال ربّي اغفرلي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت ارحم الراحمين﴾ . [٤٦] ﴿ربّ اغفرلي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾ . [٤٧]

٤ـ في الاستعاذة من الشياطين والاشرار وسيئات الاعمال :

﴿وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك ربّ ان يحضرون﴾. [٤٨]

﴿قل أعوذ برب الفلق. من شرّ ماخلق. ومن شرّ غاسق اذا وقب. ومن شرّ النفاثات في العقد. ومن شرّ حاسد اذا حسد﴾. [٤٩]

٥ـ في طلب النصر على الاعداء والنجاة من الظالمين والكافرين:

﴿.. ربّنا افرغ علينا صبراً وثبّت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾. [٥٠] ﴿.. ربّ انصرني على القوم المفسدين﴾. [٥١] ﴿.. ربّنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظّالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾. [٥٢]

٦ـ في الاستعاذة من نارالله وعذابه:

﴿.. ربّنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار﴾. [٥٣] ﴿.. ربّنا اننا آمنا فاغفرلنا ذنوبنا وقنا عذاب النّار﴾. [٥٤] ﴿.. ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم انّ عذابها كان غراما﴾. [٥٥] ﴿ربّنا اكشف عنا العذاب إنّا مؤمنون﴾. [٥٦]

نماذج من دعاء المعصومين عليهم السّلام:

بعد عرض نماذج من ادعية القرآن الكريم، نورد بعض الادعية عن أهل البيت عليهم الصلاة والسّلام التي لاتحيد عن التوجه اليه سبحانه وينهى بعضها عن التّوجه الى غيره، والتي تؤكّد بأن من يدعو غيره تكون الخيبة والخسران والحرمان حظه، والذل والفقر نصيبه، فلامفرج لهم سواه، ولامفزع في الملمات غيره، ولايستغاث الا به، اليه الملجأ، ومنه العون، بيده الخير، وهو المؤمل والمرتجى، ولاحول ولاقوة الأبه.

ان النواهي تلك وان وردت على شكل دعاء فانّها دروس وتعليم وتوجيه. فانّهم عليهم الصلاة والسّلام لم يَدَعوا طريقاً من طرق الهداية للنّاس الا طرقوها، ولاسبيلا الا سلكوها، ولا باباً الا فتحوها. فاستعملوا كلّ اسلوب ناجع في ايصال تعاليم الّدين الحنيف الينا، وفي مقدمتها وعلى رأسها (التوحيد الخالص). فمرة يبينون تعاليم الاسلام واحكامه في حديث ورواية، وتارة في دعاء، واخرى في الخطب، ورابعة بالجهاد، وبالصلح حينا.

ولما كانت طاعتهم عليهم السّلام واجبة بنص القرآن الكريم: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرّسول واولي الأمر منكم﴾. [٥٧] والتمسك بهم حتم لقول النبي صلى عليه وآله وسلم: (اني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابدا). [٥٨] فحديثهم مقبول، وسلوكهم متبع، وقولهم مسموع، ودعاؤهم حجة:

عن الامام علي عليه السّلام في دعاء كميل قال: (الهي من لي غيرك اسأله كشف ضري والنظر في امري).

عن الامام سيّد الشهداء الحسين بن علي عليهما السّلام من دعائه يوم عرفة: (.. اللّهم انک تجيب دعوة المضطر اذا دعاك، وتكشف السوء، وتغيث المكروب، وتشفي السقيم، وتغني الفقير، وتجبر الكسير، وترحم الصغير، وتعين الكبير، وليس دونک ظهير، ولافوقک قدير. اللّهم أنت أقرب مَن دُعي، واسرع من اجاب، واكرم من عفا، واوسع من اعطى، واسمع من سئل، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، ليس كمثلک مسؤول ولاسواك مأمول..).

عن الامام زين العابدين عليه السّلام من دعاء له في جوف اللّيل: (.. ولاتُختزل حوائجهم دونک ولايقضيها احد غيرك).

وعنه عليه السّلام في الصحيفة السجادية: (وخاب الوافدون على غيرك، وخسر المتعرضون الا لک، وضاع الملمون الا بک، واجدب المنتجعون الا من انتجع فضلک..).

وفيها من دعاء الصباح: (.. ليس لنا من الأمر الا ما قضيت، ولا من الخير الا ما اعطيت). وفيها من دعائه عليه السّلام في المهمات: (يامن تُحل به عُقد المكاره، ويا من يُفثأ به حد الشدائد، ويا من يُلتمس منه المخرج الى رَوح الفرج، ذلت لقدرتک الصعاب، وتسببت بلطفک الاسباب، وجرى بقدرتک القضاء، ومضت على ارادتک الاشياء، فهي بمشيئتک دون قولک مؤتمره، وبارادتک دون نهيک منزجرة، انت المدعو للمهمات، وانت المفزع في الملمات، لايندفع منها الا مادفعت، ولاينكشف منها الا ماكشفت.. فلامصدر لما اوردت، ولاصارف لما وجهت، ولافاتح لما اغلقت، ولامغلق لما فتحتَ، ولاميّسر لما عسرتَ، ولاناصر لمن خذلتَ..).

وفيها من دعاء في طلب الحوائج: (.. فمن حاول سدّ خلّته من عندك، ورام صرف الفقر عن نفسه بک، فقد طلب حاجته في مظانّها، وأتى طلبته من وجهها. ومن توجه بحاجته الى أحد من خلقک، أو جعله سبب نجحها دونک فقد تعرض للحرمان، واستحق من عندك فوت الاحسان.. وسولت لي نفسي رفعها الى من يرفع حوائجه اليک، ولايستغني في طلباته عنک وهي زلة من زلل الخاطئين، وعثرة من عثرات المذنبين. ثم انتبهتُ بتذكيرك لي من غفلتي، ونهضتُ بتوفيقک

من زلتي، ورجعتُ ونكصتُ بتسديدك عن عثرتي، وقلت: سبحان ربي! كيف يسأل محتاج محتاجاً؟! وأنى يرغب معدوم الى معدوم؟! فقصدتك يا الهي بالرغبة، واوفدتُ عليك رجائي بالثقة بك..).

وفيها من دعاء الالحاح: (.. فاليك افر، ومنك اخاف، وبك استغيث، واياك ارجو، ولك ادعو، واليك الجأ، وبك اثق، وايّاك استعين، وبك أومن، وعليك اتوكل..).

وفيها من دعائه في مكارم الاخلاق: (.. اللّهم اجعلني اصول بك عند الضرورة، واسألك عند الحاجة، واتضرّع اليك عند المسكنة، ولاتفتنّي بالاستعانة بغيرك اذا اضطررت، ولابالخضوع لسؤال غيرك اذا افتقرت، ولا بالتضرّع الى من دونك اذا رهبت، فاستحق بذلك خذلانك ومنعك واعراضك، يا ارحم الراحمين..).

وعن الامام محمّد الباقر عليه السّلام من دعاء له: (بسم الله، اللّهم اني أسلمت نفسي اليك، ووجهت وجهي اليك، وفوضت امري اليك، والجأتُ ظهري اليك، وتوكلّتُ عليك، رهبة منك ورغبة اليك، لاملجأ ولامنجى منك الا اليك..).

كما ورد عن الامام جعفر الصادق عليه السّلام من دعاء له في القنوت: (.. وانت الله صريخ المستصرخين، وانت الله غياث المستغيثين، وانت الله المفرج عن المكروبين، وانت الله المروح عن المغمومين، وانت الله مجيب دعوة المضطرين.. وانت الله كاشف السوء، وانت الله بك تنزل كلّ حاجة يا الله). [٥٩]

الهوامش

(١) الكافي
(٢) م. س
(٣) الاعراف: ٥٥
(٤) الاعراف: ٥٦
(٥) السجدة: ١٦
(٦) الاسراء: ١١
(٧) الانبياء: ٩٠
(٨) فاطر: ١٠
(٩) الصحيفة السجادية
(١٠) المؤمن: ١٤
(١١) المؤمن: ٦٥
(١٢) البقرة: ١٨٦
(١٣) الاعراف: ٢٩
(١٤) الجن: ٢١
(١٥) آل عمران: ٣٨
(١٦) الاعراف: ١٩٤
(١٧) الاعراف: ١٩٧

(١٨) الرعد : ١٤
(١٩) الاسراء: ٥٦
(٢٠) النمل : ٦٢
(٢١) فاطر: ١٣
(٢٢) فاطر: ١٤
(٢٣) الاحقاف : ٥
(٢٤) القمر : ١٠
(٢٥) الجن : ٢٠
(٢٦) مريم: ٤٨
(٢٧) الكهف: ٢٨
(٢٨) احياء الشريعة في مذهب الشيعة ١ : ٩١
(٢٩) المؤمنون : ١١٧
(٣٠) الشعراء: ٢١٣
(٣١) الحج: ٦٢
(٣٢) وسائل الشيعة
(٣٣) يونس: ١٢
(٣٤) الروم: ٣٣
(٣٥) الزمر: ٨
(٣٦) الفاتحة : ٥
(٣٧) آل عمران : ٨
(٣٨) الشعراء: ٨٢ـ ٨٥
(٣٩) الكهف : ١٠
(٤٠) المؤمنون: ١١٨
(٤١) البقرة: ٢٨٦
(٤٢) ابراهيم: ٤١
(٤٣) الاسراء: ٢٤
(٤٤) ابراهيم: ٤٠
(٤٥) الفرقان: ٧٤
(٤٦) الاعراف: ١٥١
(٤٧) نوح: ٢٨
(٤٨) المؤمنون : ٩٧ـ ٩٨
(٤٩) الفلق: ١ ـ ٥
(٥٠) البقرة: ٢٥٠
(٥١) العنكبوت: ٣٠
(٥٢) يونس: ٨٥ ـ ٨٦
(٥٣) البقرة: ٢٠١
(٥٤) آل عمران: ١٦
(٥٥) الفرقان: ٦٥
(٥٦) الدخان: ١٢
(٥٧) النساء: ٥٩
(٥٨) عن حديث الثقلين تراجع كتب الحديث.
(٥٩) البحار

* * *

معجم الدراسات القرآنيّة

عرض وتقديم: جلال الأنصاري



المؤلّف: عبد الجبار الرفاعي
الناشر: مركز الثقافة والمعارف القرآنية ـ قم
الصفحات: ٤٩٣ من القطع الكبير
السنة: ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م

●●●

صدر هنا، في قم المشرّفة، الجزء الأول من «معجم الدراسات القرآنيّة»، للاستاذ عبد الجبار الرفاعي، وهو ــ على ما يبدو ـ أوسع الأعمال الببليوغرافيّة الخاصة بالدراسات القرآنيّة.

وقد شملت عملية المسح والاستقراء كل ما وقع تحت اليد، مما كُتب حول القرآن، من الكتب، والاطروحات الجامعية، وبحوث المؤتمرات، والدراسات والمقالات المنشورة في الدوريات. حيث تجاوز عدد عناوين المقالات فقط (٤٠٠٠) عنوان.



وفي معرض توضيحه، للهدف المتوخّى من اعداد هذا المعجم الضخم (١٢ مجلداً)، أشار المؤلف الى ذلك بقوله: «استهدفت عمليّة المسح توثيق كل ما

يحتاجه الباحث ويؤمّن له رؤية مرجعية علمية شاملة، ويمكّنه من التعرّف على المواقف المتنوعة، في علوم القرآن، ولذلك لم نستبعد بعض الكتابات التي تناولت علوم القرآن، من منطلقات سلبيّة أحياناً، لأن هدف هذا المعجم ليس تقويم ومحاكمة المصادر» ص:٢٥.

ولأهمية الانجاز، وما اتسم به من شمولية وتنظيم يعكس مدى الجهد المبذول، استقبلت الأوساط المعنيّة هذا العمل الكبير باهتمام وتقدير. ولهذا آثرنا أن نسلط عليه الأضواء.

●ببليوغرافيّات القرآن:

في البدء، نجد لزاماً الاعتراف بأن البحث والدراسة في القرآن الكريم وعلومه تُعد من الثغرات الأساسية في المعاهد العلمية، وقد انعكس هذا الأمر بشكل جلي، على واقع الأعمال الببليوغرافية الخاصة بالقرآن الكريم، وهي أعمال قليلة جداً قياساً الى نظيراتها في جوانب المعرفة الأخرى. حتى ان ببليوغرافيات القرآن الكريم تُعد على أصابع اليد الواحدة!.

صحيح أن التأليف المستقل في ببليوغرافيات القرآن لم يظهر إلاّ أخيراً، كما يقول المؤلف، حيث دأب القدماء على ذكر المؤلفات القرآنية بضمن الفهرستات العامة،فمثلاً أورد ابن النديم في كتابه الفهرست الكتب المصنفة في القرآن، في الفن الثالث من المقالة الأولى، كما أوردها مصنفو كتب التراجم والطبقات في عناوين مؤلفات المترجم لهم، وبالأخص فيما صُنّف في طبقات المفسرين. ص: ٢١

ولكن الصحيح أيضاً ان الأعمال الببليوغرافية التي نُشرت، في العصر الراهن، لا تتناسب والكم الهائل من الانتاج الفكري حول القرآن. وقد استعرض المؤلف في مقدمة المعجم أهم هذه الأعمال، ومن بين أبرزها:

- معجم الدراسات القرآنية؛ لابتسام مرهون الصفّار - الموصل ١٩٨٤م.

- معجم مصنفات القرآن الكريم؛ للدكتور علي شواخ اسحق - الرياض ١٤٠٣هـ.

- قوائم ببليوغرافية أعدها كل من: محيي الدين عطية، محمد علي الحائري الخرّم آبادي، محمد فرقاني، أحمد الحسيني، عصمت بينارق وخالد أرن، عامر الحلو، صديقة سلطاني فر ومريم حكيم سيما، عبد الجبار الرفاعي.

وهذه القوائم يطغى عليها الخصوصية في تناول جوانب معينة، ونشر معظمها في

المجلات الدورية، وكان لـ «رسالة القرآن» نصيب وافر ممّا نشر على صفحاتها من قوائم ببليوغرافية،خاصةفي أعدادها الأولى.

ولما كانت هذه الأعمال قليلة جداً فضلاً عن أنها غير جامعة بالقدر المناسب لما كُتب حول القرآن، إذ لم يشتمل أوسع هذه الأعمال وهو (معجم مصنفات القرآن الكريم لعلي شواخ اسحق) إلاّ على (٣٢٨١) عنواناً من المؤلفات القرآنية. لذا وجد الباحث عبد الجبار الرفاعي من الضروري ان يعكف على اعداد معجم بما كُتب عن القرآن الكريم، مستوعب لما وقع تحت يده من ذلك باللغة العربية وغيرها، ومصنف تصنيفاً موضوعياً مناسباً، لكي يكون مرجعاً للباحثين والدارسين في حقل الدراسات القرآنية . ص: ٢٤

●●●

● المعجم: نظرة سريعة:

تم ترتيب هذا المعجم تبعاً لقواعد محددة، ومن أهمها:

١ ــ يتكون المعجم من قسمين أساسيين هما:

القسم الأول: قسم المقالات والبحوث

القسم الثاني: قسم الكتب

٢ ـ تم تصنيف العناوين، في كل قسم، على أساس الموضوعات، فجاءت العناوين الخاصة بالاعجاز تحت رأس موضوع (اعجاز القرآن)، وما هو خاص بالقراءات تحت رأس موضوع (القراءات)، .. وهكذا بقيّة العناوين.

٣ ــ اعتمدت المداخل على عناوين المقالات والبحوث والكتب.

٤ ـ رُتّبت المداخل في المعجم جميعها، على أُساس الترتيب الهجائي التام، واعتبار الوحدة في الترتيب هي الكلمة أي على أساس الكلمة الحرف معاً، مع ملاحظة ان الواو قدمت على الهاء بحسب البرنامج المتوفر في الحاسب الآلي.

٥ ـ ذُكرت كلمة محقق أو مترجم بين هلالين بعد المحقق أو المترجم.

٦ ــ زُوّد المعجم بكشافات عديدة كالتالي:

أ ـ كشاف رؤوس الموضوعات التي تم تصنيف العناوين تحتها.

ب ـ كشاف عام للمؤلفين والمشاركين في كل قسم ملحق بالقسم ذاته.

ج ـ كشاف عام للعناوين في كل قسم، ملحق بالقسم نفسه.

د ـ لائحة الدوريات، ملحقة في آخر القسم الأول (المقالات).

هـ ـ لائحة المؤتمرات والندوات، ملحقة في آخر القسم الأول أيضاً.

و ـ لائحة الناشرين، ملحقة في آخر القسم الثاني (الكتب).

ز ـ لائحة المراجع، ملحقة في آخر القسم الثاني من المعجم.

● ترتيب القسم الأول (المقالات والبحوث)

أ: تم استقراء البحوث والدراسات، والمقالات، في المؤتمرات، والندوات، والدوريات الشهرية والفصلية، والنصف سنوية، والحولية.

فيما أُستثنيت مقالات الصحف والمجلات الاسبوعية، لأن المادة الصحفية، ذات سمات آنية، لا تعطيها طبيعة البحث العلمي في الغالب، ورغم هذا يخرج المؤلف عن هذه القاعدة أحياناً، حيث تم مسح بعض المجلات الاسبوعية الرزينة كمجلة الرسالة التي كان يصدرها في القاهرة أحمد حسن الزيّات

ب ـ البيانات الخاصة بالمقالات ذكرت كما يلي: الرقم المتسلسل، عنوان البحث أو المقال، الكاتب، اسم الدورية، سنه الصدور أو رقم المجلد، رقم العدد، تاريخ الصدور، الصفحات، وإذا كانت المقالة عبارة عن مراجعة لكتاب، تُذكر البيانات السابقة مع ذكر اسم كاتب المقالة (المُراجِع) في آخر البيانات بين هلالين.

● ترتيب القسم الثاني (الكتب والاطروحات)

بخصوص الكتب تم ذكر كل كتاب (إذا ما توفرت كافة البيانات المتعلقة به) كما يلي: الرقم المتسلسل، عنوان الكتاب، لغة الكتاب (ان كان بغير العربية). اسم المؤلف، المحقق أو المترجم، وفي حالة كون الكتاب مخطوطةً ذكر فيها: اسم المكتبة، رقم المخطوط فيها، عدد أوراقه، سنة نسخه. أما حول الطبعات فقد ذكر فيها: مكان الطبع، اسم الناشر، رقم الطبعة، التاريخ، عدد الصفحات، عدد الأجزاء والمجلدات، والسلسلة التي صدر بضمنها الكتاب ونظراً لتعدد عناوين بعض الكتب فقد اتبع المؤلف الاحالة من العنوان غير المستخدم الى العنوان المستخدم.

اما الاطروحات فقد رتبَت هجائياً بضمن الكتب، مع ايضاح المعلومات الخاصة بها، وكما يلي: الرقم المتسلسل، عنوان الاطروحة، اسم المؤلف، المكان، الجامعة والكلية، السنة، عدد الصفحات، الدرجه العلمية. وفي حالة نشر الاطروحة

تُعتمد المعلومات عنها ككتاب أيضاً.

● كيف تستعمل المعجم؟

أوضح المؤلف مفاتيح الدخول الى معجمه الكبير وذلك بالطرق التالية:

١ ـ إذا كنت تريد معرفة ما كُتب في موضوع معيّن؛ مثل: آيات الأحكام، فيمكنك مراجعة كشاف رؤوس الموضوعات في بداية القسم الأول والثاني من المعجم، حيث ستجد تحته الأرقام المسلسلة لكل العناوين المكتوبة في الموضوع المطلوب.

٢ ـ إذا كنت تريد معرفة ما كُتب في عنوان محدد؛ مثل التفسير في عصر الصحابة والتابعين، فيمكنك مراجعة الكشاف العام للعناوين، في آخر كل قسم من المعجم، فستجد الأرقام المسلسلة للعنوان المطلوب.

٣ ـ إذا كنت تريد معرفة ما كتبه أحد المؤلفين أو شارك في تأليفه فيمكنك مراجعة الكشاف العام للمؤلفين والمشاركين، في آخر كل قسم من المعجم، فستجد الأرقام المسلسلة لكل مؤلف.

٤ ـ إذا كنت تريد معرفة محل صدور الدورية وما نُشر فيها من مقالات وبحوث قرآنية، فيمكنك مراجعة لائحة الدوريات الملحقة في نهاية القسم الأول من المعجم فستجد الأرقام المسلسلة لورودها في المعجم.

٥ ـ إذا كنت تريد معرفة مكان وتاريخ انعقاد المؤتمر أو الندوة وما قُدّم فيهما من بحوث قرآنية فيمكنك مراجعة لائحة المؤتمرات والندوات الملحقة في نهاية القسم الأول من المعجم فستجد الأرقام المسلسلة لورودها في المعجم.

● كشّاف رؤوس الموضوعات:

تمكن الاستاذ الرفاعي من تغطية معظم الموضوعات القرآنية، إن لم نقل كلها تقريباً وقد وضع كشافاً عن رؤوس الموضوعات في مقدمة المجلد الأول.

والموضوعات التي رُتبت هجائياً هي:

(١) آل البيت في القرآن. (٢) آيات الأحكام. (٣) الأخلاق في القرآن. (٤) أسباب النزول. (٥) أسماء القرآن. (٦) اصول الفقه في القرآن. (٧) اعجاز القرآن. (٨) اعراب القرآن. (٩) الاعلام في القرآن. (١٠) الاقتصاد في القرآن. (١١) ألفاظ القرآن. (١٢) أمثال القرآن. (١٣) الانسان في القرآن. (١٤) ببليوغرافيات قرآنية. (١٥) البسملة. (١٦) التأويل. (١٧) التاريخ في القرآن. (١٨) تاريخ القرآن. (١٩) التجويد. (٢٠) التربية القرآنية. (٢١) ترجمات القرآن.

(٢٢) التعليم في القرآن. (٢٣) التفسير. (٢٤) التفسير الموضوعي. (٢٥) تلاوة القرآن. (٢٦) جمع وتدوين القرآن. (٢٧) الجهاد في القرآن. (٢٨) حفاظ القرآن. (٢٩) حقوق الانسان في القرآن. (٣٠) الحوار في القرآن. (٣١) دراسات قرآنية. (٣٢) الدعاء في القرآن. (٣٣) الدعوة في القرآن. (٣٤) دفع المطاعن عن القرآن. (٣٥) دوائر المعارف القرآنية. (٣٦) الدين في القرآن. (٣٧) الرسم القرآني. (٣٨) السياسة في القرآن. (٣٩) السيرة الشريفة في القرآن. (٤٠) طباعة القرآن. (٤١) العقيدة في القرآن. (٤٢) علوم القرآن. (٤٣) غريب القرآن. (٤٤) فضائل القرآن. (٤٥) الفلسفة القرآنية. (٤٦) الفن في القرآن. (٤٧) القانون في القرآن. (٤٨) القرآن والأدب العربي. (٤٩) القرآن والأدب الفارسي والعالمي. (٥٠) القرآن والسنة الشريفة (وبهذه الفقرة ينتهي المجلد الأول)، (٥١) القرآن والكتب السماوية. (٥٢) القراءات. (٥٣) القسَم في القرآن. (٥٤) قصص القرآن. (٥٥) كتاتيب القرآن. (٥٦) لغة القرآن. (٥٧) مجاز القرآن. (٥٨) المجتمع في القرآن. (٥٩) المحكم والمتشابه. (٦٠) مخطوطات قرآنية. (٦١) المرأة والاسرة في القرآن. (٦٢) المستشرقون والقرآن. (٦٣) المصاحف. (٦٤) معاجم وفهارس القرآن. (٦٥) المفسرون. (٦٦) المكي والمدني. (٦٧) مؤتمرات وندوات حول القرآن. (٦٨) مؤسسات قرآنية. (٦٩) الناسخ والمنسوخ. (٧٠) نزول القرآن. (٧١) الوحي. (٧٢) اليهود في القرآن.

ورغم تقديرنا للجهد الكبير الذي بذله الاستاذ عبد الجبار الرفاعي، في اعداد هذا المعجم الضخم، ورغم اتفاقنا معه حول عدم امكانية استيعاب العمل الببليوغرافي القرآني كل ما كُتب، حول القرآن الكريم، في جميع العصور، ولدى كل الشعوب، وفي كل اللغات.. إلاّ اننا افتقدنا غياب رؤوس موضوعات مهمة، دون أن يقدّم المؤلف سبباً لذلك، كأن تكون الكتابات نادرة فيها مثلاً، أو لعلها غابت عن ذهنه، في غمرة اعداده وانغماسه في حوالي عشرين ألف عنواناً..

ومن بين الموضوعات التي لم يتطرق اليها المعجم: القرآن والامة، القرآن والأنبياء، القرآن والجغرافيا، القرآن والجماعات، القرآن والجن، القرآن والحضارة، القرآن والزمن، القرآن والسنن، القرآن والعالم، القرآن وعلم النفس، القرآن والفلك، القرآن والقيامة، القرآن والكون، المصطلح القرآني،

وعلى سبيل المثال، لا الحصر، نورد هنا بعض النماذج لما فات المؤلف ذكره من دراسات وأبحاث في مجال المقالات لا الكتب، ضمن رؤوس الموضوعات التالية:

أولاً: القرآن والأمة:

ـ البغدادي، أحمد: المضمون السياسي لمفهوم الأمة في القرآن مجلة العلوم الاجتماعية (الكويت) س١٠: ع٢ (٦/ ١٩٨٢م) ص ـ ٢٢ (ملخص باللغة الانجليزية ص٣٤٤).

ـ الخالصي، جواد: مفهوم الأمة في القرآن الكريم، مجلة المنطلق (لبنان): ع ٢٦ (صفر ١٤٠٥هـ ـ تشرين الثاني ١٩٨٤) ص ٩ ـ ٢٣.

ثانياً: القرآن وعلم النفس:

ـ تركي، مصطفى: القرآن وعلم النفس. المجلة العربية للعلوم الانسانية (الكويت) س٢. ع٧ (صيف ١٩٨٢م) ص٢١٦ ـ ٢٢٥.

ـ القاسمي، راشد: القرآن وعلم النفس للدكتور محمد مصطفى زيدان (تعريف بكتاب). الهداية (البحرين) س٥: ع٤٨ (٢ / ١٤٠٢هـ) ص٥٢ ـ ٥٤.

ثالثاً: القرآن والكون:

ـ الشعراوي، محمد متولي: القرآن وقوانين الكون. لواء الاسلام. س ٥٨: ع ٢٥١ (١، ٢/ ١٤٠٣هـ = ١٢،١١/ ١٩٨٢م) ص ٧ ـ ١٥.

ـ غنيم، كارم السيد: التحقيق العلمي للآيات الكونيّة في القرآن، أهميته ومنهاجه. الفكر الاسلامي. س١٢: ع٩ (١١ / ١٤٠٢هـ = ٩ / ١٩٨٣م) ص٦٤ ـ ٦٩.

ـ الهواري، عبد الستار: الآيات الكونيّة مفتاح سائر الكنوز العلميّة. الأزهر. س ٥٤: ع١١ (١١/ ١٤٠٢هـ) ص١٥٠٨ ـ ١٥١٥.

وللمزيد من الاطلاع على نماذج لرؤوس الموضوعات الباقية (والتي لم يغطّها المعجم) تُراجع القائمة الببليوغرافية الموسومة بـ(دليل الباحث في الدراسات القرآنية) المنشورة في مجلة المسلم المعاصر. ص١٠: ع٣٩ (٩،٨،٧/ ١٤٠٤هـ) ص١٧١ ـ ١٩٨).

كما ان المعجم تناول موضوع (القرآن واليهود) في حين أغفل صنوه (القرآن والنصارى) وكان بامكان المؤلف أن يجمعهما وغيرهما ضمن موضوع: القرآن وأهل الذمة مثلاً..

على ان هذه الملاحظة لا تقدح أبداً بهذا الانجاز الكبير، بقدر ما نود تفادي ما يمكن

تفاديه، قبل اتمام طبع كل مجلدات المعجم. وقبل هذا وذاك نتمنى على الاستاذ الرفاعي، أن يواصل جهوده المشكورة والمأجورة، ان شاء الله، لتقديم خدماته الجليلة الى المكتبة البيليوغرافية، والتي يسدي بها خدمة جليلة، لا يعرف قيمتها إلاّ من كابد هذا السبيل، ومن ذاق معاناة البحث والتنقيب في بطون الكتب، والوقوف على أبواب المكتبات العامة والخاصة.

ثمّة ملاحظة منهجية كنّا نود أن يراعيها المؤلف، وهي تحديد الفترة التي يرصدها المعجم، وحبّذا لو أشار الى عام ١٤١٣هـ (سنه المباشرة في طبع مجلدات المعجم كتاريخ محدّد للرصد الببليوغرافي) خاصة وان المعجم قد ضم بين دفتيه اشارات الى دراسات وبحوث كتبت في هذا العام... ويشار الى ذلك تحت العنوان الرئيسي بعنوان فرعي؛ معجم الدراسات القرآنية: دليل ببليوغرافي للباحثين بما كتب في الشؤون القرآنية حتى عام ١٤١٣هـ.

وثمّة اقتراح نطرحه أمام المؤلف، أو نذكّره به ولعله لم يغب عن ذهنه وهو الخبير الضليع ــ حول ما يستجد من دراسات وأبحاث، على هذا الصعيد، والمرجو مواكبتها بالدقة التي اتبعها في معجمه، ومن ثم إصداره ملحقاً لمعجمه، يضم بين دفتيه الجديد من ثمرات الأفكار والمطابع.. فضلاً عن شموله على ما فاته من موضوعات..

ختاماً ليس بوسعنا إلاّ ان نهنيء الإستاذ الرفاعي ومركز الثقافة والمعارف القرآنية على هذا المشروع الرائد فجزى الله العاملين خير الجزاء..

* * *

مدير دارالقرآن الكريم الأستاذ محمد تقي فرجي

نسعى لتوجيه البحث القرآني نحو قضايا المجتمع ومشاكله



تستعد دار القرآن الكريم لاقامة مؤتمرها السنوي الخامس حول علوم القرآن ومفاهيمه. وبهذه المناسبة انتهزت «رسالة القرآن» الفرصة لتوجه أسئلتها الى الاستاذ محمد تقي فرجي مدير الدار، للاستفسار منه عن هذا الموضوع، والتعرف على نشاطات دار القرآن الكريم، داخل وخارج الجمهورية الاسلامية، وما قدمته على طريق خدمة كتاب الله العزيز. وفيما يلي نص اللقاء:

● الأخ المدير العام... حبذا لو تسلطون الأضواء على ظروف تأسيس دار القرآن الكريم وأهم ما قامت به من نشاطات.

أتقدم أولاً بالشكر والتقدير للاخوة العاملين في تحرير «رسالة القرآن» الغراء، وجميع الاخوة العاملين في مرافقها الأخرى.

ولشدما يسعدني، ان أرى العدد الحادي عشر من مجلتكم الرزينة، وهي تفتح طريقها الى القّراء، في كل مكان، وتجذب اليها المشتركين وتعمل باستمرار، على نشر الثقافة القرآنية، بحيث تكون محلاً لاهتمام العلماء والمتخصصين.

وبعد:

فإن دار القرآن الكريم تأسست عام ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م انطلاقاً من توجيهات المرجع الديني وزعيم الحوزة العلمية آية الله العظمى السيد الگلپايگاني دام ظله، وقد اضطلع المرحوم حجة الاسلام والمسلمين السيد مهدي الموسوي ـــ نجل المرجع ـ

بتأسيسها، حيث باشرت العمل على جملة من المحاور الأساسيّة منها:

● تشكيل دروس تعليم القرآن.

● تجميع نسخ القرآن الكريم الخطية، ونماذج نادرة من النسخ المطبوعة.

● اعداد معجم مخطوطات الشيعة حول القرآن [وقد تم اعداده بالفعل].

● اعداد معجم مصنّفات الشيعة حول القرآن [وقد تم اعداده بالفعل].

● انشاء مكتبة تخصصية تضم الكتب المؤلفة في شؤون القرآن الكريم وعلومه.

● انشاء متحف يضم نسخ القرآن الخطية ونماذج من المطبوعة ونسخاً من ترجمات الكتاب العزيز الى اللغات المختلفة.

● اقامة مؤتمر سنوي حول علوم القرآن ومفاهيمه

● طبع الكتب القرآنية ونشرها.

● نقد وتقييم الترجمات الفارسية للقرآن الكريم، واشعار المترجم أو الناشر لتلافي الاخطاء في الترجمة.

● ترجمة القرآن الكريم الى الفارسية والانجليزية والكردية (وهي مشاريع تشارف على الانتهاء).

● وماذا عن اقسام دار القرآن الكريم وفروعها؟ وما هي أهم المشاريع التي تضطلع بها الآن؟

كثيرة هي المشاريع القرآنية التي تصدّت لها دار القرآن الكريم فهناك «دائرة المعارف القرآنية» التي عقدت دار القرآن الكريم العزم على انجاز هذا المشروع الرائد، بيد أنّها أقدمت على إعداد «كشاف موضوعي للآيات»، كمقدمة لعملها، بنيّة وضعه بين يدي ذوي الخبرة والمتخصصين، كنموذج يمكن مناقشته، وتنضيج فكرته، لكي نصل الى أمثل صورة يمكن تدوين دائرة المعارف على اساسها. وبالفعل فقد باشر المحققون في الدار موضوع «الانسان في القرآن»، وأكملوا العمل في بعض العناوين الفرعية، من قبيل «الانسان والمجتمع»، «الانسان والحكم»، «الانسان والسنن الالهية»، «الانسان والاخلاق»، «الانسان والعبودية»، «الانسان والطبيعة»، «الانسان والمصير»، «الانسان والخلقة»، «الانسان والاحتياجات»، «الانسان والخصائص»، «الانسان ويوم القيامة»... وسيتم طبع الجميع، بعد اتمام مراحل العمل إن شاء الله.

● كيف تقيّمون حضور دار القرآن الكريم خارج الجمهورية الاسلامية؟ وهل هناك خطة لتفعيل مشاريعكم في الخارج؟.

نشاطات دار القرآن في الخارج

مرضية، والحمد لله، وان كنّا نسعى بجد لتفعيل النشاط اكثر، ونحن الآن بصدد تدوين خطة عمل مدروسة للمستقبل ان شاءالله.

وللدار اتصالات ثقافية مع بلدان كثيرة الباكستان، الهند، كندا، افغانستان، آذربايجان (الروسية سابقاً)، الكويت، الأمارات، المملكة العربية السعودية، كردستان العراق، انكترا، وغيرها حيث تبعث الدار بمنشوراتها القرآنية والاسلامية الى تلك البلدان.

● تنهمك دار القرآن الكريم الآن في الاعداد لمؤتمرها السنوي الخامس.. فما هو محور هذا العام؟ وما هو سبب اختياره؟.

نعم سينعقد باذن الله، المؤتمر السنوي الخامس لعلوم القرآن ومفاهيمه الذي تقيمه دار القرآن، بمناسبة المبعث النبوي الشريف (٢٧ رجب) من كل عام، وسيشارك فيه كبار العلماء والاساتده، من الحوزات والجامعات، وقد اخترنا موضوع «القرآن والمجتمع» محوراً لمؤتمر هذا العام، وتمّ هذا الاختيار، عبر قنوات متخصصة، ناقشت الاقتراحات الواصلة، وخرجت بهذا العنوان لأمرين:

الاول: توجيه البحث القرآني نحو مشاكل المجتمع واعادة النظر في قضاياه.

الثاني: مناقشة النظريات الاجتماعية الجديدة، في العقد الاخير، ولا سيما نظريات الغربيين والمتغربين

● الملاحظ أن هذا المحور ما يزال بكراً، ويشكو من قلّة الدراسات المتخصصة والمعمقة فيه... فكيف عالجتم هذا الأمر وتفاديتم النقص الحاصل في هذا الحقل من الدراسات؟.

الأمر تماماً كما تقولون.. ولهذا اخترنا هذا العنوان موضوعاً للمؤتمر، على أمل المساهمة في سدّ الثغرة، بالقدر المستطاع، وقد قمنا باتخاذ التدابير اللازمة، لتلافي هذا النقص، من قبيل تمديد الوقت، واعطاء الفرصة الكافية للكتاب والمحققين، واعداد ما يلزمهم من دعم وتشجيع، واعداد مادة علمية وما شاكل.

● ملاحظة:

لمزيد من الاطلاع على الخطوط التفصيلية للمؤتمر، انظر زاوية «أخبار قرآنية» في هذا العدد، فقد غطينًا فيها أهم ما يتعلق بهذا الموضوع. **(التحرير)**

أخبــار قرآنيّــة

اعداد: السيد علي جمال الحسيني

آية الله العظمى الگلپايگاني يستقبل فرقة القدر للتلاوة



قامت مؤخراً فرقة «القدر» للتلاوة والتواشيح المتشكلة من السادة:

محمد رضا پور زرگري، أصغر برومند، أحمد لبايي، محمد رضا جنتي وأمير محمد يون، بزيارة المرجع الديني الأعلى سماحة آية الله العظمى السيد محمد رضا الگلپايگاني دام ظله الشريف، وكان من ضمن الزائرين جملة من قرّاء القرآن الكريم، وقد قدمت فرقة القدر تلاوة وتواشيح جميلة ثم قدم سماحته للحاضرين شكره وثناءه ودعواته لجميع قراء القرآن وحفاظه، واختتم كلامه بالدعاء لنصر الاسلام والمسلمين، وخذلان الكفر والكافرين.

مجلة قرآنيّة للناشئين

من أجل ايجاد جو قرآني في اوساط الناشئين، ورفع مستوياتهم، وتعميق ثقافتهم، وتوثيق صلتهم بالقرآن الكريم أصدرت منظمه الأوقاف في الجمهورية الاسلامية مجلة قرآنية للناشئين تحت عنوان «شكوفه نور» [براعم النور] تحتوي على قصص وقصائد وهي دورية تصدر في كل شهر مرة واحدة.

وليس في وسع رسالة القرآن إلاّ أن تقول: مرحى... مرحى لهذا الوليد الجديد... مع تمنياتنا له بالموفقية والنجاح..

مسابقات قرآنيّة

أقيمت في طهران الدورة الأولى لمسابقات حفظ وتلاوة القرآن الكريم

الخاصة بطلبة المدارس في الدول الاسلامية وقد حاز المرتبة الاولى قارىء من الجمهورية الاسلامية في فرع التلاوة، وحافظ من السودان في فرع حفظ القرآن كاملًا، وآخر من ليبيا في فرع حفظ نصف القرآن الكريم.

كما شارك في هذه المسابقه قرّاء وحفّاظ من الباكستان، سورية، اليمن، السودان، تركيه، ليبيا، تركمنستان، اوزبكستان، الهند، بنغلادش، ماليزيا، اندنوسيا، والجمهورية الاسلامية في ايران.

وفي الحفل الختامي القى السيد حسين الهراشي معاون وزير التربية والتعليم كلمة اشار فيها الى الهدف من اقامة هذه المسابقة الدولية فقال: ان الاستكبار العالمي لا يفكر بغير تفرقة المسلمين وتشتيت كلمتهم، وهدفنا الأساسي من اقامة هذه المسابقات بين طلبة مدارس العالم الاسلامي هو جعل القرآن محوراً لتوحيد صفوف الامة الاسلامية.

وحمد الله على نجاح هذه التجربة نجاحاً ساحقاً.

وفي نهاية المسابقات نُظّمت للمشاركين مجموعة زيارات للمشاهد والمراقد المقدسة والمناطق الاثرية والتاريخية في مختلفه المدن الايرانية.

على هامش المسابقة:

● أحد الطلاب السودانيين المشاركين في المسابقات الدولية الاخيرة التي اقيمت في طهران صرح لصحفيين قائلاً: «تمنيت لو أنني ابقى في ايران الى الأبد» واضاف: «حينما دخلت ايران أحسست كأني في بيتي؛ إنّي احبّ فيكم روحكم المعنوية» واشار الى مشاركة الطلاب الايرانيين فقال: «تلاوة الطلاب الايرانيين اثارت إعجابي، كانت قراءة رائعة».

● السيد أنس القباني رئيس وفد الطلبة السوريين قال: ان الطلبة الايرانيين القراء ليس لهم نظير، وأضاف: لم ار طوال عمري حافظاً يتلو القرآن بمجرد سماع اسم السورة ورقم الآية، لكني وجدت ذلك في الطلبة الايرانيين.

● السيد علي طاهر محمد: رئيس وفد الطلبة السودانيين أبدى اعجابه بالطلبه الايرانيين لأنهم يقرأون القرآن بدقة متناهية تسحر السامعين وأضاف: نبارك للجمهورية الاسلامية جهودها في تغيير الطلبة الايرانيين وضخ الروح المعنوية فيهم.

دار القرآن الكريم تستعد لعقد مؤتمرها السنوي الخامس:

بمناسبة المبعث النبوي الشريف

المصادف للسابع والعشرين من رجب المرجب ١٤١٤هـ سيعقد باذنه تعالى المؤتمر الخامس لعلوم القرآن ومفاهيمه، الذي تقيمه سنوياً دار القرآن الكريم في مقرها بقم المقدسة.

وإنطلاقاً من حرص الدار على نشر تعاليم القرآن، وتقريب الاذهان والسلوك من هذا الكتاب السماوي العظيم، وطرح الموضوعات ذات الصلة الوثيقة بحياة الناس، فقد ناقشت اللجنة التحضيرية الدائمة جميع الاقتراحات الواصلة اليها، وأقرّت العنوان الآتي كموضوع للمؤتمر الخامس:

«القرآن والمجتمع»

وفي هذا السياق ارتأت الدار طرح العناوين الفرعية المقترحة على الاخصائيين، واصحاب الاقلام والافكار ليشاركوا في رفد المؤتمر، ويدخلوا في هذا المشروع المعطاء فتتمازج الآراء وتتلاقح الافكار، ليخرج المؤتمر بالنتائج المتوخاه.

العناوين الفرعية:

١ ـ المجتمع في المفهوم القرآني.

أ ـ المجتمع وجود حقيقي أو اعتباري؟.

ب ـ أصالة الفرد أو المجتمع أو كلاهما معاً.

ج ـ تقنين المجتمع.

د ـ عوامل تكامل المجتمع وانحطاطه.

هـ ـ المجتمعات السالفة عبرة للمجتمعات المعاصرة.

٢ ـ بنية المجتمع الاسلامي وخصائصه من زاوية نظر القرآن.

أ ـ العناصر المكونة للمجتمع.

ب ـ دور الاسرة وأهميتها.

ج ـ خصائص المجتمع الاسلامي.

٣ ـ قيادة المجتمع كما يراها القرآن.

أ ـ دور القيادة في المجتمع.

ب ـ صفات القائد وخصائصه.

ج ـ كيفية ادارة المجتمع ادارة صحيحة.

٤ ـ الفرد والمجتمع: الحقوق والواجبات المتقابلة.

أ ـ سلامة المجتمع وتأثيرها في سلامة الفرد.

ب ـ طرق توفير سلامة المجتمع.

ج ـ واجبات الفرد تجاه المجتمع.

د ـ دور الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في سلامة المجتمع.

هـ ـ تحديد الضرورات الاجتماعية على اساس مراحل العمر (الكبار، الشباب، الناشئين، الاطفال) ومعرفة هدي القرآن في ذلك.

٥ ـ المجتمع والاقتصاد في التصور القرآني.

أ ـ تأثير الوضع المادي على السلوك والاخلاق.

ب ـ حكم التبعيض والتفرقة والموقف منها.

ج ـ سلامة المجتمع اقتصادياً.

د ـ عوامل الانهيار الاقتصادي في المجتمع.

هـ ـ دور البذل والانفاق في انعاش المجتمع.

ورسالة القرآن تأمل أن يكون هذا المؤتمر مؤتمراً نافعاً مثمراً بإذن الله وببركة القرآن الكريم.

في العدد القادم

المصادر الرئيسية لكشّاف الزمخشري.

اقتباس الآي القرآني في الشعر العربي.

قصّة آية: المتصيدون في الماء العكر.

على طريق ذات الشوكة.

الشيخ المفيد مفسراً.

في بعض أحكام الأيتام

القرآن والمعاصرة

العرفان والقرآن